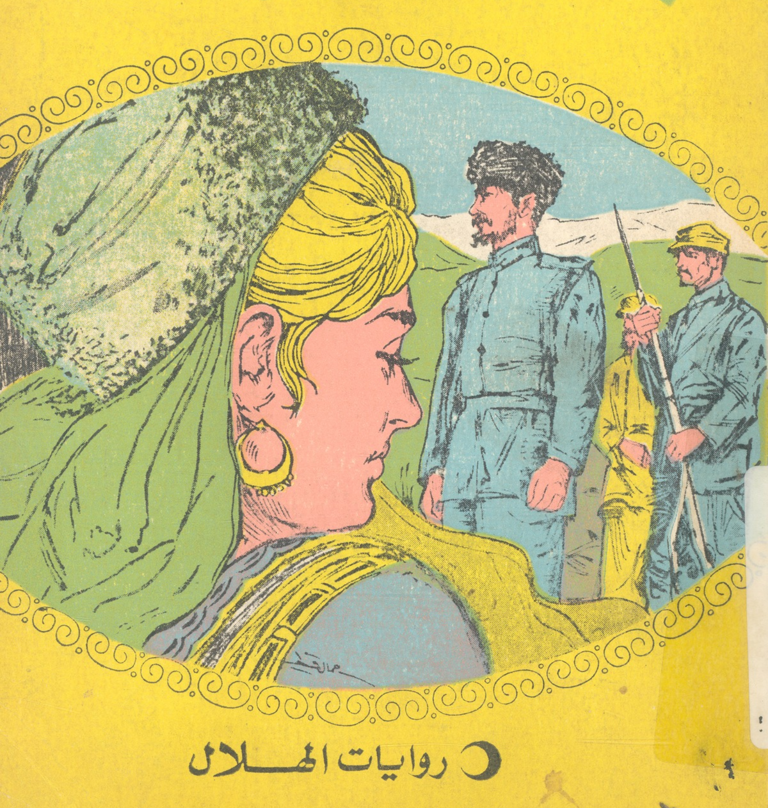
ليرمونتوف

بطل من زماننا



روايات الهلال

روايات الهلال

Rewayat Al-Hilal

تصدر عن مؤسسة « دار الهلال »
العدد ٢٥٢ – ديسمبر ١٩٦٩ – شوال ١٣٨٩
No. 252 - Décembre 1969

رئيس مجلس الإدارة : أحمد بهاء الدين
رئيس التحرير : رجاء النقاش

بيانات اداريه

ثمن العدد : فى الجمهورية العربية المتحدة ١٠٠ مليم – من الكميات المرسلة بالطائرة – فى سوريا ولبنان ١٢٥ قرشا، فى الاردن والعراق ١٣٠ فلسا

قيمة الاشتراك السنوى : « ١٢ عددا » فى الجمهورية العربية المتحدة وبلاد اتحاد البريد العربى والافريقى ١٠٠ قرش صاغ – فى سائر انحاء العالم ٥ ونصف دولارات او ٤٠ شلنا والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : فى الجمهوريه العربيه المتحدة والسودان بحوالة بريدية . فى الخارج بتحويل او بشيك مصرفى قابل الصرف فى « ج.ع.م » – والاسعار الموضحة اعلاه بالبريد العادى – وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل على الاسعار المحددة عند الطلب

الادارة : دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب – القاهرة
تليفون : ٢٠٦١٠ « عشرة خطوط »

●

الغلاف والرسوم الداخلية بريشة الفنان : جمال قطب

روايات الهلال

مجلة شهرية لنشر القصص العالمي

اهداءات ٢٠٠٣

بطل .. من زماننا

بقلم

ليرمونتوف

ترجمة

الدكتور سامي الدروبي

•

دار الهلال

مقدمة بقلم المؤلف

المقدمة فى كل كتاب ، هى أول شيء وآخر شيء ، تهدف اما الى شرح غاية الكتاب ، واما الى تبريره والرد على ما عسى ان يوجه اليه من نقد. ولكن القاريء لايعنى ، عادة ، لا بالهدف الاخلاقى ، ولا بهجمات المجلات ، وهو لذلك لا يقرأ المقدمات . ومن المؤسف ان يكون الأمر كذلك ، ولاسيما فى بلادنا التى لايزال جمهورها جديدا بسيطا لا يفهم الحكايات ، ما لم يجد فيها ، آخر الأمر ، عظة أخلاقية . فهو لا يكتشف المزاح ، ولا يدرك السخرية . حتى ليمكن أن نقول عنه ببساطة : انه قليل الثقافة . انه لا يعرف بعد ، ان الشتم ليس مقبولا فى مجتمع راق وكتاب جيد ، وان المدنية الحديثة قد ابتدعت سلاحا أمضى ، ولكنه قاتل ، يسدد تحت ستار من التملق ، ضربات صائبة لا سبيل الى تفاديها . ان جمهورنا أشبه بريفى سمع حديث رجلين من رجال الدبلوماسية يمثلان بلاطين متعادين ، فاعتقد ان كلا منهما يخون حكومته ، ما دامت تقوم بينهما الى الآن صداقة رقيقة .

لقد شقى هذا الكتاب ، مؤخرا بذلك النوع من التصديق الساذج لدى بعض القراء ، بل ولدى المجلات التى تفهم الأمور فهما حرفيا. فاستاء بعضهم استياء فظيعا لا مزيد بعده لمستزيد ، من تصويرنا نموذجا يبلغ من الابتعاد عن الاخلاق ما بلغه « بطل من هذا الزمان » وقال آخرون ، فى كثير من الرقة والرهافة : لا شك ان المؤلف قد رسم صورة نفسه ، وصورة من يعرف من الناس.. يا له من اتهام قديم تافه ! ان كل شيء ليتجدد فى روسيا ، الا هذه البلاهات . وما أعسر أن تنجو حكاية من الحكايات ، مهما تغرق فى الخيال ، من اتهامها بأنها أرادت أن تسيء الى شخص بعينه .

أيها القراء الاعزاء : ان « بطل من هذا الزمان » لهو صورة حقا ، ولكنه ليس صورة رجل واحد . انه صورة تضم رذائل جيلنا كله ، وقد بلغت كمال التفتح . قد تقولون لى مرة أخرى : ما من انسان يمكن أن يبلغ هذا المبلغ من الفساد . وجوابى : ترى لماذا تصدقون وجود جميع فجرة المآسى والروايات الرومنسيية ، ثم لا تصدقون

بأن شخصا مثل بتشورين يمكن أن يكون مستمدا من الواقع ؟ وكيف تطيب لكم أخيلة أفظع وأرهب ، ثم لا تلقى منكم صورة هذا الشخص، حتى ولو كانت خيالا ، قبولا ورضا ؟ ترى ألا يرجع ذلك الى أن هذه الصورة أصدق مما تحبون ؟..

ورب قائل منكم يقول : ان الأخلاق لا تجنى من ذلك خيرا ، فعلى رسلكم . لقد طالما غذى الناس بالحلوى حتى فسدت معدهم . وينبغى أن يتناولوا الآن عقاقير مرة وحقائق لاذعة . ولا تظنوا مع ذلك أن مؤلف هذا الكتاب قد دار فى خلده يوما ذلك الحلم الدعى ، وهو أن يقيم نفسه وصيا على الناس يصلح ما فسد من أخلاقهم . وقانا الله شر الادعاء العريض . وانما احببت على سبيل التفكه أن أصور انسان هذا العصر ، كما فهمته ، وكما اتفق لى أن لقيته فى كثير جدا من الأحيان ، لسوء طالعى ولسوء طالعكم . وحسبى أن أشير الى الداء .. أما وسائل البرء فعلمها عند الله .

الفصل الأول

بيلا



بيلا

غادرت تفليس على عربة من عربات البريد . وكان متاعى كله حقيبة صغيرة تحتل مذكراتى عن رحلتى فى جورجيا نصفها . ومن حسن حظك أيها القارىء الصديق ان معظم تلك المذكرات قد ضاع ، ولكن من حسن حظى اننى احتفظت بالحقيبة مع أشيائى الأخرى .

كانت الشمس قد بدأت تغيب وراء سلسلة من الذرى التى يكسوها الثلج ، حين دخلت وادى كويشاءورى . وكان سائق العربة ، وهو رجل أوسيتى ، يستحث الخيل فى كل لحظة ، رجاء أن يصل الى قمة جبل كويشاءورى قبل الليل وكان يغنى ملء حنجرته . ان هذا الوادى لمكان رائع حقا : فأينما تتجه ببصرك تر جبالا منيعة ، والصخور الضاربة الى الحمرة يتشبث بها اللبلاب وتتوجها مجموعات من أشجار الدلب ، ومنحدرات وعرة صفراء تخددها مجارى السيول . فاذا نظرت الى أعلى رأيت أهداب الثلوج تسطع بلون الذهب . واذا نقلت بصرك الى تحت رأيت نهر آراغفا ، اتحدت أمواهه بأمواه نهر آخر لا اسم له ، يتدفق صاخبا من مضيق اسود حافل بالضباب ، ثم يمتد كخيط من الفضة طويل ، ويسطع كحية فى الشمس .

فلما وصلنا الى سفح جبل كويشاءورى توقفنا على مقربة من دكان * ، وكان هنالك نحو عشرين جورجيا وجبليا فى جلبة ولغط . وكان هنالك قافلة من الجمال وقفت غير بعيد من ذلك المكان لقضاء الليل . وكان على أن أكترى ابقارا تجر عربتى على هذا الجبل الخطر ، فلقد كان الوقت خريفا والجليد يغشى الجبال . وكان على أن أجتاز ما يقرب من فرستين ** .

استأجرت ست بقرات ، وبضعة رجال من أهل البلد ، حمل أحدهم حقيبتى على كتفيه ، وراح الآخرون يساعدون فى سير العربة ، ولكن مساعدتهم هذه كادت تكون بالصراخ فى الدواب فحسب. ورأيت وراء عربتى أربع ابقار تجر عربة أخرى بلا جهد ظاهر ،

* دكان : فى القفقاس مطعم .
** الفرست يزيد قليلا عن الكيلومتر .

مع ان العربة تعج بأحمال كثيرة . فأدهشنى ذلك . وكان يتبعها رجل يدخن غليونا صغيرا من كاباردا مزينا بالفضة . كان الرجل يرتدى لباس ضابط بلا شارات على الكتفين ، وعلى رأسه قلبق شركسى . وكان وجهه يدل على انه فى نحو الخمسين من عمره . وكانت بشرته السمراء تدل على ان شمس القفقاس قد لفحته مدة طويلة ، وكان شارباه اللذان ابيضا من الشيب قبل الأوان لايتناسبان مع خطواته القوية وملامحه الحازمة . فاقتربت منه وانحنيت له ، فرد على تحيتى صامتا ، وسحب من غليونه نفسا كبيرا .

قلت له : أظن اننا نسير فى طريق واحدة ؟

فانحنى مرة ثانية ، صامتا أيضا .

فاستأنفت أسأله : لعلك ذاهب الى ستافروبول ؟

ــ هو كما تقول ... واحمل هذه الاشياء كلها الى الادارة .

ــ هل لك أن تفهمنى ، من فضلك ، كيف تستطيع هذه الأبقار الأربع أن تجر عربتك الثقيلة ، بمثل هذه السهولة ، ثم لا تكاد تقدر أبقارى الست التى يعاونها جميع هؤلاء الأوسيتيين أن تجر عربتى مع أنها فارغة ؟

فابتسم ابتسامة ماكرة وقال وهو ينظر الى نظرة معبرة :

ــ أراهن على أنك لا تقيم فى القفقاس الا منذ مدة قصيرة .

قلت : منذ سنة .

فابتسم مرة أخرى .

قلت : لماذا لا تجيب ؟

ــ اسمع .. ان هؤلاء الآسيويين خبثاء ! أتظن ان صراخهم هذا يفيد ؟ حاول أن تفهم هذا الكلام الذى يجأرون به ! ان أبقارهم وحدها تستطيع أن تفهمه . لو كدنت عشرين بقرة ، فلن تتحرك الأبقار ، متى أخذوا يصيحون هذا الصياح الذى يعرفونه .. انهم ماكرون رهيبون ! وماذا يمكن أن نأمل منهم ؟ انهم يحبون أن يبتزوا من المسافر مالا .. لقد أسرفنا فى تدليل هؤلاء اللصوص ! سترى انهم سيطلبون اليك فوق أجرتهم عطاء . ولكنى أعرفهم ، ولا أدع لهم أن يخدعونى !

ــ انت تخدم هنا منذ مدة طويلة ؟

فأجاب وهو ينتصب :

ــ نعم .. لقد خدمت منذ أيام الكسى بتروفتش*. كنت ملازما

---

* هو يرمولوف ، جنرال روسى ، كان قائدا عاما فى القفقاس .

حين وصل الى الجبهة . وقد رقيت مرتين أثناء مقابلتى سكان الجبال بقيادته .

ــ والآن ، انت ؟ ..

ــ أنا الآن أنتمى الى الكتيبة الثالثة من الجبهة . وأنت ؟ هل يحق ان أسألك من انت ؟

فقلت له : من أنا .

ووقف الحديث عند هذا الحد ، وواصلنا السير صامتين جنبا الى جنب . وفى قمة الجبل وجدنا ثلوجا . كانت الشمس قد غابت ، واعقب الليل النهار فورا على ما هو مألوف فى الجنوب . ولكن كان يسهل علينا ، من التماع الثلج ، أن نميز الطريق الصاعدة ، ولو ببطء .

وامرت بوضع الحقيبة فى العربة ، وابدلت البقر خيلا ، وغرق بصرى مرة اخيرة فى الوادى . الا ان ضبابا كثيفا كان يتصاعد من فجاج الجبل ، ويغطى الوادى بسحبه يتلو بعضها بعضا ، وما كان يرقى الينا أى صوت من تحت . وأحاط بى الأوسيتيون صاخبين يطلبون عطاء . ولكن الضابط اومأ اليهم بقسوة ، فغابوا فى لمحة عين .

قال صاحبى :

ــ يا لهؤلاء الناس ! انهم لا يعرفون كيف يسمون الخبز بالروسية ولكنهم تعلموا ان يسألوك : «سيدى الضابط ، هل لى منك بعطاء» . انى لأوثر عليهم رجال التتر ، فالتتر لا يشربون الخمر ، فى أقل تقدير ...

وكان علينا ان نقطع فرستا قبل أن نصل الى المحطة التالية . كان كل شيء من حولنا ساكنا هادئا ، حتى ليستطيع المرء أن يتابع طيران الذبابة من سماع طنينها . وكان على شمالنا فج عميق بشكل ثغرة كبيرة سوداء ، وراءه وأمامنا ذرى الجبال ، وقد خددتها الغضون وغشيتها الثلوج ، تبدو بلون أزرق قاتم ، وتنتصب فى الأفق الشاحب الذى كان لايزال يحتفظ بشيء من التماعات الشفق . وكانت النجوم تشتعل فى السماء القاتمة نجمة نجمة ، ومن الغريب أنها لاحت لى اعلى مما نراها فى بلادنا بالشمال . وعلى حافتى الطريق ، تقوم الصخور سوداء عارية . وهذى شجيرات تبرز هنا وهناك من تحت الثلج ، ولكن ما من ورقة جافة تتحرك ، كان يحلو لنا ، فى صمت الموت هذا الذى يرين على الطبيعة ، أن نسمع شخير أفراسنا الثلاثة المكدودة ، ورنين الأجراس الروسية تجلجل على غير اطراد .

قلت : سيكون الجو جميلا فى الغد !
فكان جواب الضابط أن أومأ بأصبعه الى جبل عال كان ينتصب أمامنا .
قلت : ما هذا الجبل ؟
ـ انه جبل الجود ..
ـ وماذا تريد أن تقول ؟ ..
ـ انظر كيف يتصاعد منه الدخان !
حقا لقد كانت تتصاعد من جنباته سحائب خفيفة من البخار ، وكانت تمتد على ذروته غيمة سوداء ، كأنها من سوادها بقعة فى السماء القاتمة .

وامسينا نميز المحطة ، ونرى سقوف الأكواخ التى تحف بها ، وتتراءى لنا الأضواء المتراقصة ، حين أخذت تهب ريح رطبة باردة ، وحين أخذ الفج يئن ، وأخذ يهطل رذاذ من المطر . فما أن وضعت معطفى على كتفى حتى طفق الثلج يهطل سبائخ كبيرة . ونظرت الى الرئيس ممتثلا ، فقال فى مضض :
ـ سنضطر الى التلبث هنا طوال الليل ، فمن المستحيل أن نجتاز الجبال فى جو كهذا . ثم التفت الى السائق يسأله :
ـ قل لى أيها الصديق ، هل يتهافت الثلج من جبل كرستوفايا ؟
فأجابه الأوستينى بقوله :
ـ لم يتهافت بعد ياسيدى ، ولكنه يوشك ، يوشك .
ولما لم يكن فى المحطة غرف للمسافرين ، اقتادونا الى كوخ مدخن نقضى فيه الليل . ودعوت رفيق الطريق الى احتساء قدح من الشاى معى ، فقد كنت أملك غلاية من المعدن ، وهى سلواى الوحيدة فى أسفارى عبر القفقاس .

كان الكوخ ملتصقا بالصخرة من احد جوانبه ، وكان هناك ثلاث درجات رطبة منزلقة تؤدى الى الباب . فدخلت متلمسا ، واصطدمت ببقرة « ان الزريبة تقوم لدى هؤلاء الناس مقام حجرة المدخل » . ولم أعرف الى أية ناحية أتجه ، فهاهنا خراف تثغو ، وهاهنا كلب ينخر . ومن حسن حظى ان ضوءا كابيا فى ركن من الاركان أتاح لى أن اكتشف فتحة أخرى تشبه أن تكون بابا ، فدخلت ، فاذا أنا أمام لوحة شائقة : ان الكوخ الواسع الذى يسند سقفه عمودان اسودا من الدخان ، كان يعج بالناس . وفى وسطه تلتمع نار أوقدت على الأرض ، والدخان الذى تصده ريح آتية من فتحة السقف ، ينتشر

كأنه غطاء كثيف ، حتى لقد ظللت مدة طويلة لا أميز شيئا . كان هناك امرأتان عجوزتان ، وأطفال كثيرون ، وجورجى نحيل ، وكانت تغطيهم جميعا أسمال بالية ، وقد تحلقوا حول النار يستدفئون . ولم يبق علينا ، نحن أيضا ، الا أن نجلس على مقربة من النار ، وان نشعل غليونينا . وما هى الا لحظة حتى أخذت الفلاية تغنى غناء حبيبا الى القلب .

قلت للرئيس ، وأنا أشير الى هذه المخلوقات القذرة التى كانت تنظر الينا صامتة بنوع من الحيرة :

ــ مساكين هؤلاء الناس .

ــ انهم أغبياء . هل تصدق ذلك ؟ انهم لا يجيدون أى عمل ، يعجزون عن تعلم أى شىء . ان جماعتنا الكاباردييين والتشتشينيين، على انهم من الصعاليك وقطاع الطرق ، يمتازون بحرارة الدم فى أقل تقدير . أما هؤلاء فلا يميلون حتى الى السلاح أى ميل . وما من واحد منهم يملك خنجرا مناسبا ! انهم اوسيتيون وكفى !

ــ وهل عشت فى تشتشينا مدة طويلة ؟

ــ نعم ، لقد ظللت مع سريتى عشر سنوات ، بقلعة كامنى برود . هل تعرفها ؟ ..

ــ سمعت عنها ..

ياويلنا مما لقينا من هؤلاء الناس أيها السيد ! الحمد لله على انهم هدءوا الآن بعض الهدوء . أما فى ذلك الوقت فكان يكفى أن تخرج عن المتاريس مسافة مائة خطوة حتى تكون على يقين من أن شيطانا رجيما يتربص بك ، فاذا ذهلت لحظة واحدة وجدت نفسك وقد تلقفك حبل ينزلق على عنقك أو تصيبك رصاصة فى نقرتك !

يا لخشونتهم وقوة بأسهم !

قلت له ، يدفعنى حب الاستطلاع :

ــ لا شك أن مغامرات كثيرة وقعت لك ؟

ــ مغامرات ؟ .. هه !..

قال هذا واخذ يفتل شاربه الأيسر، مطرقا حالما . واستبدت بى رغبة جامحة فى استدراجه الى سرد قصة من القصص ، وهى رغبة طبيعية لدى جميع الذين يقومون برحلات ويسجلون ملاحظات . وغلى الماء اثناء ذلك ، فتناولت من حقيبتى قدحين ملأتهما شايا ، ووضعت أحدهما امام صاحبى . فجرع جرعة ، ثم قال كمن يحدث نفسه : طبعا .. وقعت لى مغامرات !..

وملأتنى هذه الكلمات أملا . كنت أعرف ان القفقاسيين الاقدمين يحبون أن يتكلموا وأن يقصوا ، فذلك لا يتاح لهم الا قليلا : حتى لقد يقضى بعضهم مع سريته فى ركن مجهول من الأرض خمس سنين طوال ، ثم لا يسمع خلال هذه السنين الخمس كلمة « عم صباحا » (لأن الصول لا يحييهم الا بالصيغة الرسمية) . ومع ذلك فما أكثر الأشياء التى يمكن أن يتحدثوا عنها : انهم محاطون بأناس همج يحلو للمرء أن يدرسهم ، والخطر يحف بهم فى كل يوم ، وقد تقع أغرب الحالات ، ومن المؤسف حقا انهم قلما يسجلون .

قلت لصاحبى :

ـ هل لك بقليل من خمر الروم تضيفها الى الشاى ؟ ان لدى روما أبيض ، من تفليس .. وهذا مساء بارد .

ـ كلا ، فاننى لا أشرب .. شكرا .

ـ لماذا لا تشرب ؟ ..

ـ لاننى حلفت لن أشرب . ففى ذات مرة ، وقد شربنا قليلا ـ كنت يومئذ ملازما ثانيا ـ انطلقت اشارة الخطر فى الليل ، فمضينا الى مقدمة جنودنا نترنح قليلا . آه ما كان أشد حنق الكسى بتروفتش حين بلغه الأمر ! لقد غضب يومئذ غضبا هائلا ، وكاد يقدمنا للمحاكمة أمام مجلس حربى . ثم انه ليتفق أن يبقى سنة كاملة لا يرى خلالها أحدا من الناس ، فاذا أخذ يشرب فقد أضاع نفسه .. هذا أمر لا مراء فيه .

فلما نطق بهذه الكلمات أوشكت أن أفقد كل أمل ، ولكنه استأنف كلامه يقول :

ـ من ذلك أن الشراكسة اذا شربوا البوزا * فى احتفال من احتفالات الأعراس أو الدفن ، انتهى ذلك دائما بطعان . وفى ذات مرة ، لم أستطع أن أنجو الا بكثير من العناء ، رغم أننى كنت فى ضيافة أمير موال .

ـ قص على ما وقع .

ـ اليك ما وقع (وهنا حشا غليونه ونشق منه نفسا كبيرا وبدأ يتحدث) :

ـ منذ ما يقرب من خمس سنين ، كنت مع سريتى فى قلعة وراء التيريك . وفى ذات يوم من أيام الخريف وصلت الينا شحنة من المؤونة مع ضابط فى نحو الخامسة والعشرين من عمره ، قدم الى

---

* البوزا : نوع من المشروبات الروحية القفقاسية .

نفسه بكامل ملابسه الرسمية ، وصرح انه أرسل الى هذه القلعة ليعمل تحت امرتي. كان الرجل شديد النحول، شديد الشحوب ، وكان جاكيته جديدا بحيث أدركت فورا انه حديث العهد بالقفقاس .
قلت له : « لعلك قادم من روسيا ؟ » قال : « نعم سيدى الرئيس » . قلت وأنا أصافحه : « يسعدنا أن تكون بيننـــا . وسينتابك الملل قليلا .. غير اننا سنكون أصدقاء ، سترى ذلك . وأرجوك أن تخاطبني باسمي على غير كلفة ، ان اسمى مكسيم مكسيمتش ، ودع عنك هذا اللباس رقم ١ ، وتعال الى دائما بقبعة عادية » . ثم أمرت له ببيت ، وأقام فى القلعة .

ـ وماذا كان اسمه ؟ ..

ـ كان اسمه جريجورى الكسندروفتش بتشورين . أجرؤ أن أقول انه فتى طيب ، ولكنه عجيب بعض الشىء . كان يتفق لنا ان ننفق يوما بكامله فى الصيد ، تحت وابل من المطر المنهمر فى البرد القارس ، فكان كل واحد يرتجف ، وقد هدنا التعب هدا ، الا هو . وفى أحيان أخرى كان يشكو ، وهو فى غرفته ، من قر الريح ، ويؤكد انه أصيب منه بزكام . اذا قرقع الباب ، ارتعش وامتقع لونه من الخوف ، وفى ذات مرة رأيته يصطاد خنزيرا بريا وحده . وكثيرا ما يصمت ساعات طوالا لا تستطيع خلالها أن تنتزع منه كلمة واحدة ، حتى اذا أخذ يتحدث ، ضحكت ثم ضحكت حتى أغرقت فى الضحك . نعم ، لقد كان مليئا بالغرائب ، ولا شك انه كان غنيا ، لانه كان يملك أشياء ثمينة كثيرة .

ـ وهل عاش بينكم مدة طويلة ؟ ..

ـ ستة كاملة . سنة سأذكرها ما حييت . لشد ما أحدث لى من قلق ، عفا الله عنه . هناك أناس كتب عليهم أن تقع لهم مغامرات خارقة ! ..

هتفت وقد ظهر على الاهتمام ، ورحت أملأ قدح صاحبى :

ـ خارقة ؟ ..

ـ اسمع واحكم بنفسك . كان يقطن ، على بعد ستة فرستات من القلعة ، أمير انعقدت بيني وبينه أواصر الصداقة . وقد تعود ابنه ، وهو صبى فى الخامسة عشرة من عمره ، أن يأتى الى القلعة يزورنا ، فكان يجىء كل يوم لأمر من الامور . وكنا فى الحق ندلله كثيرا أنا وبتشورين ، وكان هو عفريتا حقا . يا لحيويته ! كان يستطيع من على صهوة جواده الذى يعدو عدوا سريعا أن يلتقط

قبعة من الارض ، وأن يصوب بندقيته الى هدف فيصيبه . ولكن آفته الكبرى انه يحب المال كثيرا . حتى لقد وعده بتشورين ذات يوم بدينار اذا هو سرق له من قطيع ابيه أحسن تيس ، فلما كان المساء من الغد دخل علينا يجر التيس من قرنيه . وكنا نحب فى بعض الأحيان أن نناكده ، فاذا بعينيه تحتقنان بالدم ، واذا هو يمد يده الى خنجره على الفور . فكنت أقول له : « ياعزمت ، لن تحمل رأسك على كتفيك طويلا !.. ولابد أن تحل بك يوما كارثة ! »

وفى ذات يوم وصل الينا أبوه الأمير بنفسه ، يدعونا الى حفلة زواج ابنته الكبرى . لقد كنا أصدقاء . فكان يستحيل أن نرفض الدعوة . . . وسرنا اليه ، فلما وصلنا ، استقبلتنا الكلاب بنباح قوى ، وأخذت النساء تخفى وجوهها اذ ترانا . واللاتى استطعنا أن نرى وجوههن لم يكن لهن حظ من جمال . قال بتشورين : « كان ظنى فى الشركسيات انهن أجمل من ذلك » . فأجبته مبتسما : « انتظر ولسوف ترى » . كنت قد بيت أمرا .

كان بيت الأمير يعج بالناس . فالشرقيون ، كما تعلم ، يدعون الى حفلات الأعراس من هب ودب . واستقبلنا الناس فى كثير من الاحترام ، وقادونا الى القاعة الكبرى . وحرصت على أن أعرف أين يضعون خيلنا ، فليس يدرى أحد ما الذى يمكن أن يقع !

ـ وكيف يحتفل عندهم بالأعراس ؟ ..

ـ الامر بسيط !.. يقرأ « الملا » آيات من القرآن قبل كل شيء . ثم تقدم الهدايا للعروسين وأقربائهم جميعا . ثم يأكل الناس ويشربون البوزا . وبعد ذلك يبدأ استعراض ألعاب الفرسان . ولابد أن يؤتى بشخص قذر ، يرتدى أسمالا ، فيمتطى حصانا أعرج ، ويقوم بحركات مضحكة ، يسلى بها الناس ! حتى اذا جاء المساء بدأ فى القاعة شيء يشبه أن يكون حفلة رقص . فيأخذ عجوز فقير بالضرب على الأوتار الثلاثة من آلة يسمونها.. نسيت كيف يسمونها انها تشبه عندنا البالالايكا * ، فينهض الشباب والصبايا يصطفون صفين متقابلين ، ويصفقون ويغنون ، ثم يتقدم الى وسطهم فتاة وفتى ، يتناشدان بصوت رتيب ما يخطر على بالهما من أبيات يرددها الناس بعدهما كأنهم « جوقة » . كنا جالسين أنا وبتشورين فى صدر القاعة . وفجأة تقدمت نحوه صفرى بنات صاحب البيت (لا تكاد

---

* آلة موسيقية روسية ذات أوتار .

تبلغ السادسة عشرة من عمرها) ، وغنته ــ كيف اقول ؟ ــ نوعا من المديح .

ــ ماد: قالت له على وجه الضبط ؟ .. هل تتذكر ؟ ..

قالت له تقريبا :

فرسانا الشبان وسيمون
وأثوابهم مطرزة بالفضة
ولـكن الضابط الروسى الشاب
أجمل منهم وأبهى
بريمه من ذهب
كأنه بينهم شجرة حور
لـكنه لن يكبر فى بستاننا ولن يزهر .

فنهض بتشورين ، وحياها برفع يده الى جبينه ثم الى قلبه ، ورجانى أن أترجم لها جوابه ، لأننى أجيد لغتهم . فلما ابتعدت همست فى اذن بتشورين أسأله : كيف تراها ؟ ..

ــ فاتنة .. ما أسمها ؟ ..

ــ اسمها بيلا ..

كانت حقا فاتنة : فارعة القوام ، دقيقة الخصر ، عيناها سوداوان كأنهما عينا غزال تنفذان الى صميم القلب . ورأيت بتشورين يحلم ، ولا يفارقها ببصره ، وكانت هى أيضا تختلس النظر اليه كثيرا . ولكنه لم يكن الشخص الوحيد المعجب بالأميرة الجميلة . فلقد كان هنالك عينان أخريان تسددان اليها من أحد أركان الغرفة نظرة ساكنة حارة . انه كازبتش ، أحد الذين أعرفهم منذ مدة طويلة. كان لايمكن ان نعرف أهو خاضع أم متمرد ؟ كانت تحوم حوله شبهات كثيرة ، ولكنه لم يفاجأ مرة واحدة متلبسا بالجرم . وكان يقود الى القلعة فى بعض الأحيان شياها نشتريها منه بسعر غير باهظ. ولكن المساومة معه كانت مستحيلة ، فهو لا يخفض السعر الذى يطلبه مثقال ذرة . ولأن يموت خير عنده من النزول عن ذلك السعر . قالوا انه كثيرا ما كان يمضى مع الابريكيين * الى ما وراء الكوبان . والحق أن هيئته هيئة رجل من رجال العصابات : كان قصيرا ، نحيلا ، معروق المنكبين . وكان كالشيطان خفة وسرعة حركة . وكنت لاترى

---

* ابريك : باللغة الاوسيتية يعنى قاطع الطرق ، وقد اصبح الناس يطلقون هذا الاسم على سكان الجبال ابان الحرب القفقاسية ، أولئك الذين كانوا يقاومون الجيش الروسى .

قميصه الا ممزقا مرقعا ، ولكن أسلحته كانت مرصعة بالفضة .
وكانت ألسن جميع الناس فى كاباردا تكيل المديح لحصانه . والحق ان من الصعب على المرء أن يتخيل حصانا أجود من ذلك الحصان .
كان جميع الفرسان يحسدونه عليه . وقد حاول بعضهم غير مرة أن يسرقه ، دون أن يظفر بطائل . ما زلت أتخيل ذلك الحصان حتى لكأننى أراه . كان أسود فاحما ، وكانت عراقيبه دقيقة كأنها الحبال ، وكانت عيناه لا تقلان جمالا عن عينى بيلا . أما قوته فحدث عنها ولا حرج ! كان يستطيع أن يعدو مسافة خمسين فرستا بلا توقف .
وكان مروضا مطواعا يتبع صاحبه كالكلب ، بل كان يعرف صاحبه من صوته . وكان كازبتش لا يربطه ابدا . كان الحصان يليق برجل من رجال العصابات ..

لم أر كازبتش مكفهر الوجه كما رأيته فى ذلك المساء . ولاحظت انه يرتدى تحت قميصه زردا . قلت فى نفسى : « لأمر ما لبس كازبتش زردا ، فلا شك انه يبيت أمرا .. »

كانت الحرارة خانقة فى الكوخ . فخرجت أتنشق الهواء الرطب.
وكان الليل قد خيم على الجبال ، وأخذ الضباب يغشى الفجاج .

وخطر ببالى أن أقترب من السقيفة ، حيث ربطت خيولنا ، لأطمئن الى أنها تعتلف ، ثم ان الحيطة واجبة ... كان لى حصان جميل ، رآه كثير من الكاباردييين ، فهتفوا من العجب : ياكشى تخيه ، تشيك ياكشى ! *

وسرت أحاذى السياج ، فاذا انا أسمع صوتين على حين غرة .
كنت أعرف أحد هذين الصوتين معرفة تامة ، انه صوت ذلك المتسكع عزمت ، ابن صاحب الدعوة ، وكان الصوت الآخر لايتكلم الا قليلا ، وكان خافتا . تساءلت : « ترى فيم يتحدثان ؟.. أعن حصانى مثلا ؟ » ثم جثوت عند السياج ، وأصخت بسمعى ، أحاول الا تفوتنى كلمة مما يقولان . ولكن ما يصل الى من البيت من غناء وجلبة وصخب كان يصمنى فى بعض اللحظات عن سماع هذا الحديث الذى أحرص على سماعه كل الحرص .
قال عزمت :

ــ ما اجمل حصانك !.. لو كنت الآمر الناهى فى هذا البيت ، وكان لى ثلاثمائة فرس ، لأعطيتك نصفها ثمنا لحصانك ياكازبتش.

* حصان جميل ، جميل جدا .

« ها ... انه اذن كازبتش .. » وتذكرت الزرد الذى يرتديه تحت القميص .
قال كازبتش بعد لحظة من صمت :

ــ ليس له فى كاباردا كلها نظير .. ذهبت ذات مرة مع الابريكيين، وراء تيريك ، نغزو الروس ، ونسلب خيولهم ، ولكن الحظ لم يسعفنا ، فتفرق شملنا ، وراح يطاردنى أربعة من القوزاق * كنت أسمع من ورائى صراخ الكفار وشتائمهم . وكانت امامى غابة كثيفة. فانبطحت على سرجى ، اتكلت على الله .. ولأول مرة فى حياتى أسأت الى حصانى اذ ضربته بالسوط .. فراح يشق طريقه بين أوراق الشجر كالطير . كان الشوك يمزق ثيابى ، وكانت أغصان الدردار اليابسة تضرب وجهى ضربا شديدا . وحصانى يقفز فوق ارومات الاشجار المقطوعة ، ويقتحم صدره الادغال اقتحاما . كان من الافضل أن أدعه عند طرف الغابة ، وأن أمضى على قدمى أختبىء بين الاشجار ، ولكن قلبى لم يقبل أن أنفصل عن الحصان ، وجزانى الله على ذلك خيرا ... وأزت رصاصات فوق رأسى ، وكنت أسمع وقع أقدام القوزاق وقد ترجلوا يعدون ورائى ... ثم اذا بأخدود عميق يظهر امامى على حين غرة ، فتردد حصانى لحظة ثم وثب . ولكن رجليه انزلقتا على الحافة الثانية من الاخدود ، فظل معلقا بيديه . فتركت الزمام ، وتدحرجت فى الاخدود . واستطاع حصانى أن ينقذ نفسه ، وأن يستأنف عدوه ... وراى القوزاق كل ما وقع ، ولكن لم ينزل أحد منهم ليبحث عنى ، ولعلهم اعتقدوا أننى مت . وسمعتهم ينطلقون فى ملاحقة كاراخيز . كان قلبى يدمى . وأخذت أزحف على الاعشاب الكثيفة فى الاخدود. ثم نظرت فاذا هى نهاية الغابة . لقد انطلق عدد من القوزاق فى السهل. وكان حصانى يعدو أمامهم ، وهم يلاحقونه صارخين . وظلوا يطاردونه مدة طويلة ، حتى أوشك أحدهم أن يقبض عليه بالحبل مرتين . كنت أرتعد فخفضت عينى ، وأخذت أدعو . ثم نظرت بعد لحظة فاذا كاراخيز ينطلق سريعا حرا كالريح ، ناشرا ذيله ، والكفرة يتقاطرون فى السهب على جيادهم التى أنهكها التعب فعجزت عن مواصلة العدو . أقسم لك بالله انى أقول الحقيقة ، الحقيقة صرفة بلا زيادة ولا نقصان ! لقد بقيت فى الاخدود حتى ساعة متأخرة من الليل . وفجأة ــ هل تصدق ذلك يا عزمت ؟ ــ سمعت فى الظلام

* القوزاق قبل ثورة اكتوبر ، فئة عسكرية كانت فى خدمة الحكومة القيصرية .

وقع حوافر حصان يعدو على حافة الاخـدود ... انه يتخف ، ويصهل ، ويضرب الارض بسنابكه : عرفت صوت حصاني كاراخيز انه هو ، رفيقي الامين !.. ومنذ ذلك الحين لم نفترق قط يوما.

وسمعت كازبتش يربت على عنق حصانه الدقيق ، ويناديه بأرق الاسماء . قال عزمت :

ـ لو كنت أملك الف فرس لبادلتك بها على كاراخيز .

فأجابه كازبتش بعدم اكتراث :

ـ وما كنت لأقبل ، يوك * .

قال عزمت وقد رق صوته :

ـ اسمع يا كازبتش ، انت رجل شهم ، وفارس شجاع ، في حين ان ابي يخاف من الروس ، يمنعني من المضي الى الجبال ، أعطني حصانك أفعل لك ما تريد : أسرق لك من أبي بندقيته ، وسيفه ، وكل ما تشتهي ... وأنت تعلم أن سيف أبي دمشقي أصلي : يكفي أن تلمس شفرته الجسم حتى تنفذ في اللحم من تلقاء نفسها ، لا تبالي زردا كزردك !

وصمت كازبتش ، فأردف عزمت يقول : حين رأيتك على صهوة حصانك اول مرة ، كان يتثنى ويتوثب ويرتعش منخراه ، وتخرج حوافره من الصخر شررا . لا أستطيع أن أصف لك شعوري يومئذ . اصبح كل شيء بعد ذلك اليوم يثير في نفسي الاشمئزاز . احتقرت أجود خيول أبي ، وأصبحت أستحي أن امتطيها ، ويحرقني الشوق الى حصانك كاراخيز . اصبحت اقبع اياما بكاملها على صخرة ، استعرض بخيالي حصانك الاسود ، واتصور شموخه ، وظهره اللين ، المستقيم كالسهم . واراه يفرق في عيني نظرة عينيه الحادتين ، كأنه يهم أن يكلمني . يا كازبتش ، سأموت ان لم تبعني هذا الحصان ...

قال عزمت ذلك بصوت مرتعش وبدا لي انه يبكي . يجب أن أذكر لك انه كان عنيدا لا يشبهه في عناده أحد ، يستحيل أن تنهطل دموعه لأي سبب من الاسباب ، حتى منذ كان أصغر سنا ، والين عودا .

وسمعت شيئا يشبه أن يكون ضحكة يرد بها كازبتش على بكاء صاحبه . واردف عزمت يقول بصوت حازم :

ـ انني مستعد لكل شيء . هل تريد ؟ سأسرق لك اختي . آه

---

* *

ما أجمل رقصها ، ما أجمل غناءها ! وانها لتطرز بالذهب تطريزا يخطف العقول . ان سلطان الترك نفسه لايملك مثلها .. هل تريد ؟ انتظرني غدا في الفج عند مجرى السيل . فستمر من هناك بحجة الذهاب الى القرية المجاورة ، فتأخذها .. الا تساوي بيلاحصانك؟

ولزم كازبتش الصمت طويلا ، وكان جوابه في آخر الأمر انه أخذ ينشد أغنية من الأغاني القديمة ، بصوت خافت :

في قرانا كثير من حسان الصبايا .
تلمع عيونهن في الظلام كالنجوم .
ما أجمل أن نهواهن !
ولكن الحرية العارمة اجمل ...
بالذهب يمكن أن يشترى المرء أربع نساء .
ولكن الحصان الجواد لا ثمن له :
فهو يسابق الرياح في السهوب ،
لا يخون ،
ولا يخيب الظن ! ..

وعبثا كان عزمت يضرع اليه ، ويتملقه ، ويبكي ، ويقسم الايمان وضاق كازبتش ذرعا به في آخر الامر ، فقاطعه قائلا :

ـ اذهب أيها الغلام ، فأنت مجنون ؟ أأنت تستطيع أن تركب حصاني ؟ يمينا لو ركبته لرماك على الارض ودق عنقك قبل أن تمضي به ثلاث خطوات .

فهتف عزمت وقد ثارت ثائرته ، وبلغ منه الغضب كل مبلغ .

ـ أنا ؟ ..

وسمعت شفرة خنجره ، خنجر الطفل ، تصل على زرد كازبتش. فدفعه كازبتش بيده القوية ، فاصطدم بالسياج اصطداما عنيفا اهتز منه السياج . قلت في نفسي : « ستبدأ المعركة ! » وهرعت الى الاسطبل ، فلجمت الحصانين ، وأخرجتهما من الردهة الخلفية. وما انقضى على ذلك دقيقتان حتى كان البيت قد انقلب عاليه سافله ، ذلك ان عزمت سارع ، فمزق الجلباب ، يعلن ان كازبتش أراد أن يقتله .

لقد وثب جميع الناس الى بندقياتهم ، واستعرت نار المعركة . وأصبحت لا تسمع الا صراخا وضجيجا وطلقات الرصاص . ولكن كازبتش كان قد وثب الى حصانه ، ومرق بين الناس كالسهم وهو يهز بسيفه . قلت لبتشورين وأنا أجره من ذراعه : « أعتقد انه

من الافضل أن نبارح هذا المكان حالا : الهزيمة ثلثا الغنيمة » .
ـ انتظر ، أريد أن أرى كيف ينتهى هذا كله !
ـ تستطيع أن تكون على يقين من أن النهاية سيئة ! ان الامر يجرى دائما هكذا عند هؤلاء الشرقيين : يسكرون بالبوزا ، ثم تبدأ المذبحة .
ووثب كل منا الى حصانه ، ومضينا نعدو .
قلت للرئيس وقد نفد صبرى :
ـ وماذا وقع لـكازبتش ؟ ..
ـ وما عسى أن يقع لهؤلاء الناس ؟ ان كازبتش قد لاذ بالفرار !
قال ذلك وهو يفرغ قدحه .
ـ ولم يجرح ؟
ـ الحق أننى لا ادرى . ولكن هؤلاء الناس يتحملون ويكابرون. رأيت منهم من ثقبت أجسامهم أسنة الحراب حتى صاروا كالغربال، ثم ظلوا يهزون أسيافهم .
وبعد لحظة من صمت استأنف الرئيس كلامه ، وهو يضرب الارض بقدمه ، قائلا :
ـ لن اغفر لنفسى مدى الحياة تلك الخطيئة التى ارتكبتها حين عدنا الى القلعة . لقد قصصت على بتشورين كل ما سمعته من وراء السياج . فأخذ يضحك ـ هذا الماكر ـ ولـكنه كان قد بيت أمرا ..
ـ ماذا بيت من أمر ؟ .. أرجوك أن تقص على ذلك !

ـ ما دمت قد بدأت ، فيجب ان أستمر . وصل الينا عزمت بعد انقضاء أربعة أيام على ذلك الحادث . وعلى عادته ، دخل الى بتشورين الذى كان يهدى اليه شيئا من الحلوى دائما ، وكنت ساعتئذ هناك ، فدار الحديث عن الخيل . وأخذ بتشورين يكيل المديح لحصان كازبتش ، قائلا انه نشيط وشيق كالغزال ، وليس فى الدنيا كلها حصان يدانيه .

كانت عينا الفتى التترى تلتمع . ولكن لم يبد على بتشورين أنه كان يلاحظ ذلك . وحاولت عبثا أن أصرف الحديث الى شىء آخر، فكان بتشورين يرده دائما الى الكلام عن حصان كازبتش. واستمر الحال على هذا المنوال ، فكلما جاء عزمت الى القلعة دار الحديث عن حصان كازبتش. ولاحظت بعد ثلاثة أسابيع ان الفتى صار ممتقع اللون ، هزيل الجسم ، كالعشاق الذين تحدثنا عنهم الروايات. ولم

افهم من ذلك كله شيئا .. لأنني لم أدرك سر الأمر الا فيما بعد .
لقد أهاج بتشورين رغبة الفتى فى الحصان ، حتى أصبح الفتى قادرا على أن يقذف بنفسه الى الماء .. وقال له بتشورين يوما :
ـ انني أرى ، يا عزمت ، ان هذا الحصان يعجبك كثيرا .. والحق انك لن تراه أكثر مما تستطيع أن ترى عنقك! ولكن قل لى ، ماذا تعطى لمن يهدى اليك هذا الحصان ؟ ..
قال عزمت : كل ما يريد ..
ـ سوف أعطيك هذا الحصان اذن . ولكن على شرط : أن تحلف انك ستحقق هذا الشرط ..
ـ حلفت ... احلف انت أيضا .
ـ ليكن ما تريد . احلف ان الحصان سيكون لك.. اذا سلمتنى أختك بيلا : ان كاراخيز هو مهرها . هل تعجبك الصفقة ؟..
وصمت عزمت ..
ـ الا تريد ؟ لك ما تشاء . كنت احسبك رجلا ، ولكننى أرى الآن انك ما زلت طفلا. انت أصغر سنا من أن تمتطى صهوة جواد.
واحمر عزمت ، ثم قال : وابى ؟ ..
ـ الا يغيب عن البيت أبدا ؟ ..
ـ يغيب ...
ـ هل توافق ؟ ..
فقال عزمت ، وقد امتقع لونه حتى صار كالميت :
ـ أوافق ، ومتى تريد ذلك ؟ ..
ـ متى سيجيء كازبتش . لقد وعدنا أن يأتينا بعشرة خراف . الباقى على . ولـكن لا تنس وعدك يا عزمت !
وهكذا تمت الصفقة ... يا لها من صفقة وضيعة ذميمة .. صارحت بتشورين بذلك فيما بعد ، ولكنه اكتفى بأن قال : ينبغى لهذه الشركسية المتوحشة الصغيرة ان تعد نفسها سعيدة بالزواج من رجل مهذب مثلى . (لاحظ ان بتشورين سيعد زوجها رغم كل شيء) . ثم ان كازبتش لص تجب معاقبته بما يستحق أن يعاقب به . قل لى بربك : كيف يمكننى أن أجيب عن هذا الكلام ؟ فقد كنت فى ذلك الحين اجهل كل شيء عن المؤامرة التى بيتاها .
وفى ذات يوم جاء كازبتش يسألنى : هل بنـــا حاجة الى خراف وعسل ؟.. فأمرته أن يأتينا بالخراف والعسل غدا .
وبادر بتشورين فأبلغ عزمت النبأ . قال له :

ـ سيكون كاراخيز غدا فى حوزتى . فاذا لم تجئنى بأختك هذا المساء ، فلن ترى الحصان ...

فأجابه عزمت بقوله : نعم ...

ومضى الى القرية عدوا .

وفى المساء تناول بتشورين أسلحته وخرج من القلعة . أما كيف ائتمرا على هذا كله ، فذلك ما أجهله . المهم انهما عادا الى القلعة فى الليل معا ورأى الخفير على سرج عزمت امرأة شـــد ذراعاها وساقاها بوثاق ، وأسدل على وجهها حجاب .

فسألت الرئيس قائلا : والحصان ؟ ..

ـ انتظر لحظة ، فقد وصلنا الى الحديث عن الحصان . فى البكرة من صباح الغد وصل كازبتش يسوق أمامه عشرة خراف يريد أن يبيعها ، فربط حصانه عند السياج ودخل على . فقدمت له قدحا من الشاى ، فهو ـ على انه من قطاع الطريق ـ صديقى.

وتجاذبنا أطراف الحديث فى أمور شتى ... وفجأة رأيته يرتجف ويتبدل وجهه . ويقفز الى النافذة . كانت النافذة لسوء الحظ ، تطل على الباحة الخلفية .

قلت له : ما بك ؟ ..

قال وهو يرتعد : حصانى ! .. حصانى ! ..

وسمعت وقع الحوافر حقا .

ـ لاشك ان أحد القوزاق يصل الى القلعة .

فزأر يقول : لا !.. « أوروس يامان ، يامان ! » * .

ثم وثب الى خارج الغرفة كالفهد ، وبقفزتين صار بالباحة . وسد الخفير عليه باب القلعة ببندقيته ، ولكنه قفز فوقها وأخذ يركض فى الطريق ، فرأى عزمت يعدو بالحصـــان القوى الجبار كاراخيز وسط عاصفة من العجاج ، وقد ابتعد كثيرا . فلم يتمهل ، بل صوب بندقيته وأطلق النار . وتوقف لحظة فعرف أن رصاصته أخطأت الهدف ، فأطلق صرخة حادة وحطم بندقيته على صخرة ، والقى بنفسه على الارض ينتحب كالطفل .. وهرع رجال القلعة ، وتحلقوا حوله ، ولكنه لم ير أحدا . وأخذوا يعلقون على الحادث ، ثم قفلوا راجعين . وأمرت بأن يوضع ثمن الخراف لكازبتش الى جانبه . فلم يمسه ! كان مستلقيا على الارض كالميت ، وقد تمرغ وجهه بالتراب . وصدقنى اذا قلت لك : انه ظل على هذا الحال

---

* روسى ، حقير ، حقير !

طوال الليل ، حتى اذا طلع الصباح ، عاد الى القلعة يسأل أن يسمى له الشخص الذى خطف الحصان . وكان الخفير قد رأى عزمت يفك وثاق الحصان ثم يمضى به عدوا ، فلم يجد من الضرورى أن يخفى عنه اسمه . فلما سمع كازبتش اسم عزمت ، طار الشرر من عينيه ، واتجه نحو القرية التى يعيش فيها أبو عزمت .

ـ ثم ماذا ؟ ..

ـ انه لم يجد الأب فى البيت ، فلقد سافر الاب ، وسيغيب ستة أيام والا فهل كان يتاح لعزمت أن يقتاد اخته ؟ ..

ولما عاد الأب من رحلته لم يجد ابنته ولا ابنه . كان عزمت يقدر عاقبة عمله ، ويعرف ان ما فعله يمكن أن يكون جزاؤه الموت . ولم ير أحد عزمت بعد ذلك . لعله التحق بعصابة من الابريك ، ثم هلك فى مكان ما وراء التيريك أو الكوبان ... نهاية يستحقها !..

اعترف ان ذلك كله ازعجني كثيرا . وحين علمت أن الشركسية عند بتشورين ، وضعت شارة رتبتى العسكرية على كتفى ، وتناولت سيفى ، وذهبت اليه .

كان مستلقيا على سريره فى الغرفة الأولى ، وقد وضع احدى يديه تحت عنقه ، وأمسك بالأخرى غليونه المنطفىء . وكان باب الحجرة الثانية مغلقا ، والمفتاح ليس على القفل . رأيت هذا كله بلمحة واحدة .. وأخذت أسعل وأضرب نعلى بالارض ، ولكنه تظاهر بأنه لا يسمع . فقلت بلهجة صارمة :

ـ ايها السيد الملازم الثانى ، ألا ترى أننى هنا ؟ ..

ـ ها !.. أهلا وسهلا مكسيم مكسيمتش !.. هل تريد غليونا ؟ قال ذلك دون أن ينهض .

ـ عفوا .. لست مكسيم مكسيمتش ، أنا رئيسك !

ـ سيان .. هل تريد قدحا من الشاى ؟ ليتك تعرف الامر الذى يعذبنى ويرهقنى .

قلت وأنا أقترب من السرير : أعرف كل شىء .

ـ حسن انك تعرف كل شىء ، ذلك ان مزاجى لايساعدنى الآن على الكلام .

ـ أيها السيد الملازم الثانى ، لقد اقترفت عملا ربما سئلت عنه أنا أيضا ..

ـ دعك من هذا الكلام ! الم نتعود أن نتقاسم كل شىء ؟

ـ كفاك مزاحا ، سلمنى سيفك من فضلك ! ..

ـ ميتكا ، هات السيف ! ..

وجاءنى ميتكا بالسيف . فلما فرغت من واجبى على هذه الصورة جلست على السرير وقلت :

ـ اسمع يا جريجورى الكسندروفتش ، اعترف بأن ما فعلته اساءة ! ..

ـ أى اساءة تعنى ؟ ..

ـ انك خطفت بيلا ! لاشك أنه ذلك الوغد عزمت! هيا ، اعترف.

ـ ولكنها تعجبنى ! ..

ماعسى أن أجيب عن هذا الكلام ؟ لقد صمت ، ولكننى قلت بعد لحظة : اذا طلبها ابوها فيجب أن تردها اليه .

ـ لا ! لا يجب .

ـ لكنه سيعرف أخيرا انها هنا ؟ ..

ـ وكيف يمكن أن يعرف ذلك ؟ ..

ومرة اخرى ، لم اجد ما اجيب به على كلامه . فقال بتشورين وهو ينتصب قائما :

ـ اسمع يامكسيم مكسيمتش ، انت رجل شهم ، واذا نحن رددنا الفتاة الى ذلك المتوحش فسيقتلها أو يبيعها . ما وقع قد وقع . وانما ينبغى الآن الا نفسد كل شيء سدى . دعها عندى ، واحتفظ بسيفى .

ـ ارنيها على الأقل .

ـ انها وراء هذا الباب . ولكننى عبثا حاولت أن اراها اليوم . انها قابعة فى ركن من أركان الحجرة . وقد أسدلت عليها حجابها. انها لا تتكلم ، ولا تنظر الى أحد . انها كثيرة الخوف كالغزال . لقد دعوت صاحبة الدكان الى خدمتى اليوم ، فهى تعرف اللغة التترية ، وسوف تعنى بالفتاة ، وتعودها على فكرة انها لى . ذلك انها لن تكون لأحد غيرى .

قال تلك الجملة الاخيرة وهو يضرب المنضدة بقبضة يده .

وافقت على كل شيء ، وهل يمكن ان افعل غير ذلك ؟.. ان هناك اشخاصا يضطر المرء دائما الى الموافقة على ما يريدون .

قلت لمكسيم مكسيمتش :

ـ وبعد ذلك ؟ .. هل استطاع ان يروضها وأن يجعلها انيسة او انها ضوت فى سجنها حنينا ؟..

ـ حنينا ؟ دعك من هذا الكلام ! لقد كانت ترى ، وهى فى قلعتنا ،

الجبال التى كانت تراها وهي في قريتها . وهل يحتـــاج هؤلاء المتوحشون الى أكثر من ذلك ؟ وكان بتشورين يقدم اليها فى كل يوم هدية جديدة . فكانت فى أول الامر ترفض الهدايا صامتة متكبرة . واستفادت من ذلك كله المراة التى عهد اليها بخدمتها ، فازدادت من ذلك فصاحة وبلاغة . آه من الهدايا كم تفعل فى النساء ! اى شيء ترفض المراة أن تفعله من أجل خرقة ملونة ؟ !.. ولكن دعنا من هذا الآن . لقد تعب بتشورين كثيرا . وكان يتعلم اللغة التترية أثناء ذلك ، وبدأت هى تفهم اللغة الروسية . وتعودت شيئا فشيئا أن تنظر اليه ، فكانت تنظر اليه فى أول الامر من تحت ، ثم أصبحت تنظر اليه بعد ذلك من جانب . ولكنها ظلت حزينة كاسفة البال ، وكانت تغنى بصوت خافت ، حتى ان الـكآبة كانت تتسرب الى نفسى انا أيضا ، حين أسمع غناءها من الغرفة المجاورة .. وشهدت ذات يوم منظرا لن انساه مدى الحياة : مررت قريبا من النافذة فالقيت نظرة على الحجرة ، فرأيت بيلا جالسة على فراش ، وقد أطرقت برأسها ، ورأيت بتشورين واقفا امامها يقول :

ـ اسمعى ياعزيزتى ! الا تعرفين أنك ستكونين لى عاجلا أوآجلا ؟ فلماذا تعذبيننى اذن ؟ أم انك تحبين احدا من التشتشينيين؟ اذا كان الامر كذلك تركتك تذهبين الى بيتك فورا . (وهنا ارتعشت ارتعاشة لا تكاد ترى ، وهزت رأسها بالانكار) . أم تراك تكرهيننى وتشمئزين منى ؟ (وهنا تنهدت) . أم ان دينك يمنعك أن تحبينى ؟ (وهنا اصفر وجهها ، وظلت صامتة) . صدقى ما أقوله لك . ان الله هو رب جميع الشعوب ، وكيف يسمح لى ان أحبك ثم لا يسمح لك أن تبادلينى حبا بحب ؟

فنظرت اليه مليا ، كأن هذه الفكرة قد اثرت فيها . وكانت عيناها تعبران فى آن واحد ، عن الشك فيما يقول ، والرغبة فى تصديق ما يقول ، يا لهاتين العينين ؟ انهما تلتمعان كجمرتين .

وأردف بتشورين يقول :

ـ اسمعى يا بيلا . انك ترين كم احبك . وانى قادر على أن افعل كل شيء من أجل أن تكونى سعيدة . أريد أن تكونى سعيدة. فان عاد اليك الحزن ، مت من ذلك غما . عدينى بأنك ستكونين مرحة

كانت بيلا تفكر دون أن تنفصــــل عيناها السوداوان عن عينى بتشورين ، ثم أفتر ثغرها عن ابتسامة رقيقة ، وهزت رأسها بنعم. فتناول بتشورين يدها وأراد أن يقنعها بتقبيلها ، فتمنعت بضعف ،

واكتفت بأن تكرر قولها : « لا ، لا ، دعنى » . وألح بتشورين . فأخذت ترتعش وتبكى ، ثم قالت : « اننى أسيرتك ، أنا عبدتك ، وتستطيع أن تحملنى على ما تشاء» ، وأجهشت تبكى مرة أخرى .

فضرب بتشورين جبينه بيده ، ومضى الى الحجرة الاخرى . فدخلت عليه ، فرأيته يذرع الغرفة جيئة وذهابا ، وقد شـبك يديه ، واكفهر وجهه .

ــ ما بك يا صديقى ؟ ..

ــ ان هذه المرأة لشيطان ، ولـكنها ستكون لى ، أقسم على ذلك

فلما هززت رأسى منكرا ، قال :

ــ هل تراهن ؟ .. ستكون لى بعد أسبوع !

ــ أراهن ..

وتراهنا ، ثم خرجت ..

وفى الغداة أسرع بتشورين ، فابتاع من كزليار أنواعا كثيرة من النسيج الفارسى ، لا أستطيع أن أحصى عددها ..

وقال لى ، وهو يعرض على هذه الاشياء كلها :

ــ هل تستطيع هذه الحسناء الشرقية أن تقاوم اغراء كهذا ؟..

أجبته قائلا :

ــ انك لا تعرف الشركسيات . شتان بينهن وبين الجرجيات ، أو تتريات القفقاس ، شتان . ان لهن لقواعد فى السلوك أخرى ، وقد نشأن على تربية أخرى .

فابتسم بتشورين ، وأخذ يصفر معزوفة عسكرية .

كنت على حق : ان الهدايا لم تؤثر فيها الا نصف تأثير : لقد غدت أرق حاشية ، وأكثر ثقة .. هذا كل شىء . فعزم بتشورين على اللجوء الى وسيلة أخيرة . ففى ذات صباح ، أسرج حصانه ، وارتدى لباسا شركسيا ، وحمل أسلحته ، وجاء اليها يقول :

ــ بيلا ، انك لترين كم أحبك . ولقد اختطفتك لاعتقادى بأنك ستحبيننى متى عرفتنى . والآن أدرك اننى أخطـأت التقدير ، فوداعا . كل ما أملك فهو لك . وتستطيعين أن تعودى الى أبيك ، اذا أحببت ذلك : أنت طليقة . لقد أسأت اليك ، وأريد الآن ان أعاقب نفسى ، وداعا . اننى ذاهب . الى أين ؟ لا أدرى ! وقد لا أنتظر طويلا الرصاصة أو الطعنة التى تحيلنى جثـة هامدة . اذكرينى ، واغفرى لى .

قال هذا ، ثم استدار ومد اليها يده مودعا . فلم تتناول بيلا

يده ، ولزمت الصمت . كنت وراء الباب ، وكنت انظر من أحد شقوقه فأرى وجهها . لقد اشفقت عليها ، ورثيت لحالها . كان وجهها اللطيف شاحبا شحوب الموتي . فلما رأى بتشورين انها لا تجيبه ، اتجه نحو الباب بضع خطوات . كان يرتجف . وأؤكد لك أنه كان قادرا على أن يفعل حقا ما قد زعمه مازحا : انه كذلك ولكن ما كاد يلامس الباب حتى وثبت اليه بيلا وارتمت على عنقه ، تجهش بالبكاء . هل تصدق ذلك ؟.. وبكيت أنا أيضا وراء الباب ... ما كان اغباني !

وصمت الرئيس ، ثم اردف يقول وهو يفتل شاربه :

ـ يجب أن اعترف لك انني حزنت على نفسي أشد الحزن ، اذ رايت أنني ما احبتني امرأة فى حياتى مثل هذا الحب .

قلت : وهل دامت سعادتهما مدة طويلة ؟ ..

ـ نعم ، لقد اعترفت لنا بأنها منذ رات بتشـــورين أول مرة اصبحت تراه فى احلامها ، وانها ما من رجل اثر فى نفسها مثلما اثر فيها بتشورين . نعم .. لقد سعد كل منهما بصاحبه ! ..

قلت على غير ارادة مني : يا لها من خاتمة باهتة ! كنت أتوقع أن تنحل العقدة بفاجعة ، وها قدخاب ظني. ولكنني أردفت أقول :

ـ وهل يعقل أن أباها لم يشتبه فى ان ابنته عندكم بالقلعة ؟..

ـ أعتقد ان هذه الظنون قد راودته . ولـكننا علمنـــا بعد الاختطاف ببضعة أيام انه قتل . واليك ظروف قتله ..

وعاد اهتمامى بالقصة فانتعش .. قال الرئيس :

ـ يجب أن أذكر لك ان كازبتش اعتقد أن عزمت سرق الحصان بموافقة أبيه . هذا ما اقدره أنا على الاقل . وفى ذات يوم تربص بالأب فى الطريق ، على مسافة ثلاثة فرستات من القرية . وكان الأب عائدا الى قريته بعد أن ظل يبحث عن ابنته فى كل مكان دون أن يظفر بطائل . وكان رجاله بعيدين وراءه . وكان حصانه يسير الهوينى ، وقد استغرق الرجل فى التفكير . فخرج كازبتش من أحد الادغال ، ووثب الى ردف الحصان كالهر، ورمى العجوزعلى الارض بطعنة من خنجره ، واستلم أزمة الحصان ، وولى هاربا . ولقد رأى بعض رجال الامير ما وقع ، فاندفعوا فى اثر القـــاتل يطاردونه ولـكنهم لم يستطيعوا أن يدركوه .

قلت محاولا أن أعرف رأى الرئيس :

ـ وهكذا عوض خسارته ، وانتقم لنفســه ، أليس كذلك ؟

ـ كان سلوكه من وجهة نظرهم سليما لا غبار عليه .
ولم يسعنى الا أن أدهش للروس كيف يتلاءمون بسرعة مع عادات الشعوب التى يضطرون الى الحياة بينها . ولست أدرى أهذا جدير بالذم أم بالمدح . ولكننى لا أشك فى انه يدل على مرونة نفسية عظيمة ، ويكشف عن حس سليم يغفر الشر متى رأى ضرورة لذلك ، أو متى رأى ان تحطيمه مستحيل .

وكنا قد شربنا الشاى أثناء ذلك . وكانت خيولنا التى ربطناها منذ مدة طويلة فى الثلج ترتعد فرائصها . وكان القمر يشحب فى جهة الغرب من السماء ، ويهم أن يدخل فى الغيوم السوداء المعلقة على الذرى البعيدة كأنها مزق من ستارة مشققة . وخرجنا . فاذا الجو مشرق رغم تنبؤات رفيقى ، وكل شىء يبشر بصباح جميل. كانت النجوم التى تطوف فى الافق البعيد ، تنتشر كأنها زخارف رائعة ، ولكنها كانت تنطفىء واحدة بعد أخرى على قدر ما كان الضوء الشاحب الآتى من الشرق يجتاح السماء ، يصبغها بلون بنفسجى قاتم ، وينير منحدرات الجبال الوعرة المغطاة بالثلج البكر، شيئا فشيئا . وكانت تلوح ذات اليمين وذات الشمال مهاو حزينة خفية ، كأنها بقع سوداء ، وكان الضباب الذى يتلفف ثم ينتشر كأنه الافاعى ، يزحف نحوها فى الاخاديد الكبيرة بين الصخور المتجاورة ، كأنه يشعر باقتراب النهار ويخشاه .

كان كل ما فى السماء وما فى الارض هادئا كقلب الانسان ساعة الصلاة فى الصباح . غير ان ريحا باردة متقطعة كانت تهب من الشرق تنفش أعراف خيولنا المغطاة بالصقيع . وسرنا . كانت الخيول الخمسة الضعيفة الهزيلة تجد كثيرا من العناء فى جر عربتينا على هذا الطريق المتعرج الذى يؤدى الى جبل الجود . فكنا نسير على الاقدام ، ونسند العجلات بالحجارة حين تعجز الخيل عن مواصلة السير . لكأن هذا الطريق تؤدى الى السماء ، فلقد كانت صاعدة على مدى البصر كله الى أن تغيب فى السحاب الذى امتد على جبل الجود منذ مساء أمس ، كأنه حداة تتربص بفريستها . كان الثلج يصر تحت أقدامنا . وكان الهواء من الخفة بحيث يصعب التنفس. فكان الدم يصعد الى رءوسنا فى كل لحظة . غير أن شيئا من الارتياح كان يسرى فى عروقى ، وكنت أشعر بشىء من الفرح لاننى بلغت هذا المبلغ من العلو فوق العالم . وانى لأعترف بأن هذا الشعور شعور طفل ولكن الانسان حين يبتعـــد عن المواضعات الاجتماعية

ويقترب من الطبيعة يغدو طفلا رغم انفه . فالنفس تتحرر من المعانى التى اكتسبتها ، وتعود الى ما كانت عليه سابقا ، وما قد تصير اليه يوما ما . ان من سيتاح له ، كما أتيح لى أن يجتاز الجبال المنعزلة ، وان يتأمل منـــاظرها الســـاحرة طويلا ، وأن يتنشق هواء الفجاج المنعش فى نهم ، سيفهم من غير شك رغبتى هذه فى الحديث عن تلك المشاهد الخلابة وفى وصفها والـكلام عليها .

ووصلنا أخيرا الى قمة جبل الجود ، فتوقفنا نسرح ابصـــارنا حولنا . ان سحابة رمادية تحلق فى الجو ، وتنذر انسامها بان عاصفة ستهب بعد قليل . غير ان ما يسطع به المشرق من ذهب وضياء انسانا كلينا وجود السحابة ، نعم .. حتى الرئيس نسى وجود السحابة . ان القلوب البسيطة تحس بعظمة الطبيعة احساسا اقوى واعنف مائة مرة من احساسنا بها نحن الذين نتحمس كثيرا فى الـكلام وعلى الورق .

قلت لصاحبى : لاشك انك معتاد على هذه المناظر الرائعة ؟..

ـ نعم ، ان المرء ليتعود حتى على أزيز الرصاص ، أو قل على اخفاء ضربات قلبه الذى يدق على غير ارادة منه .

ـ ولكننى سمعت من بعض قدماء الجنود ان لهذه الموسيقى فتنتها .

ـ نعم .. انها ممتعة ، بمعنى واحد من المعانى ، وهو ان ضربات القلب تزداد قوة .

ثم اشار الى المشرق واضاف يقول :

ـ انظر ما أجمل هذا البلد !

حقا انه لمنظر رائع ، ما اظن اننى ستتاح لى رؤية مثله . كان تحتنا وادى كويشاءورى ، يمر به كخيطين من الفضـــة ، نهر آراغفا ونهر آخر ، ويزحف فوقه بخار أزرق يتجه نحو الفجاج المجاورة كأنه يريد أن يحتمى بها من أشعة الصباح الدافئة . وذات اليمين وذات الشمال ذرى ما تنفك فى صعود ، تتصالب وتتطاول ويغمرها الثلج ، ويغطيها النبات . وفى البعد تبـــدو الجبال هى نفسها ، بيد انه ما من صخرة فيها تشبه الاخرى . وهذه الثلوج كلها تلتمع بضياء كأنه الفضة المذهبة ، ضياء فرح نير تراه العين فيحب المرء أن يقضى فى هذا المكان حياته كلها . وكانت الشمس تهم أن تشرق من وراء جبل ازرق قاتم لا تفرقه عن السحابة الا عين بصيرة متمرسة . ولكن خطا داميا كان يمتد فوق الشمس ، رآه صاحبى فقال :

ـ لقد كنت على حق . سيكون الجو رديئا هذا اليوم . يجب ان نفذ السير ، والا فوجئنا بالعاصفة على كرستوفايا ...

قال ذلك ثم هتف بالسائقين : هلموا ! ..

ووضعت السلاسل على العجلات لتكون مكبحا يمنعها من الانزلاق السريع ، وامسك السائقان بأزمة الخيل ، وبدأ الانحدار. كان على يميننا صخرة وعلى شمالنا فج تبدو لنا منه القرية الاوسيتية التى تقبع فى آخره ، كأنها عش من أعشاش السنونو . وارتعدت حين تصورت ان هذا الطريق الذى لا يمكن أن تتلاقى فيه عربتان يمر فيه البريد تحت جنح الليل ، عشر مرات فى السنة ، حتى دون أن ينزل من عربته المرتجة . كان أحد سائقينا روسيا ، فلاحا من ياروسلاقل ، والآخر اوسيتيا . وكان الاوسيتى يقود حصان مجر العجلة بالزمام ، ويحترز ويحتاط كثيرا ، بعد أن حل أحصنة العارض . أما صاحبنا الروسي فكان لا يبالى ، حتى انه لم يغادر مقعده فى العربة ! حتى اذا نبهته الى انه يستطيع فى أقل تقدير ، أن يهتم بحقيبتى التى لا أريد أبدا أن أمضى الى قـــاع الهـــوة لالتقاطها متى سقطت ، أجابنى بقوله : « هون عليك ياسيدى ، سنصل باذن الله سالمين ! ولسنا نقوم بهذه الرحلة أول مرة ! » .

لقد كان على حق : كان يمكن الا نصل ، ولكننا وصلنا مع ذلك . الا ليت الناس يبذلون مزيدا من الجهد فى التفكير ، اذن لأدركوا ان الحياة لا تستحق أن نعنى بها كل هذه العناية ...

لعلكم تريدون أن تعرفوا خاتمة قصة بيلا ! ولكننى لا أكتب الآن قصة ، وانما أسجل مذكرات رحلة ، ولا أستطيع أن أحمل الرئيس على متابعة قصته قبل أن يريد هو ذلك . فتجملوا اذن بالصبر، أو فاقلبوا بضع صفحات اذا شئتم . ولكننى لا أنصح لكم بهذا ، لأن قصة مرورنا بكرستوفايا (أو جبل سان كرستوف ، كما أسماها الحكيم جاميا) جديرة باهتمامكم ..

لقد هبطنا اذن من جبل الجود الى وادى تشرتوفا .. ان الاسم لرومانسى ! لاشك انكم تتصورون مغارة روح الشر بين هذه الصخور التى لا يمكن الوصول اليها ! ولكنكم مخطئون . ان كلمة تشرتوفا مشتقة من « تشرتا » (بمعنى خط) لا من « تشورت » (بمعنى شيطان) ، فهنا كانت حدود جورجيا فى القديم . ان الوادى ملىء بالثلج ، حتى ليذكر كثيرا بساراتوف ، وتامبوف وغيرهما من الامكنة الفائتة فى وطننا .

حين وصلنا الى وادى تشرتوفا ، قال الرئيس وهو يشير الى ذروة يغطيها الثلج : هذه كرستوفايا .

ان صليبا من الحجر يلوح اسود فى ذروتها التى يؤدى اليها طريق لا يكاد يرى ولا يسير فيه السائرون الا حين يتكاثر الثلج ، فيتعذر السير فى الطريق الجانبى . وقال السائقان ان الثلوج لم يبدأ تهافتها من الجبل بعد ، ودار بنا حول كرستوفايا ، مراعاة للخيل ، فما أن سرنا فى الطريق قليلا حتى التقينا بخمسة أوسيتيين عرضوا علينا خدماتهم وتعلقوا بالعجلات ، وراحوا يجرون عرباتنا ويقومونها ، وهم يصرخون . لاشك ان الطريق لم تكن خالية من الخطر . كنا نرى على يميننا أكواما من الثلج منتصبة فوق رءوسنا ، تهم أن تتهافت فى الفج عند أول نسمة تهب . وكان الثلج يغطى بعض أجزاء الطريق الضيق ، يتهاوى تحت أقدامنا فى بعض المواضع ، وقد اذابته أشعة الشمس فى مواضع أخرى فاستحال الى جليد فى ليالى الصقيع . فكنا لا نتقدم نحن أيضا الا فى كثير من العناء . والخيل تقع من حين الى حين . وكان الى شمالنا صدع عميق فاغر يجرى فيه سيل يختبىء تحت قشرة من الثلج تارة ، ويتواثب مزبدا على الصخور السوداء تارة أخرى . أنفقنا ساعتين حتى درنا حول كرستوفايا ساعتين من أجل فرستين . وفى أثناء ذلك هبطت السحب وأخذ البرد والثلج يهطلان وأخذت الريح تفور فى الفجاج وتزأر وتصفر كأنها سولوفيى رازبوينك * ، وسرعان ما غاب الصليب الحجرى فى الضباب الذى تتلاحق أمواجه من الشرق ، وما تنفك تزداد كثافة وسرعة .. يجب أن أذكر عابرا أن هناك رأيا تتناقله الاجيال بصدد هذا الصليب ، وهو ان الامبراطور بطرس الاول هو الذى نصبه فى هذا المكان ابان رحلة قام بها الى القفقاس . ولكننا نعلم ان بطرس لم يذهب أبدا الى غير داغستان ، ثم لقد كتب على الصليب بأحرف كبيرة انه نصب بأمر الجنرال يرمولوف عام ١٨٢٤ . ولكن هذا الرأى كان راسخا فى عقول الناس ، حتى ليحتار المرء ماذا يصدق وماذا يكذب ، لاسيما واننا لم نتعود الركون الى صدق ما يكتب ..

بقى علينا ان نهبط ستة فرستات بين الصخور التى يغطيها الجليد وفى الثلج الموحل حتى نصل الى محطة كوبى . لقد أصبحت الخيل عاجزة عن مواصلة السير ، وكانت فرائصنا ترتعد وازدادت زمجرة

---

* «قاطع الطرق ــ البلبل» فى الاساطير الروسية قائد عصابة قطاع الطرق الذى روع الركاب المارة بصفيره

الاعصار . ان هذه العاصفة تشبه عواصف الشمال ، ولكن نبراتها المتوحشة كانت اشد تأوها واعمق حزنا . خاطبتهـــا بينى وبين نفسى : « وانت أيضا أيتها المنفية تبكين السهوب الواسعة ، السهوب التى لا يحدها حد ، حيث تستطيع أجنحتك الباردة ان تنتشر ما شاء لها الانتشار ! اما هنا فانت فى مكان ضيق ، تختنقين كنسر سجين يلطم قضبان الحديد من قفصه صارخا » .

قال الرئيس :

ـ ان الجو ردىء . انظر من حولك . اننا لا نرى الا ضبـــابا وثلجا ، وقد نهوى فى منحدر أو أن نخسف فى حفرة . ولاشك ان نهر بايدارا ، تحت ، يطفح بماء الفيضـــان ، حتى ليستحيل ان نجتازه . آه من هذه الآسيا التى لايمكن أن يطمان فيها الى شىء ولا الى أحد !

وكان السائقان يضربان الخيل بالسياط صـــارخين شاتمين ، والخيل تنخف وتحرن كأنها لا تريد أن تخطو خطوة واحدة بحال من الأحوال، رغم بلاغة ضربات الأسواط كلها . وقال احد السائقين اخيرا :

ـ ياصاحب النبالة لن نستطيع الوصول الى كوبى هذا المساء فهلا انعطفنا شمالا ما دام فى الوقت متسع الى الآن ؟ هل ترى هناك على ذلك السفح شيئا أسود ؟ تلك بيوت يتوقف فيها المسافرون متى فاجأهم جو ردىء . يقول هؤلاء الاوسيتيون انهم يقودونكم الى ذلك المكان اذا منحتموهم عطاء .

قال الرئيس :

ـ اعرف ذلك ياعزيزى ، اعرفه بدون أن تقوله . انه ليسعد هؤلاء الخبثاء أن يبتزوا منا العطاء تلو العطاء .

فتدخلت قائلا : يجب الاعتراف بأن حالتنا تسوء كثيرا لولاهم .

فدمدم الرئيس يقول :

ـ نعم ، نعم ، ان هؤلاء الناس يشمون ، نعم ، يشمون كل فرصة تسنح للاستفادة منا . كأننا لا نستطيع أن نهتدى الى الطريق بدونهم

وانعطفنا شمالا ، فوصلنا الى الملجأ البائس فى غير قليـــل من العناء ، هو بيتان بنيا بالبلاط والحصى ، واحيطا بجدار من هذه المواد نفسها .. وفيهما أناس يرتدون أسمالا بالية ، استقبلونا بغير قليل من الترحيب والود . وقد عرفت فيما بعد أن الحكومة تأجرهم وتطعمهم على شرط أن يستقبلوا المسافرين الذين تباغتهم العاصفة .

قلت وأنا اجلس أمام النار :

ـ لابد لكل مايحدث من نتيجة طيبة.. تستطيع هنا أن تكمل سرد قصة بيلا . فانى على يقين من ان القصة ما انتهت .

ـ ومن اين أتاك هذا اليقين ؟

قال الرئيس ذلك وهو يطرف عينه ويبتسم ابتسامة متخابثة :

فاجبته : لأن هذا ليس من طبيعة الامور ، فالقصة التى تبدأ تلك البداية العجيبة لابد أن تنتهى بنهاية عجيبة كذلك .

ـ يمينا لقد حزرت .

ـ يسعدنى أن أحزر .

ـ أما انا فان ايقاظ هذه الذكريات يحزننى . كانت فتاة رائعة ، بيلا تلك . لقد الفتها فى نهاية الأمر ، فكنت اشعر نحوها شعور الأب نحو ابنته ، وكانت تحبنى هى أيضا ! يجب أن اذكر لك ان ليس لى اسرة . فانا منذ اثنتى عشرة سنة لا أعرف شيئا عن أمى ولا عن أبى . ولم يخطر ببالى أن أتزوج حين كنت شابا ، واحسب ان الاوان قد فات الآن . فاسعدنى أن أجد شخصا أدلله . كانت بيلا تغنينا وترقص لنا رقصة الليزغينكا.. آه ماكان اجمل رقصها ! لقد سبق لى أن رأيت صبيانا فى الارياف ، بل لقد كنت ذات يوم فى موسكو فى حفل يضم النبلاء منذ عشرين سنة ، ولكن ما شاهدته هناك من رقص لا يعد شيئا اذا قيس برقصها . وكان بتشورين يكسوها اجمل اللباس كأنها دمية من الدمى ، وكان يحيطها بألوان من الرعاية ، ويدللهـــا ، وكانت تزداد رونقا وســـناء . ما كان أروعها ! لقد زالت سفعة وجهها ويديها ، وتورد خداها .. وما اكثر ما كانت تضحك ! كانت لا تكف عن السخر منى ، تلك الشيطانة الصغيرة ، غفر الله لها ! ..

ـ ومتى انبأتموها بموت أبيها ؟

ـ كتمنا ذلك عنهـــا مدة طويلة الى أن تحسنت حالها . فلما صارحناها بالامر بكت يومين ثم نسيت .

انقضى على ذلك اربعة أشهر كانت تجرى الامور خلالها على احسن حال . وكان بتشورين يحب الصيد (أظن اننى ذكرت لك ذلك) . وكثيرا ما كانت تستبد به الرغبة فى المضى الى الغابة لمطاردة اليحمور والخنزير البرى . ثم أصبح الآن يقضى وقته كله فى القلعة لايبارحها. ولكن هاأنذا أفاجئه ذات يوم حالما مستغرقا فى التفكير ، يذرع غرفته جيئة وذهابا ، وقد وضع يديه وراء ظهره . وفى يوم آخر مضى الى الصيد دون أن يخبر بذلك أحدا ، وظل غائبا عن القلعـــة طوال

الضحى . وفعل ذلك مرة ثانية ، فثالثة ، ثم ما انفكت روحاته الى الصيد تزداد . قلت فى نفسى : هذا نذير سوء فلا بد أن شيئا وقع بينهما .

ودخلت الى بيتهما ذات صباح . كانت بيلا جالسة على سريرها بجلباب من الحرير الأسود ، وقد بدا على وجهها منعلامات الشحوب والحزن ما أخافنى .. اننى لأتصورها الآن كأننى رأيتها أمس .

ــ أين بتشورين ؟ ..

ــ فى الصيد .

ــ ذهب هذا الصباح ؟

صمتت كأنه يشق عليها كثيرا أن تجيب ، وقالت أخيرا وهى تزفر زفرة طويلة : بل ذهب أمس .

ــ لعل شيئا قد وقع له ؟

قالت وقد ترقرقت فى عينيها الدموع :

ــ لازمتنى هذه الفكرة أمس ، النهار كله كنت أتصوره وقد جرحه الخنزير البرى أو اختطفه الى الجبل أحد التشتشينيين .. كنت اتخيل جميع المصائب . اما اليوم فأنا أعتقد انه أصبح لايحبنى

ــ دعى عنك هذه الوساوس ياصغيرتى ، ما هذه الافكار ! وأخذت تبكى . ثم ما لبثت أن رفعت رأسها بكبرياء ، وجففت دموعها ، وأردفت تقول :

ــ اذا كان لايحبنى فمن ذا الذى يمنعه من ردى الى بيتى ؟ هل اكرهته على الاحتفاظ بى هنا ؟.. اذا استمر الحال هكذا فسأذهب .. أنا لست أمة له ، أنا ابنة أمير ! ..

وأحببت أن أهدئها فقلت :

ــ اسمعى يابيلا ، انه لايستطيع ان يبقى دائما بين يديك . انه شاب ، وهو يحب الصيد . ذهب وسيعود . واذا رآك دائما حزينة ، فلا شك أن هذا لن يلبث أن يضجره .

ــ نعم ، نعم ، أريد أن أكون مرحة !

قالت ذلك ، ثم ضحكت وتناولت طبلها ، وأخذت تغنى وترقص ، وتثب حولى . ولكن ذلك لم يدم طويلا ، فسرعان ما عادت فتهاوت على سريرها وأخفت وجهها بيديها .

شعرت بارتباك شديد . اننى لم أعن قبل ذلك بامرأة ! وتساءلت كيف أواسيها ، فلم يفتح الله على بشىء . ودام ذلك لحظة طويلة. صمتنا نحن الاثنين .. انه لموقف مزعج . وقلت لها أخيرا :

ـ هل تريدين أن نقوم بجولة على السور ؟ ان الجو جميل جدا !
كان ذلك اليوم من أروع أيام سبتمبر (ايلول) ، فالسماء صافية ، والحرارة معتدلة . وكنا نستطيع أن نميز كل جبل من الجبال بوضوح . ظللنا نتجول على السور جيئة وذهابا ، دون أن ينبس أحدنا بحرف . وأخيرا جلست هي على العشب ، فجلست الى جانبها . انى لأضحك كلما تذكرت ذلك الموقف : كنت لها كالوصيفة
كانت قلعتنا تقوم على قمة ، وكان المنظر الذى يرى من على السور رائعا حقا ، فمن جهة نرى أرضا فسيحة طليقة يخددها بعض الوديان ، ثم الغابة تمتد حتى ذروة الجبال ، ودخانا يصعد من القرية هنا وهناك ، وخيلا ترتعى . ومن جهة أخرى نرى نهرا غير عميق تبدأ عنده أدغال مكتظة تغطى الاعالى الحجيرة التى تمضى الى لقاء سلسلة القفقاس الكبرى . لقد جلسنا على الزاوية من نتوء فى الحصن بارز فكان ذلك يتيح لنا أن نرى كل ما قد يقع فى الجهتين . وانا لفى ذلك ، اذ ألمح رجلا يمتطى جوادا أشهب ، يخرج من الغابة ويقترب حتى يصبح على مسافة من القلعة لاتتجاوز مائة ذراع ، ثم يتوقف وراء النهر ، يلفت حصانه بحركة فيما يشبه الجنون . ما معنى هذا ؟
ـ انظرى يابيلا بعينيك الفتيتين الى هذا الفارس ترى ما جاء يصنع هنا ؟ ..
فنظرت بيلا حيث أنظر ، وهتفت : هذا كازبتش !
ـ آه من هذا اللص ، أهو يسخر منا ؟
وأمعنت النظر ، فعرفت فيه حقا كازبتش ، بسحنته الغبراء ، ورأيته قذرا كما كان ، ورأيت ثيابه رثة خلقة كما كانت أيضا .
وصرخت بيلا وهى تمسك بيدى : هذا حصان ابى .
وأخذت ترتعد ارتعاد ورقة من أوراق الشجر والتمعت عيناها بشرر . قلت فى نفسى : « ها ها .. أفأنت أيضا أيتها الصغيرة تجرى فى عروقك دماء قطاع الطرق ! .. »
وناديت الخفير ، وقلت له :
ـ صوب بندقيتك واقتل لى ذلك الرجل الباسل هناك ، اذا أردت أن تربح روبلا من فضة !
ـ أمرك مطاع ياصاحب النبالة ، ولكن الرجل لا يستقر فى مكان
ـ قل له اذن أن يهدأ .
قلت ذلك ضاحكا .

وصاح الخفير وهو يحرك يده :
ــ أيها الصديق قف قليلا ، مالك تدور كما تدور الدوامة ؟
ووقف كازبتش ليصيخ بسمعه . كان يحسب ان الخفير يريد أن يحادثه طبعا ! وسدد الجندى الممتاز بندقيته وأطلق النار . طاشت الرصاصة . فما كاد يشتعل البارود حتى كان كازبتش قد دفع حصانه وجعله يثب من جانب ، ثم اعتلى ركابه وصرخ ببعض الكلام ورفع سوطه بحركة من يهدد ومضى لا يلوى على شىء .
قلت للخفير : الا تخجل ؟ ..
فأجابنى مبررا فشله بقوله :
ــ لقد اقصدته ولكنه لم يسقط هنا وانما ذهب ليلقى مصرعه فى مكان آخر ياصاحب النبالة ، اذ لا سبيل الى قتل هؤلاء الشياطين بضربة واحدة .
وعاد بتشورين من صيده بعد ربع ساعة . فوثبت بيلا الى عنقه بلا شكوى ولا عتاب لغيابه الطويل .. أما أنا فكنت ساخطا عليه .
فقلت : هل تعرف ان كازبتش كان هنا وراء النهر منذ بضع دقائق ، واننا أطلقنا عليه النار ؟ كان يمكن أن يلقاك منذ برهة ، وهؤلاء الجبليون لا ينقضى حقدهم . هل تظن انه لم يقدر انك ساعدت عزمت ؟ وانى لأراهن على انه عرف اليوم بيلا . انا اعرف انها كانت تعجبه كثيرا منذ سنة . فلقد صارحنى هو نفسه بهذا ولو كان يأمل بجمع مهر كاف ، اذن لطلب يدها ما فى ذلك شك .
واستغرق بتشورين فى التفكير ، ثم أجاب :
ــ نعم .. يجب أن نكون أشد حذرا يا بيلا ، لا تصعدى الى السور بعد اليوم !
وفى تلك الليلة قام بينى وبينه حديث طويل . كان يؤلمنى أن أرى شعوره نحو هذه الفتاة البائسة قد تغير . لقد صار ينفق نصف وقته فى الصيد ، وفترت عاطفته واصبح لا يحبها كما كان يحبها من قبل . وكانت تهزل هزالا واضحا ، وشحب وجهها الصغير كثيرا ، وفقدت عيناها ما فيهما من بريق .
فكنت أسألها فى بعض الاحيان :
ــ لماذا تتنهدين يا بيلا .. أأنت حزينة ؟ ..
ــ لا ...
ــ هل ترغبين فى شىء ؟ ..
ــ لا ...

ـ هل بك حنين الى أهلك ؟ ..
ـ لم يبق لى أهل .
وكان يتفق أن ينقضي النهار بكامله لا أستطيع أن أنتزع منها غير « نعم » و « لا » .
وتحدثت فى هذا الى بتشورين فأجابني بقوله :
ـ اسمع يامكسيم مكسيمتش : ان لى طبعا رديئا لا أدرى هل يعود ذلك الى تربيتى أو الى ان الله خلقنى هكذا . ولكننى أعرف اننى ان كنت أسبب شقاء لغيرى ، فلست من ذلك فى سعادة وليس فى هذا كبير عزاء لهم ، ولكن الامر هو ذاك . فى شبابى منذ تحررت من وصاية ابوى أخذت أتمتع فى كثير من اللجاجة الصارمة بجميع ما يمكن الوصول اليه بالمال من الملذات . وانتهيت بطبيعة الحال الى الاشمئزاز من جميع تلك الملذات . ثم دخلت مجتمع الطبقة الراقية ، ولكننى سرعان ما سئمت منه ووقعت فى غرام عدد من حسناوات ذلك المجتمع ، ووقعن هن فى غرامى . ولكن هذا الغرام ما كان يزيد على أن يذكى خيالى وحبى لنفسى ، أما قلبى فظل خاويا .. وعندئذ أخذت أقرأ وأتثقف . ولكننى نفرت من العلوم أيضا ، فقد رأيت ان المجد والسعادة لا يتوقفان عليها ، لأن أسعد الناس جهلاء ، ولأن المجد رهن بالحظ ، ولا حاجة للمرء الا الى البراعة اذا شاء الوصول اليه .. وغدوت ضجرا . ثم ما لبثت أن امرت بالرحيل الى القفقاس ـ تلك أسعد لحظة فى حياتى كنت اظن ان الضجر لاسبيل له الى النفس تحت رصاص التشتشينيين : ولكن ظنى اخطأ ، فما كاد ينقضي شهر واحد حتى الفت أزيز الرصاص ومجاورة الموت ، وصرت أهتم بذلك كله أقل مما أهتم بطنين الذباب .. وغدوت اشد ضجرا مما كنت فى اى عهد مضى ، لأننى فقدت هنالك آخر أمل . وحين رأيت بيلا فى غرفتى حين وضعتها على ركبتى أول مرة وقبلت ضفائرها السود ، شعرت ـ ويالها من غباوة ـ ان القدر قد رحمنى ، فأرسل الى هذا الملاك ، ينتشلنى مما أنا فيه . لقد أخطأت الظن هذه المرة أيضا : ان حب هذه الصغيرة المتوحشة لا يفضل كثيرا حب سيدة كبيرة . فهذه تزعجنى ببساطتها وسذاجتها مثلما تزعجنى تلك بتكلفها وتفندرها. اننى لا ازال أحب بيلا ، ان شئت . ولن أنسى لها لحظات كانت عذبة حقا ، وانى قادر على أن اضحى بحياتى من اجلها . ولكن البقاء الى جانبها يضجرنى . لا أدرى أأنا أحمق أم أنا وغد . ولكن هناك شيئا لا مراء فيه ، وهو اننى جدير بالشفقة ، ولعلنى أجدر

بها منها . ان لى نفسا أفسدتها حياة المجتمع الراقى وخيالا قلقا ، وقلبا لا يشبع من جوع . لا شىء يروينى . فسرعان ما آلف الألم واللذة كليهما . وان وجودى ليزداد فراغا يوما بعد يوم . ولم يبق لى الا مخرج واحد : السفر . وسأسافر متى استطعت ذلك . غير اننى لن أسافر الى أوربا ، وقانى الله شر ذلك . بل أسافر الى امريكا ، الى جزيرة العرب ، الى الهند . وقد أقضى نحبى فى الطريق ! ولكننى أحسب ، على الأقل ، ان هذه السلوى الأخيرة لا تنفد سريعا ، بفضل العواصف والطرق الوعرة .

واسترسل فى مثل هذا الكلام مدة طويلة ، ولقد رسخت أقواله فى ذاكرتى ، لأننى ما سمعت قبل ذلك كلاما مثل هذا الكلام من فتى فى سنه ، وارجو الله الا اسمع مثله طوال حياتى .. أمر لايصدق ولكن قل لى : انت الذى كنت فى العاصمة منذ مدة غير طويلة فيما اظن ، هل كل الشباب هناك يشبهون هذا الشاب ؟

فأجبته بأن كثيرين يقولون ما يقول ، وربما كان بينهم من يقوله صادقا ، وان زوال الافتتان هذا قد نشأ كسائر المودات فى أعلى طبقات المجتمع ، ثم هبط الى أدناها حتى صار مبتذلا ، وان الذين يشعرون اليوم بالضجر حقا أكثر من غيرهم يحاولون اخفاء هـذا الداء على انه آفة وعيب .

ولم يفهم الرئيس هذه الامور المرهفة ، فهز راسه وابتسم ابتسامة متخابثة وهو يقول :

— لعل الفرنسيين هم الذين جعلوا الضجر مودة ؟

— بل هم الانجليز .

— ها .. حقا لقد كان الانجليز دائما سكيرين عربيدين ! ..

ولم استطع ان امتنع عن التفكير فى تلك السيدة الموسكوبية التى كانت تؤكد ان بايرون لم يكن الا سكيرا . ان الرئيس يعذر أكثر مما تعذر تلك السيدة : فهو يريد أن يمتنع عن الشراب ، فلا عجب ان أحاول أن يقنع نفسه بأن كل ما فى الدنيا من شرور مرده الى السكر . وأردف الرئيس يكمل سرد قصته بقوله :

— ولم يظهر كازبتش بعد ذلك . غير اننى (لا أدرى لماذا) ماكنت استطيع أن اطرد من ذهنى هذه الفكرة ، وهى انه لم يجىء الى القلعة عبثا ، وانه يدبر أمرا .

وفى ذات يوم أصر بتشورين على أن اصحبه الى صيد الخنزير البرى . فرفضت فى أول الامر .. الم ار فى حياتى خنزيرا بريا ؟

ولكنه استطاع أخيرا ان يجرنى الى ما اراد . فمضينا فى الصباح يصحبنا خمسة جنود . وظللنا حتى الساعة العاشرة نجوس القصب والغابة دون أن نعثر على شيء . قلت له : « الا نعود ؟ لماذا العناد ؟ لقد كتب علينا ألا يسعفنا اليوم حظ ! » ولكنه كان لايريد أن يعود خاوى الوفاض ، رغم الحرارة والتعب .. هكذا خلق : اذا عزم على شيء ، لايرجع عنه قيد انملة . لاشك ان أمه قد افسدته بالدلال فى صغره .. وفى نحو الظهر ، وقعنا أخيرا على واحد من هذه الخنازير البرية اللعينة . وأطلقنا النار .. ولكن الخنزير كان قد ولى الادبار ، واعتصم بين أشجار القصب . كان الحظ يصر على الا يواتينا فى ذلك اليوم .. وبعدما استرحنا قليلا ، قفلنا راجعين . كنا نسير جنبا الى جنب صامتين ، وقد أرخينا الاعنة . وفيما نحن على وشك الوصول (غير ان بعض الاشجار كانت تخفى القلعة عنا) اذ نحن نسمع صوت رصاص ينطلق .. فتبادلنا النظر ، وراودتنا شبهة واحدة ، فعدونا نحو الجهة التى جاء منها الصوت. فرأينا الجنود يهرعون على السور جماعة ، ويشيرون الى شيء فى السهل : انه فارس يهرب سريعا ، ويحمل على سرجه شيئا ابيض ، فصرخ بتشورين صرخة حادة يحسده عليها أى تشتشينى ، واستل بندقيته من جرابها ، واندفع وراء الفارس ، وتبعته .

ومن حسن الحظ ان خيلنا لم تكن مكدودة من الصيد ، فكانت تنهب الارض نهبا ، فاذا المسافة بيننا وبين الفارس الهارب ما تنفك تتناقص .. وأخيرا عرفت ان الفارس هو كازبتش ، ولكننى لم استطع أن أميز ما يحمل . فاندفعت بحصانى حتى حاذيت بتشورين ، وصحت به : « هذا كازبتش » ، فنظر بتشورين الى ، وهز رأسه ، وجلد حصانه .

واصبحنا من كازبتش على مرمى البندقية . عبثا يحاول ان يسرع . كان حصانه لا يتقدم الا فى مشقة ، اما لأنه متعب ، واما لأنه دون خيلنا . لاشك أنه تذكر فى تلك اللحظة حصانه كاراخيز .

ورأيت بتشورين يسدد اليه وهو يعدو .. فصحت به : « لاتطلق النار ، احتفظ بطلقتك ، فسندركه ! » آه من هؤلاء الشباب الذين يتحمسون حين لا تجب الحماسة !.. وانطلقت الرصاصة ، فحطمت احدى قدمى الحصان ، فما سار بضع قفزات بقوة اندفاعه ، حتى كبا ثم خر على ركبتيه . ووثب كازبتش على الارض ، فرأينا انه يحمل بين ذراعيه امرأة يغطيها حجاب أبيض . انها بيلا . مسكينة

بيلا ! وصاح كازبتش يقول لنا بلغته كلاما لم نفهمه ، ثم اشهر على بيلا خنجره .. لم يبق من الوقت لحظة نضيعها ، فأطلقت أنا النار تقديرا . أعتقد ان الرصاصة أصابته في كتفه ، لأن ذراعه ما لبثت أن سقطت .. فلما تبدد الدخان ، رأينا الحصان الجريح مجندلا على الارض ، ورأينا بيلا الى جانبه . اما كازبتش فكان قد ترك بندقيته ، وراح يتسلق احدى الصخور متسللا بين الشوك كالهر . كنت أرغب في أن أسقطه ، ولكن وقتي لا يتسع لشحن بندقيتي . فوثبنا الى الارض ، وهرعنا نحو بيلا . كانت المسكينة بلا حراك ، وكان الدم ينزف من جرحها غزيرا .. كان في وسع هذا الوغد أن يطعنها في قلبها ، فينتهي كل شيء فورا .. ولكنه طعنها في ظهرها ! انها لطعنة لص من قطاع الطرق حقا !

كانت قد غابت عن وعيها ، فمزقنا حجابها ، وعصبنا جرحها بقوة . عبثا اغرق بتشورين شفتيها الباردتين بقبلاته ، فما من شيء كان يمكن أن ينعشها .

وعاد بتشورين الى سرجه ، فحملت اليه بيلا ووضعتها بين ذراعيه ، وقفلنا راجعين الى القلعة . وبعد بضع دقائق من صمت ، قال لي بتشورين : « اسمع يا مكسيم مكسيمتش ، اذا نحن سرنا بهذه الخطا البطيئة ، فلن نصل بها حية » ، فأجبته قائلا : « هذا صحيح » ، واخذنا نعدو . كان ينتظرنا عند أبواب القلعة جمهور غفير . فحملنا بيلا في كثير من الاحتراز ، الى بيت بتشورين ، وأرسلنا نستدعي الطبيب . كان الطبيب سكران ، ولكنه جاء ، فأعلن بعد أن فحصها انها لن تعيش أكثر من يوم واحد . كان مخطئا ...

قلت للرئيس وأنا اتناول يده بفرح لم استطع ان اكبحه :

ــ وهل شفيت ؟ ..

فأجابني قائلا :

ــ لا .. ولكن الطبيب كان مخطئا ، لأنها عاشت يومين لا يوما واحدا ..

ــ ولكن كيف استطاع كازبتش أن يختطفها ؟ ..

ــ الامر بسيط : لقد تركت القلعة وذهبت الى النهر ، رغم ان بتشورين منعها من ذلك . وكان الجو حارا . فجلست على صخرة ، واغطست قدميها في الماء . فاقترب منها كازبتش خلسة ، فأمسك بها ، وكمم فمها ، وحملها الى الغابة ، فوثب بها الى حصانه ، ثم

ولى هاربا . واخذت تصرخ ، فأطلق الخفراء صفـــارة الانذار ، وأطلقوا عليه الرصاص ، ولكنهم اخطأوه ، وفى أثناء ذلك وصلنا نحن

ولـكن لماذا أراد كازبتش أن يختطفها ؟

ــ لماذا ؟ ان هؤلاء الشراكسة رجال نهب وسلب ، لايستطيعون أن يمتنعوا عن مد أيديهم الى أى شىء ، ولو كان غير ذى فائدة .. هذى طباعهم ، ولايمكن تقويمها ! ثم ان بيلا تعجبه منذ مدة طويلة.

ــ وماتت بيلا ؟ ..

ــ نعم بعد أن تألمت كثيرا ، وبعد أن آلمتنا كثيرا . ففى نحو الساعة العاشرة من المساء ، عاد اليها وعيها ، وكنا جالسين على حافة سريرها ، فما أن فتحت عينيها حتى نادت بتشورين. فأجابها وهو يمسك بيدها : « أنا هنا ــ جانيتشكا ! » (هذا بلغتهم كقولنا بلغتنا : « ياحبيبتى ») .

ــ سأموت ..

وحاولنا أن نهدىء روعها ، فأكدنا ان الطبيب أقسم أن يعالجها. فهزت راسها ، واستدارت الى جهة الجدار : كانت لا تريد أن تموت ! ..

وفى الليل اخذت تهذى . كان راسها يحترق . وكانت تنتابها احيانا قشعريرة من الحمى ، تهز جسمها هزا قويا . وراحت تقول كلاما مضطربا عن أبيها وأخيهـــا .. تريد أن ترى جبـــالها ، وان تعود الى بيتها .. ثم تكلمت عن بتشورين ، فكانت تناديه بأرق الأسماء أو تعاتبه على انه أصبح لا يحبها كما كان يحبها من قبل..

وكان بتشورين يصغى اليها صامتا ، وقد وضع رأسه بين يديه. ولكن ما من دمعة ترقرقت فى عينيه خـلال ذلك كله . الأنه كان عاجزا عن البكاء ؟ الأنه كان يسيطر على نفسه ؟ لا أدرى . أما أنا فلم أر فى حياتى شيئا أجدر من هذا المشهد بالرثاء .

فلما طلع الصبح كانت لا تهذى . وظلت خلال ما يقرب من ساعة ، ساكنة ، شاحبة ، ضعيفة لا يكاد يرى المرء أنها تتنفس . ثم شعرت انها أحسن حالا ، فأخذت تتكلم . ولـكن هل تدرى ماذا قالت ؟ ان فكرة كهذه لايمكن أن تراود الا شخصا يحتضر.. قالت انها تأسف على انها ليست مسيحية ، ذلك لأن روحها وروح بتشورين لن تلتقيا فى العالم الآخر ، وان امراة أخرى ستكون خليلته فى الجنة . فبدا لى أن أنصرها قبل أن تموت ، فاقترحت عليها

ذلك ، فنظرت الي مدة طويلة ، مترددة لا تستطيع أن تقول كلمة.. ثم اجابت بقولها : « بل أموت على دينى الذى ولدت عليه». وانقضى على هذا النحو نهار بكامله . ما أشد ما تغيرت فى هذه الساعات القليلة ! لقد تجوف خداها الشاحبان ، واتسعت عيناها ، وجفت شفتاها .. كان ثمة ما يحرق جوفها ، كأن فى صدرها نارا حامية.

ثم جاء الليل . لم يغمض لنا جفن ، ولم نتركها لحظة واحدة . كانت تتألم ألما هائلا ، وتئن ، وكانت متى هدأ ألمها قليلا ، تحاول ان تقنع بتشورين بأنها أحسن حالا ، وتتوسل اليه أن يمضى الى فراشه وينام . وكانت تلثم يده وتظل ممسكة بها . وفى الصباح استبد بها الخوف من الموت ، فأخذت تضطرب ، وانتزعت ضمادها فعاد الدم ينزف من جرحها ، فأعدنا تضميد الجرح . فهدأت قليلا، وطلبت الى بتشورين أن يقبلها . فركع بتشورين الى جانب السرير، وانهض رأس المحتضرة ، والصق فمه بشفتيها اللتين أخذ البرد يدب فيهما ، فأحاطت عنقه بذراعيها المرتجفتين ، كأنها تريد فى هذه القبلة أن تسلمه روحها .. لقد أحسنت بموتها صنعا ! وإلا كيف كانت تصبح لو هجرها بتشورين ، وهذا ما كان لابد أن يقع فى يوم من الايام ! ..

وفى صباح الغد ظلت هادئة ، صامتة ، طيعة ، رغم جميع لزقات طبيبنا ، وجميع جرعاته . قلت للطبيب : « ألم تقل انها لن تعيش ؟ فما فائدة جميع هذه الادوية اذن ؟ » فأجابنى بقوله : « لراحة الضمير يا مكسيم مكسيمتش » ، نعم الضمير !

وبعد الظهر أخذت تتألم من العطش . ففتحنا النافذة ، ولكن الجو كان فى خارج الغرفة أشد حرارة . فوضعنا الى جانب سريرها ثلجا ، فلم يجدها ذلك شيئا . كنت أعلم ان هذا الظمأ الشديد دليل على أن النهاية قد شارفت ، ونبهت بتشورين الى ذلك .

ـ اعطونى ماء .. اعطونى ماء ..

هذا ما كانت تقوله بصوت أجش وهى تنهض قليلا .

فتناول بتشورين من على المنضدة كأسا ملأه بالماء ، وناولها اياه . فغطيت عينى بيدى ، وأخذت أتلو دعاء لا أذكر الآن ما هو .. نعم ، أيها السيد الطبيب ، لقد رأيت قبل ذلك أناسا يموتون فى مستشفيات عسكرية أو فى ساحة القتال. ولكن شتان. ويجب أن أعترف لك ان مما زاد الى انها قبل موتها لم تذكر اسمى مرة واحدة .. وكنت مع ذلك أحبها حب الأب لابنته !.. ولكن

سامحها الله .. فما كان لها ان تذكرنى ساعة الموت ! ..
وشعرت براحة بعد أن شربت الماء . وما هى الا دقائق ثلاث حتى كانت تلفظ أنفاسها الاخيرة .. وقربت من شفتيها مرآة فظلت المرآة صافية .. فاخرجت بتشورين وذهبت به الى السور .. وظللنا نمشى مدة طويلة جنبا الى جنب دون أن ينبس أحدنا بكلمة . كان وجهه لا يعبر عن شىء خاص . وشعرت من ذلك بشىء من الاسف فلو كنت مكانه اذن لمت حسرة ! وجلس أخيرا على الارض فى الظلام واخذ يخط شيئا على الرمل بقطعة من الخشب . واردت أنا ـ على سبيل اللياقة فى حقيقة الامر ـ أن أواسيه ، فاذا هو يرفع راسه وينفجر ضاحكا .. شعرت بقشعريرة فى ظهرى ، ومضيت أوصى بالتابوت .

أعترف لك باننى ما توليت الاهتمام بهذا الامر ، الا لأسلو وكان عندى حرير ، فغطيت به التابوت ، ثم زينته بشرائط كان بتشورين اشتراها لها .
وفى الصبح من الغد دفناها عند ضفة الساقية وراء القلعة ، غير بعيد من المكان الذى جلست اليه آخر مرة . كانت أشجار الاكاسيا والبيلسان تحيط بالقبر . وددت لو أغرس على قبرها صليبا ، ولكننى لم أجرؤ أن أفعل لأنها ليست مسيحية على كل حال ..
ـ وبتشورين ؟
ـ بتشورين ظل مريضا مدة طويلة ، وهزل كثيرا ، هذا الفتى المسكين . ولـكننا لم نتحدث بعد ذلك عن بيلا . كنت أعلم ان ذلك يحز فى نفسه ، فعلام اتحدث اذن عنها ؟ وبعد ثلاثة أشهر نقل الى فوج ى .. فسافر الى جورجيا ، ولم أره بعد ذلك .. وقيل لى أخيرا انه عاد الى روسيا ، ولكن لم يذكر فى البلاغات. ثم ان الأخبار تصلنا متأخرة جدا .
وهنا اندفع فى كلام طويل لاينتهى عن انزعاجه من ان الانباء لا تصل الا بعد سنة كاملة . لعله كان يريد أن يخنق ذكرياته الحزينة.
فتركته يتكلم دون أن أصغى اليه .

واستطعنا بعد ساعة أن نستأنف سيرنا ، فقد هدأت الزوبعة ، وصفا أديم السماء . وفى الطريق أدرت الحديث مرة اخرى على بيلا وبتشورين .
قلت : ولا تعرف ماذا حل بكازبتش ؟

فقال : لا أعرف ماذا حل به . ولكنني سمعت أخيرا من يقول ان هناك على طرفنا الايمن ، لدى شابسوغ * ، رجلا مشهورا اسمه كازبتش يرتدى جلبابا احمر ويذهب ويجيء تحت وابل رصاصنا دون أن يستحث خطاه ، حتى اذا مرت رصاصة على مقربة منه ، حياها فى أدب . ولكنني لا اظن انه هو نفسه .

وافترقنا فى كوبى . فلقد ركبت عربة البريد ، ولم يستطع هو أن يتبعني لكثرة احماله . وما كنا نظن اننا سنلتقى بعد ذلك . ولكننا التقينا . فان شئتم قصصت عليكم ذلك . انها لحكاية طويلة ولكن اعترفوا ان لمكسيم مكسيمتش حقا فى تقديركم واحترامكم ، فعندئذ اكافأ كل المكافأة على قصتى التى قد تكون طويلة بعض الطول

* احدى القبائل الجبلية .

مكسيم مكسيمتش

بعد أن استأذنت مكسيم مكسيمتش فى السفر ، اجتزت مضيقى تيريك وداريال عدوا ، افطرت فى كازبك ، ثم تناولت الشاى فى لارس ووصلت الى فلاديفقاس فى وقت العشاء . سأعفيكم من وصف الجبال ، ومن عبارات الدهشة ، ومن رسم اللوحات ، فهى جميعا لا تمثل شيئا (ولاسيما لمن لم يكن يوما فى تلك المناطق) وسأعفيكم من الملاحظات التى لن يقرأها أحد .

لقد نزلت الفندق الذى ينزله جميع المسافرين ، والذى ليس فيه أحد تأمره بدراج أو بحساء . فان العجزة الثلاثة الذين عهد اليهم بالبيت كانوا أكثر غباء أو أكثر سكرا من أن نستطيع الحصول منهم على شيء .

وقال لى هؤلاء ان على أن امكث هنالك ثلاثة أيام ، لأن «الفرصة» لم تصل بعد من يكاتيرينوجراد فلا يمكن أن تعود اليها . يا لها من فرصة !.. والروسى لا تسليه نكتة باردة . لذلك عمدت ، على سبيل التسلية أن أبسط على الورق قصة بيلا التى رواها لى مكسيم مكسيمتش ، دون أن يدور بخلدى انها ستكون بداية سلسلة طويلة من القصص : فانظروا كيف يمكن أن يكون لظرف طارىء تافه من سوء العواقب ..

ولكن لعلكم تجهلون ما هى « الفرصة ؟ » انها عدد من الخفراء هو نصف سرية من المشاة وقطعة من المدفعية تصاحب النقليات عبر كاباردا ، من فلاديقفقاس الى يكاتيرينوجراد .

وضجرت فى اليوم الاول كثيرا . حتى اذا جاء الصباح من الغد ، رأيت عربة تدخل ساحة النزل .. ها انه مكسيم مكسيمتش !.. وتلاقينا كما يتلاقى صديقان قديمان . واقترحت عليه أن يشاركنى غرفتى ، فقبل بلا كلفة حتى ربت على كتفى وتجعد وجهه بابتسامة . ما أكثر ما كان مضحكا ! ..

وكان لمكسيم مكسيمتش معرفة عميقة بفن الطهو : فشوى دراجا ، وبدا له أن يرشها بماء الخيار المملح ، فكانت فكرة موفقة يجب أن أعترف اننى لولاه ما أكلت شيئا ساخنا . وساعدتنا

زجاجة من خمر كاخيتيا على ان ننسى أن ليس تمة الا طبق واحد .
ثم اشعل كل منا غليونه وجلسنا ، أنا بالقرب من النافذة ، وهو بالقرب من الموقد الذى اشعلناه لأن النهار كان باردا ورطبا .
وصمتنا . وما عسى أن نقول ؟ لقد قص على كل ما قد وقع له من حوادث شائقة ولم يكن لدى أنا ما اقصه عليه . ونظرت من النافذة هذه الى بيوت صغيرة واطئة كثيرة تتناثر وراء الأشجار على طول تيريك الذى أخذ يزداد فى هذا المكان عرضا ، وهذا خط الجبال المسنن يبدو من بعيد أزرق اللون ، ووراءه يظهر كازبك بقبعته البيضاء كقبعة الكاردينال . وأخذت أودع هذه الامكنة بينى وبين نفسى ، وكنت أشعر منذئذ بالاسف لفراقها ..

وظللنا على هذا الحال مدة طويلة كانت الشمس تختبىء وراء الذرى المتجلدة ، وكان ضباب بلون اللبن ينتشر فوق الوديان ، حين سمعنا جرس مركبة يرن فى الشارع ، وسمعنا صرخات السائقين
ودخلت ساحة النزل عدة مركبات تصحبها جماعة من الارمن قذرة ، وتتبعها عربة ذات مظلة خفيفة ، رشيقة ، أنيقة ، يبدو أنها صنعت فى الخارج وكان يمشى وراءها رجل ذو شاربين طويلين ، يرتدى سترة من الطراز المجرى ، وتبدو عليه امائر الخادم الراقى .
يستحيل أن يخطىء المرء فى رتبته متى رأى طلاقته فى هز رماد غليونه وصراخه وراء السائق : لاشك انه خادم مدلل لسيد كسول ولاشك انه نوع من فيغارو روسى .
فهتفت به من النافذة :
ــ ايه أيها الصديق ، أهذه هى « الفرصة » تصل ؟
فنظر الى فى شىء من العجرفة ، واصلح ربطة عنقه ، وأشاح بوجهه عنى . وكان يسير الى جانبه رجل من الارمن ، فأجابنى وهو يبتسم بأنها هى « الفرصة » حقا ، وانها ستسافر فى صباح الغد .
قال مكسيم مكسيمتش ، وهو يقترب من النافذة : هذا حسن .
ثم أضاف :

ــ ما أجمل هذه العربة ؟ لاشك ان صاحبها موظف كبير ذاهب الى تفليس للتفتيش . وواضح انه لايعرف جبالنا . أؤكد لك ، غير مازح ، ان هذه العربة لن تمضى بعيدا ، حتى ولو كانت صنعت فى انجلترا ... دعنا نعرف من هو ...
وخرجنا من الدهليز . كان فى آخر الدهليز باب ينفتح على غرفة جانبية رأينا الخادم والسائق يحملان اليها الحقائب .

صاح الرئيس : قل لى ايها الصديق : لمن هذه العربة الجميلة ؟ هه ، انها لرائعة حقا !

فدمدم الخادم ببضع كلمات لم نفهمها ، دون أن يلتفت الينا ، وهو يحل احدى الحقائب . فغضب مكسيم مكسيمتش ، فأمسك بالرجل غير المؤدب من كتفه وقال :

ـ اسمع يا صاحب ، اليك أوجه الكلام ..

ـ هذه العربة ؟ انها لسيدى ...

ـ من هو سيدك ؟

ـ بتشورين ...

ـ بتشورين ؟ هل قلت بتشورين ؟ آه يا الهى ؟ هل خدم سيدك فى القفقاس ؟

هتف مكسيم مكسيمتش بذلك ، وهو يشدنى من كمى ، واشرقت عيناه ببريق من الفرح .

فأجابه الخادم بقوله :

ـ اظن انه كان فى القفقاس ... لست فى خدمته الا منذ مدة قصيرة .

ـ حسن . واسمه جريجورى الكسندروفتش ، اليس كذلك ؟ ان سيدك صديقى !

قال ذلك ثم هوى على كتف الخادم بضربة ودية جعلته يترنح . فقطب الخادم ما بين حاجبيه ، وقال :

ـ من فضلك ياسيد انك تزعجنى .

ـ هون عليك ايها الصاحب ! هل تعلم اننا كنا صديقين حميمين ، انا وسيدك ، بصيغة المفرد ؟ واننا كنا فى الخدمة معا ؟ ولكن هو ، اين هو ؟

فأجاب الخادم بأن بتشورين نزل فى بيت الكولونيل ن .. للعشاء وقضاء الليلة .

ـ الا يأتى الى هنا هذا المساء ؟ الا تذهب أنت الى هناك لأمر من الأمور؟ قل له ، اذا ذهبت ، ان مكسيم مكسيمتش هنا ، نعم ، قل له ذلك فحسب .. وسيعرف هو كل شىء وسيكون اجرك على عنائك ثمانين كوبيكا .

فمط الخادم شفته شزرا يحتقر هذا الوعد الطفيف ، ولكنه رغم ذلك اكد لمكسيم مكسيمتش أنه سيبلغ سيده الرسالة .

قال لى مكسيم مكسيمتش وقد اشرق وجهه :

ـ سيأتي مهرولا ، سترى . أنا ذاهب الى الشارع انتظر . خسارة انني لا أعرف ن ..!

ومضى فجلس على مقعد فى خارج البيت . وعدت أنا الى غرفتى لابد أن اعترف بأنني كنت ، أنا أيضا ، انتظر مجيء بتشورين بفارغ صبر فلئن كانت الصورة التى ارتسمت فى ذهنى عن شخصيته من حديث الرئيس ليست بالصورة المشرفة كثيرا ، فلقد كنت أرى فى بعض ملامح طبعه امارات بارزة تلفت النظر . وبعد ساعة من الزمان جاء أحد العجزة يحمل السماور يغلى وابريق الشاى .

فصحت بمكسيم مكسيمتش من النافذة أقول :

ـ مكسيم مكسيمتش ، هل تريد شايا ؟

ـ لا ، شكرا ، ليس بى ظما ...

ـ قدح واحد على الأقل ، لقد تأخر الوقت . والجو بارد .

ـ لا ، لا ، شكرا ..

ـ لك ما تريد !

وتناولت الشاى وحدى . وبعد عشر دقائق عاد الرئيس العجوز وهو يقول :

ـ انك على حق ، فمن الافضل أن احتسى قدحا من الشاى الساخن . ولكنني خفت أن افوته .. لقد ذهب الخادم منذ مدة طويلة .. لاشك انه حبس عن المجيء .

وابتلع مكسيم مكسيمتش قدحا من الشاى بسرعة عظيمة ، ورفض أن يتناول قدحا آخر ، وعاد الى مقعده ، وقد بدت عليه علائم العصبية قليلا . كان واضحا ان عدم اهتمام بتشورين بالرئيس العجوز يحزنه أشد الحزن .. لاسيما انه كان يحدثني عن صداقتهما منذ قليل ، وانه كان قبل ساعة واحدة ، على يقين من أن بتشورين سيهرع اليه متى سمع اسمه .

انقضى وقت طويل ، وجاء الليل ، ففتحت النافذة مرة أخرى ، وناديت مكسيم مكسيمتش قائلا ان ساعة النوم قد حانت. فدمدم ببعض الكلام ، فكررت قولى أدعوه الى النوم ، فلم يجب بشيء .

تمددت على الاريكة ، وغطيت جسمى بمعطفى ، وتركت الشمعة مشتعلة . وسرعان ما غفوت كان يمكن أن أنام نوما هادئا لولا أن مكسيم مكسيمتش أيقظني حين عاد فى ساعة متأخرة من الليل . لقد رمى غليونه على المنضدة ، واخذ يذرع الغرفة ذهابا وايابا ، ثم حرك النار فى الموقد واستلقى أخيرا لينام . غير اننى ظللت اسمعه خلال مدة طويلة ، يسعل ، ويبصق ، ويتقلب .

قلت له : هل يمنعك البق من النوم ؟
فقال وهو يطلق زفرة حرى : ها ! نعم ، هو البق .
واستيقظت فى صباح الغد مبكرا ، ولكن مكسيم مكسيمتش كان قد سبقنى ، ووجدته فى خارج البيت جالسا على مقعده .. قال :
ــ يجب أن أذهب الى المقدم (الكومندان) . فأرجوك اذا جاء بتشورين أن ترسل الى من يستدعينى .
فوعدته بذلك . فمضى يركض ركضا ، كأن أعضاءه قد استردت فجأة قوة الصبا ومرونة الشباب .

كان الصباح منعشا جميلا بين الاصباح . السحب المذهبة تبدو فوق الجبال كأنها سلسلة أخرى من الذرى الساحرة . وعلى الجهة الأخرى من الساحة الواسعة التى تمتد أمام البيت ، يمج السوق بالناس ، لأن اليوم أحد . وأخذ يدور حولى صبية اوسيتيون حفاة يحملون على ظهورهم سلالا ممتلئة بأقراص العسل ، فطردتهم شر طردة . كان فى رأسى شىء آخر . لقد بدأت أقاسم رفيقى الرئيس الطيب قلقه .

وما انقضى على ذلك عشر دقائق حتى ظهر فى الطرف الآخر من الساحة الشخص الذى كنا ننتظره . كان معه الكولونيل ن ... صحبه حتى النزل ، ثم استأذنه ، وعاد الى القلعة . فأرسلت أحد العجزة فورا ، ينبىء مكسيم مكسيمتش بذلك .
وخرج الخادم الى لقاء بتشورين ، وأبلغه انهم سيكدنون الخيل ، ثم مد اليه علبة السيجار ، وتلقى أوامره ، ومضى . فأشعل السيد سيجارا ، ثم تثاءب مرتين ، وجلس على المقعد أمام البيت . ينبغى لى الآن أن أصوره لكم :
انه متوسط الطول ، ويدل قده الدقيق وكتفاه العريضتان على بنية قوية تستطيع أن تتحمل جميع متاعب الحياة المترحلة ، وجميع تبدلات الجو ، لم ينتصر عليها الافراط فى حياة المجون بالعاصمة ، ولا العواصف النفسية الداخلية . وكان يرتدى ردنجوتا من المخمل علاه شىء من الغبار ، ولم يربط من أزراره الا الزرين الأخيرين ، فكان يكشف عن قميص ناصع البياض ، يدل على أن الرجل من وجوه القوم .. وكان قفازيه قد صنعا خصيصا ليديه الصغيرتين الارستقراطيتين ، فلما خلع أحدهما عجبت من نحول أصابعه الشاحبة . وكان يمشى بغير مبالاة . ولكننى لاحظت انه لا يهز يديه وهذه امارة من أمائر الطبع الكتوم ، ذلك رأى أقيمه على

ملاحظاتي الشخصية ، ولست اطمع في ان تقبلوه قبولا أعمى .
وحين جلس رأيت قامته المنتصبة المستقيمة تنثني كأن ليس له عمود فقري . وكان وضع جسمه كله يكشف عن شيء من الضعف العصبي ، ويذكر بتلك المرأة الفندورة ذات الثلاثين عاما التي وصفها لنا بلزاك جالسة على مقعدها المزين بالمخدات ، بعد حفلة راقصة منهكة . اذا ألقيت عليه نظرة أولى لم تقدر انه تجاوز الثالثة والعشرين من عمره . ولكنك بعد أن تمعن فيه النظر تقدر عمره بثلاثين عاما . وكان في ابتسامته شيء من معاني الطفولة وكان جلده ناعما رقيقا كأنه جلد امرأة . وكان شعره الاشقر المتجعد يحيط احاطة جميلة بجبينه الشاحب الذي يفيض نبلا والذي لاترى فيه الا العين المنتبهة آثار غضون متصالبة لا شك انها تغدو اظهر وأوضح في ساعات الغضب والاضطراب وكان شارباه وحاجباه سودا ، رغم ان شعره أشقر ، وهذا يدل على نبل المحتد ، كما يدل سواد اللبدة والذنب في الحصان الاصهب على انه كريم العرق.
ويجب أن اذكر ، اتماما للصورة ، ان انفه مقع قليلا . وان اسنانه ناصعة . وان عينيه كستناويتان . ولكنني احب أن اقول بصدد عينيه بضع كلمات .

ـ أولا كانت عيناه لا تضحكان ، حتى حين يضحك . هل أتيح لكم أن تروا هذا الامر العجيب ؟ . ان هذا يدل اما على طبع رديء ، واما على حزن عميق دائم . كانت عيناه تلتمعان من خلال اهدابه المغضية قليلا ، ببريق متوهج كتوهج الفوسفور ، ان صح التعبير . وليس هذا البريق انعكاسا لروح حارة أو خيال ملتهب ، وانما هو بريق الفولاذ المصقول ، يبهر ولكنه بارد . وكانت نظراته متحركة ، ولكنها نافذة ثقيلة ، تخلف فيك شعورا مزعجا بأنها نظرات تساؤل خفي ، وكان يمكن أن تحس فيها الوقاحة ، لولا انها هادئة لاتبالي . هذه ملاحظاتي ، ولعلها ما كانت لتدور في خلدي لولا انني كنت أعرف عن حياته بعض التفاصيل ، ورب شخص آخر يشعر شعورا مختلفا عن شعوري كل الاختلاف . ولكن احدا لم يحدثكم عنه غيري ، فلا بد لكم من الاكتفاء بهذا الوصف الذي سقته . وينبغي أن أقول لكم في الختام ، ان له شخصية جميلة ، وان وجهه لهو من الوجوه الفريدة التي تعجب نساء المجتمع الراقي بوجه خاص .

وقرنت الخيول ، واخذ الجرس يرن في رقابها ، واقترب الخادم من بتشورين مرتين ليقول له ان كل شيء مهيأ ولم يصل مكسيم

مكسيمتش بعد . ومن حسن الحظ أن بتشورين الذى تعلقت نظراته بأسنان القفقاسى الزرقاء كان مستغرقا فى تفكيره ولا يلوح عليه انه يتعجل المسير . فاقتربت منه وقلت له :
ـ اذا تفضلت بالانتظار قليلا ، فلسوف يسرك أن ترى صديقا قديما .
فقال بسرعة :
ـ ها ، نعم لقد قالوا لى ذلك أمس . ولكن أين هو ؟ فالتفت نحو الساحة ، فاذا انا ارى مكسيم مكسيمتش يركض بأقصى سرعة يستطيعها ... وما هى الا دقائق قليلة حتى كان الى جانبنا . كان يلهث ، وكان العرق يتصبب منه قطرات كبيرة ، وكانت خصلات من شعره الرمادى قد أفلتت من تحت قبعته والتصقت بجبينه ، وكانت ركبتاه تصطكان ... أراد أن يرتمى على عنق بتشورين ، ولكن بتشورين مد اليه يده فى غير قليل من البرود ، وان لم يكن قد ابتسم له أيضا ابتسامة لطيفة . فتجمد الرئيس لحظة ، ثم شد على اليد الممدودة بكلتا يديه : لم يكن قادرا بعد على الكلام .

قال بتشورين : ما أشد سرورى برؤيتكم يامكسيم مكسيمتش ! ولكن كيف صحتكم ؟
فدمدم العجوز يقول وقد اغرورقت عيناه بالدموع :
ـ وانت ؟.. وانتم ؟.. كم من السنين .. كم من الايام مضت ولم ير احدنا الآخر !.. ولـكن الى أين انتم ذاهبون ؟ ..
ـ أنا ذاهب الى فارس .. والى ابعد من ذلك أيضا .
ـ ولكن لا تذهبوا فورا ؟ انتظروا قليلا ياعزيزى ! ليس يعقل أن نفترق بمثل هذه السرعة بعد سنين كثيرة ..

فكان كل جواب بتشورين أن قال :
ـ آن أوان ذهابى ، يا مكسيم مكسيمتش .
ـ يا الهى ، يا الهى ! أين تسرعون هكذا ؟ ان فى نفسى أمورا كثيرة يجب أن اقولها لكم ، وأسئلة كثيرة يجب أن أطرحها عليكم ! اذن ، لقد قدمتم استقالتكم ؟ وماذا كنتم تفعلون خلال ذلك الوقت كله ؟.. فأجاب بتشورين مبتسما : كنت أضجر .
ـ وهل تتذكرون حياتنا فى القلعة ؟ ما كان أجمل تلك البلاد للصيد ، هه ؟ لأنكم كنتم تحبون الصيد ، انتم ! ويبلا ؟
فاصفر بتشورين قليلا ، وأدار وجهه ، ثم قال :
ـ نعم اتذكرها .

ثم لم يلبث أن تثاءب تثاؤبا حمل عليه نفسه حملا . اراد مكسيم مكسيمتش ان يقنعه بالبقاء معه ولو ساعتين . قال : سنتناول غداء ممتازا .. عندى دراجان وخمر طيب من كاخيتيا .. طبعا ، هو لا يعدل خمر جورجيا.. ولكن هذا لا يمنع انه مشهور.. وستحدث وستقصون على أخبار حياتكم فى بطرسبرج أليس كذلك ؟

ــ أؤكد لكم ياعزيزى مكسيم مكسيمتش انه ليس لدى ما اقصه عليكم . وداعا .. آن لى أن اسافر .. اننى مستعجل .. ثم اضاف الى ذلك ، وهو يتناول يده :

ــ شكرا على انكم ما نسيتمونى .

فقطب العجوز حاجبيه .. كان حزينا غاضبا فى آن واحد ، وان حاول الا يظهر من ذلك شيئا . ودمدم متذمرا يقول :

ــ انسى ؟ ! أنا لم أنس شيئا ، أنا ... اذن لن أحبسكم عن الذهاب ... ما هكذا كنت اتصور ان القاكم ...

فقال بتشورين وهو يعانقه فى مودة وصداقة :

ــ هيا ، هيا .. أنا لم ازل على ما كنت عليه.. ماذا تريدون ؟ ان على كل امرىء أن يسير فى طريقه .. الله يعلم هل نلتقى بعد اليوم قط ! ..

قال ذلك وهو يصعد عربته ، وكان السائق قد جمع الأعنة وهم بالمسير . فصرخ مكسيم مكسيمتش فجأة وهو يمسك بقبضة باب العربة ، يقول : انتظر .. انتظر .. لقد نسيت .. اوراقك التى بقيت عندى .. ما زلت احتفظ بها .. كنت اظن اننى سألقاك فى جورجيا .. أما واننا التقينا هنا .. فماذا اصنع بها ؟

ــ اصنع بها ما تشاء ... وداعا ! ..

فصاح مكسيم مكسيمتش مرة أخرى :

ــ انت ذاهب اذن الى فارس ؟.. ومتى تعود ؟ ..

ولكن العربة كانت قد ابتعدت ، فلوح بتشورين بيده كأنه يقول :

ــ قد لا نلتقى قط ، وعلام نلتقى ؟ ..

وانقضى وقت طويل.. وأصبحنا لا نسمع رنين الجرس ولا قرقعة العجلات على أرض الطريق الحجرى ، ولكن العجوز المسكين ظل واقفا فى مكانه ، غارقا فى تفكيره . وقال اخيرا :

ــ نعم .. كان يحاول أن يظهر بمظهر من لايبالى ، ولكنى رأيت دموع الحسرة تلمع فى أهدابه . لاشك أننا كنا صديقين .. ولكن هل بقى فى ايامنا هذه اصدقاء ؟.. ما انا عنده ؟ اننى لا أملك ثروة

طائلة ، ولا رتبة عالية . ثم اننا متفاوتان كثيرا فى السن !.. ها قد رابته ، لقد أصبح على المودة منذ زيارته مرة أخرى لبطرسبرج .. يا لها من عربة ! يا له من متاع ! وهذا الخادم المتعجرف !..

قال ذلك وهو يبتسم ابتسامة ساخرة . ثم التفت الى يسألنى :

ـ ولكن قل لى انت . ما رأيك فى كل ذلك ؟.. ما ذهابه الى فارس ؟ اما أنا فهذا يضحكنى !.. كنت أعرف انه رجل طائش لايمكن الاعتماد عليه .. ولكن يؤسفنى مع ذلك أن ينتهى الى أسوأ العواقب .. لابد مما ليس منه بد .. لطالما قلت له : ماذا تنتظر من أولئك الذين ينسون أصدقاءهم ؟ ..

ابتعد مكسيم مكسيمتش ، ليخفى‌عنى انفعاله ، ومضى الى الباحة يدور حول عربته ، ويتظاهر بانه يفحص عجلاتها ، ولكن عينيه كانتا تمتلئان بالدموع فى كل لحظة .

قلت له وأنا أقترب منه :

ـ مكسيم مكسيمتش ، ما هى تلك الاوراق التى تركها لك بتشورين ؟ ..

ـ والله لا أعرف شيئا .. لعلها مذكرات ..

ـ وما عسى أن تصنع بها ؟ ..

ـ ما أصنع بها ؟ أتخذها فشكا !

ـ بل اعطنى اياها .

فنظر الى دهشا ، ثم دمدم بين أسنانه ببعض الكلام ، واخذ يبحث فى طوايا حقيبته ، ثم أخرج منها دفترا ورماه على الارض فى ازدراء ، ثم أخرج دفترا ثانيا فثالثا فعاشرا صنع بها كلها مثلما صنع بالاول . كان فى غضبه شىء من غضب الاطفال .. فكنت أشعر بالحاجة الى الضحك وأشفق عليه ، فى آن واحد .

قال : هى لك . أهنئك على هذه اللقطة ...

ـ وهل أستطيع أن أصنع بها ما أشاء ؟ ..

ـ اطبعها فى الجرائد اذا أحببت .. أما أنا فأسخر من ذلك كله. لست صديقه ولا قريبه .. صحيح اننا عشنا مدة طويلة تحت سقف واحد .. ولكنه ، على كل حال ، ليس الوحيد بين الناس ...

فتناولت الاوراق ، وذهبت بها بسرعة ، خشية أن يعدل الرئيس عن رأيه . وجاء بعد قليل من يقول لنا ان « الفرصة » تسافر بعد ساعة فأمرت بكدن الخيل . ودخل على الرئيس وأنا أضع قبعتى على رأسى تهيؤا للرحيل فلم يبد لى انه يتهيأ للسفر . كان وجهه

عابسا باردا .
ــ وأنت يا مكسيم مكسيمتش ، ألا تسافر ؟
ــ لا .. لماذا ؟ ..
ــ لم ار المقدم بعد وهناك أشياء يجب أن انقلها اليه ...
ــ ولكنك ذهبت اليه ؟ .. فقال مرتبكا :
ــ نعم ذهبت اليه ، ولكنني لم اجده فلم انتظره . فهمت كل شيء : لعلها أول مرة فى حياة العجوز يؤثر فيها « أمرا شخصيا » ، كما يقال بلغة القراطيس ، على أمور الخدمة .. وانظر كيف كوفىء على ذلك ! قلت له :
ــ انه ليؤسفنى كثيرا يا مكسيم مكسيمتش ان نفترق بمثل هذه السرعة .
ــ نحن لسنا الا شيوخا جهالا .. أما أنتم فشباب من الطبقة الراقية . انتم اناس متكبرون . ترضون أن تعاشرونا تحت رصاص الشراكسة ، ولكنكم بعد ذلك تستحون أن تمدوا أيديكم الينا .
ــ لا استحق هذا التقريع يا مكسيم مكسيمتش ؟
ــ آ .. ما قلت هــذا من أجلك ثم اننى اتمنى لك كل أنواع السعادة ، وسفرا ميمونا !
كان فراقنا جافا بعض الجفاف . لقــد غدا مكسيم مكسيمتش رئيسا عجوزا متذمرا لا أكثر . لماذا ؟ لأن بتشورين مد اليه يده ، عن غفلة أو لأى سبب آخر ، فى حين أن مكسيم مكسيمتش كان يريد أن يثب الى عنقه . انه ليحزن المرء أن يرى شــابا فى ريعان صباه يفقد أجمل آماله وأحلامه حين ترفع عن بصره الغشاوة الوردية التى كان ينظر من خلالها الى أفعال النــاس وعواطفهم . ولــكن الشاب يمكن أن يستبدل بأوهامه القديمة أوهاما جديدة ، تنقضى كالاولى ، ولكنها عذبة كالاولى . أما فى سن مكسيم مكسيمتش فماذا يستبدل الانسان بأوهامه القديمة ؟.. لابد أن يقسو القلب ، وأن تنغلق النفس ..
وسافرت وحدى .


يوميات بتشورين

مقدمة

علمت منذ مدة قصيرة ان بتشورين مات بعد عودته من فارس. ولقد سرني هذا النبأ كثيرا ، فهو يهب لى حق نشر هذه المذكرات. لقد استفدت منها فمهرت باسمي أثرا ليس لى أرجو الا يؤاخذنى القارىء على هذه السرقة البريئة .

ويجب الآن أن اشرح قليلا الاسباب التى حفزتنى الى أن انشر على الناس اسرارا شخصية لرجل لم أعرفه أبدا . لو كنت صديق ذلك الرجل ، لفهم كل انسان ما يتصف به الصديق الحقيقى من افشاء للأسرار خبيث . ولكننى لم أر الرجل الا مرة واحدة فى حياتى ، حتى لقد رأيته على قارعة الطريق . فأنا اذن لايمكن أن اكن له ذلك السكره الذى لايفسر ، ذلك السكره الذى يتقنع بقناع الصداقة ، ولا ينتظر الا أن يموت الشخص المحبوب أو أن يفجع حتى يصب على راسه ألوان التقريع والنصح ،والسخر والأسف .

حين اعدت قراءة هذه المذكرات ، اقتنعت بصدق هذا الرجل الذى كشف عن ضعفه وعن نقائصه بلا رحمة . ورب قصة نفس من النفوس مهما تكن صغيرة تكون أشيق وأنفع من قصة شعب بأسره ، ولاسيما حين تكون ثمرة ملاحظات أجراها على نفسه فكر ناضج ، ثم كتبها لا تدفعه الى كتابتها رغبة عابثة فى اثارة الدهشة والشوق فى نفوس القراء . ان مما يعيب « اعترافات» روسو انه كان يقرؤها لأصدقائه .

فالرغبة فى نفع الناس هى وحدها التى دفعتنى اذن الى نشر هذه الاجزاء من يوميات ألقت بها الصدفة بين يدى . ولقد غيرت جميع الاسماء ، غير أن الاشخاص الذين يدور الكلام عليهم سيعرفون انفسهم من غير شك ، وقد يجدون فى هذه المذكرات تبريرا لأفعال كانوا الى هذا اليوم يأخذونها على شخص فارق هذا العالم . اننا نغفر ما نفهمه ، نغفره دائما تقريبا .

لم أضمن هـــذا الـكتاب الا ما له صـــلة باقامة بتشورين فى القفقاس . وقد بقى عندى دفتر كبير يروى قصـــة حياته كلها . وسأنشر هذا الدفتر أيضا ذات يوم ، ليرى النـــاس فيه رأيهم .

ولكنني لا اجرؤ أن اتحمل هذه التبعة بعد ، وذلك لاسباب كثيرة هامة .

ولعل بعض القراء يريدون ان يعرفوا رايي فى خلق بتشورين . ان عنوان الكتاب يتضمن الجواب . ورب قائل يقول :

« ولكن فى هذا سخرية قاسية » . من يدرى ؟

تامان

لاشك ان تامان هى أسوأ مدينة صغيرة بين جميع المدن البحرية فى روسيا . لقد كدت أموت فيها جوعا ، وأكثر من ذلك انهم أرادوا اغراقى فى تلك المدينة . وصلت مع البريد فى ساعة متأخرة من الليل وأوقف السائق أحصنتـــه المكدودة الثلاثة أمام البيت الحجرى الوحيد الذى كان يقوم عند مدخل المدينة . كان الخفير ، وهو قوزاقى من البحر الأسود ، نائما نصف نوم ، فلما ســـمع رنين جرسنا ، استيقظ وصاح بصوت أجش : « من هذا ؟ » ، وهرع نحونا وكيل ضابط وديسياتنيك * فشرحت لهما اننى ضابط ، واننى أسافر الى الجيش العامل . وطلبت منهما أن يجدا لى مكانا أبيت فيه . فقادنى الديسياتنيك ، وطاف بى المدينة كلها ، ولكننا لم نستطع أن نجد عزبة واحدة خالية . وكان الجو باردا ، وكنت لم أعرف النوم منذثلاث ليال،كنت مرهقا حقا ، فغضبت وصرخت:

— أيها اللص ، خذنى الى حيث تريد ، خذنى الى الشيطان ان شئت ، على شرط أن تجد مكانا !

فأجابنى وهو يحك نقرته :

— بقى بيت واحد حقير ، لن يعجبك ياصاحب النبالة . انه مكان سيىء .

فأمرته بأن يقودنى اليه ، دون أن أفهم معنى قوله على وجه الدقة . فأخذ يطوف بى مدة طويلة فى أزقة صغيرة قذرة لا أرى فيها على يمينى وعلى شمالى الا جدرانا متهدمة حتى وصلنا الى بيت صغير على شاطىء البحر .

كان القمر بدرا ، يضىء سقف مسكنى الجديد ، وهو سقف من قصب ، ويضىء جدرانه البيضاء . وفى الباحة التى يحيط بها جدار من أحجار ، كان يقوم بيت حقير مائل ، وهو أصغر وأقدم من البيت الأول ، ويقع تقريبا على حافة منحدر وعر ، ومن تحته الأمواج الزرقاء القاتمة ، تتلاطم فتحدث هديرا لاينقطع . كان القمر الهادىء يتأمل البحر الهائج الذى يطيعه . واستطعت أن أرى على ضـــوء

---

* عريف عشرة من القوزاق .

القمر ، بعيداً عن الشاطىء سفينتين تنتصب اجهزتهما السوداء ساكنة على خط الأفق الشاحب ، كأنها نسيج العنكبوت . قلت فى نفسي : « ان فى المرفأ سفنا ، وسأسافر غداً الى غيليندجيك » .

وكان ناصفى * قوزاقيا من جنود الجبهة ، فأمرته بأن يأخذ حقيبتي وأن يصرف العربة . ثم ناديت صاحب البيت : فلم أسمع جوابا . وقرعت الباب فلم أسمع جوابا ايضا . ما معنى هذا ؟ واخيرا خرج الي من الظلام صبي فى نحو الرابعة عشرة من عمره .

قلت له : أين صاحب البيت ؟ ..

فأجاب بروسية ركيكة : ليس له صاحب ..

ــ كيف ؟ ليس له صاحب ؟ ..

ــ نعم ، ليس له ..

ــ وصاحبة البيت ؟ ..

ــ ذهبت الى الطرف الآخر من المدينة .

ــ ومن يفتح لي الباب ؟

قلت ذلك وأنا أضرب الباب بقدمي ، فانفتح الباب من تلقاء نفسه . كانت تفوح من البيت رائحة الرطوبة . فأشعلت عود ثقاب ، وقربته من وجه الصبي ، فاذا أنا أرى عينين بيضاوين . كان الصبي اعمى ، اعمى تماما منذ الولادة . كان واقفا أمامي بلا حراك . فأخذت أتفرس فيه .

يجب أن أعترف انني أتطير من جميع العمى ، والعور ، والصم ، والبكم والمقعدين ، ومن قطعت أيديهم ، ومن تحدبت ظهورهم ، الى آخر ماهنالك. فلقد لاحظت ان ثمة علاقة بين ظاهر الانسان ونفسه ، كأن فقد المرء عضوا من اعضائه يؤدى الى فقدان ملكة من ملكاته .

اخذت اذن أتفرس فى وجه الأعمى . ولكن ما عسى ان يقرأ المرء فى وجه بلا عينين ؟ وكنت قد أطلت النظر اليه ، مشفقا على غير ارادة مني ، حين لاحظت ابتسامة خفيفة لا تكاد تري ، تطوف بشفتيه الدقيقتين ، فأحدثت فى نفسى تأثيرا مزعجا الى أبعد حدود الازعاج : أهو يتظاهر بالعمى ؟ وقلت لنفسى أن المرء يستحيل عليه ان يصطنع غشاوة على عينيه (وما عسى أن يقصد من ذلك ؟) ، ولكن الشك فى ذلك ظل يراودني ! وكثيرا ما تستبد بى ظنون كهذه ... سألته أخيرا : أانت ابن صاحب البيت ؟ ..

* الناصف هو الجندي التابع لضابط .

ـ لا . . .
ـ فمن انت اذن ؟ ..
ـ يتيم فقير ..
ـ هل لصاحبة البيت اولاد ؟ ..
ـ لا ، كانت لها بنت ، ولكنها مضت الى الطرف الثانى من البحر مع تترى .
ـ أى تترى ؟ ..
ـ لا اعرف أنا . هو تترى من القرم ، ربان زورق من كرتش .

ودخلت الكوخ. كان كل أثاث البيت مقعدين ومنضدة ، وصندوقا كبيرا بالقرب من الموقد ولا أيقونة على الجدار : هذا نذير سوء ! وكانت ريح البحر تقتحم الغرفة من النافذة التى كسر لوح من زجاجها . فأخرجت من حقيبتى شمعة أشعلتها ، ثم أخذت أرتب أشيائى ، ووضعت سيفى وبندقيتى فى ركن من أركان الغرفة ، ووضعت مسدساتى على منضدة ، وفرشت أحد المقعدين بمعطفى وفرش القوزاقى بمعطفه المقعد الآخر وبعد عشر دقائق كان يغط فى نوم عميق ويشخر . أما أنا فلم أستطع أن أنام . كنت لا أنفك أتصور فى الظلام ، الصبى ذا العينين البيضاوين .

وانقضى على ذلك ما يقرب من ساعة . كنت أرى القمر من النافذة يتلألأ وكانت أشعته تدخل الى البيت ، وتسقط على أرضه الترابية . وفجأة رأيت على الجانب المضىء من الأرض خيال شخص يمر . فرفعت رأسى ونظرت من النافذة فرأيت شخصا يمر بسرعة ويختفى . كنت لا أستطيع أن أصدق أن الشخص نزل منحدر الشاطىء ولكنه لايستطيع أن يمضى الى مكان آخر . فنهضت واندسست فى جلبابى ، ووضعت خنجرى فى زنارى ، وخرجت أسير بخطا محترسة فرأيت الأعمى مقبلا ، فالتصقت بالجدار ، فمر على مقربة منى بخطا واثقة ولكنها محاذرة . كان يحمل تحت ابطه رزمة . فلما انعطف نحو المرفأ اخذ يهبط ممرا ضيقا وعرا . فتبعته على مسافة منه ، بحيث اظل أراه فلا يغيب عنى ، وقلت لنفسى : « اليوم يتكلم الخرس ويبصر العمى » .

وأخذت السحب تغشى القمر أثناء ذلك ، وكان الضباب يصعد من البحر ، فلا يكاد يرى المرء ، من خلاله ، الا التماع فانوس على مؤخرة السفينة القريبة ، وعلى الشاطىء يلتمع زبد الأمواج التى تلوح كأنها تهم بابتلاعه فى كل لحظة . وبينما كنت اهبط المنحدر

الوعر فى كثير من العناء ، رأيت الأعمى يتوقف لحظة ، ثم ينعطف يمينا . كان يسير قريبا جدا من الماء حتى كان يتراءى لى فى كل لحظة أن الأمواج ستتلقفه وتمضى به . لاشك أنها ليست نزهته الأولى ، لقد كان يمضى فى سيره على ثقة واطمئنان ؛ يتنقل من صخرة الى صخرة ، ويتحاشى الفجوات . ووقف أخيرا ، ورأيته كأنه يصيخ بسمعه الى صوت لا أعرف اى صوت هو ، ثم جلس على الأرض ، ووضع الرزمة التى كان يحملها . فاختبأت أنا وراء نتوء من الصخر ، وكنت أرى حركاته جميعهـــا . وما هى الا دقائق معدودة حتى لاح على الطرف الآخر شكل ابيض ، اقترب من الأعمى ثم جلس الى جانبه . فكانت الريح تنقل الى من حين الى حين بعض ما دار بينهما من كلام . قال صوت امرأة :

ـ ايها الأعمى ، ان الجو ردىء ولن يصل يانكو .

ـ يانكو لا يخشى العاصفة .

ـ الضباب فى تكاثف متزايد .

وكان فى صوت المرأة رنة من حزن .

ـ المرور بين حرس السواحل فى الضباب اسهل .

ـ واذا غرق ؟

ـ عندئذ تذهبين الى الكنيسة يوم الأحد بلا شريط حريرى جديد.

وكان صمت . ثمة شىء لفت نظرى : ان الأعمى الذى لم يكلمنى الا بلهجة روسية ركيكة ، قد انطلق لسانه الآن بكلام روسى فصيح. قال وهو يصفق بيديه :

ـ هل ترين ؟ لقد كنت على حق . ان يانكو لايخشى البحر ، ولا الريح ، ولا الضباب ، ولا حرس الجمرك . اسمعى ! ليس هذا صوت اصطخاب الماء ، بل صوت مجدافيه الطويلين أنا واثق من ذلك.

فوثبت المرأة واقفة ، وأخذت تتفحص الأفق قلقة .

قالت : أنت تخرف . لا أرى شيئا .

وأعترف اننى أمعنت النظر أيضا فلم أر شيئا يشبه أن يكون قاربا . وانقضت عشر دقائق ، فاذا انا ألمح نقطة سوداء بين جبلين من الأمواج . كانت النقطة تكبر تارة وتصغر تارة أخرى . انها قارب يرتفع بطيئا على الذرى المتحركة ، ثم يهبط سريعا وما ينفك يقترب من الشاطىء . لاشك انه جرىء جدا ذلك الشخص الذى تجاسر فى ليلة كهذه ان يشرع فى قطع مضيق طوله عشرون فرستا ، ولاشك ان الدافع الذى حفزه الى ذلك خطير . وكنت ، وأنا أحدث نفسى

بذلك ، اراقب القارب المسكين واجف القلب على غير ارادة منى .
كان يغطس كالبطة ، ثم يتحرك مقدافاه بسرعة كانهما جناحان ،
فيخرج من الهوة وسط سبائخ الزبد . ولحظة لاح لى انه من اندفاعه
سيرتطم بالشاطىء ويتمزق اربا اربا ، رأيتـــه يستدير للموجة
برشاقة . ويدخل فى خليج صغير ، سليما لم يمسسه أذى . وخرج
منه رجل متوسط طول القامة ، يضع على رأسه قلبقا تتريا من فرو
الخروف . ولوح بيده ، فأخذوا يخرجون من القارب أشياء كثيرة ،
بلغت من الكثرة أننى ما زلت الى اليوم اتساءل كيف لم يغرق بها
القارب . وحمل كل منهم على كتفه حزمة كبيرة ، وابتعدوا على
محاذاة الشاطىء ، وسرعان ما غابوا عنى . كان على أن أعود الى
البيت . ويجب أن أعترف ان هذه الحوادث قد أحدثت فى نفسى
شيئا من الاضطراب ، فكنت أنتظر الصباح بصبر فارغ .

ودهش القوزاقى كثيرا حين استيقظ فرآنى بثيابى ، ولكننى لم
أشرح له سبب ذلك . وظللت امتع طرفى ، من النافذة ، بجمال
السماء الزرقاء تطوف فيها مزق من الغيوم ، وبشاطىء القرم ،
يلوح من بعيد خطا بلون البنفسج ، ويعلوه برج منارة أبيض فوق
صخرة مرتفعة . ثم ذهبت الى قلعة فاناجوريا لأسأل قائدها متى
أستطيع أن أركب السفينة الى غيليندجيك .

ولكن القائد لم يستطع ان يجزم لى بشىء وا أسفاه ! فالسفن
التى رأيتها فى الميناء ، بعضها لخفر السواحل ، وبعضها الآخر مراكب
تجارية لم تشحن بأى بضاعة بعد . وقال القائد :

ــ قد تصل سفينة البريد بعد ثلاثة أيام أو أربعة ، وعندئذ نرى
ما يكون .

فرجعت مكدر المزاج ، فرأيت القوزاقى ينتظرنى على عتبة الباب ،
وقد ظهرت على وجهه علامات الاضطراب .

قال : الحالة سيئة يا صاحب النبالة .

ــ نعم يا صديقى ، ويعلم الله متى نسافر من هنا .

فزادت هذه الكلمات قلقه ، وانحنى على يقول بصوت خافت :

ــ هذا مكان مريب . لقد التقيت اليوم بوكيل ضابط أعرفه ،
وهو قوزاقى من البحر الأسود ، كان من مفرزتى فى العام الماضى ،
فلما ذكرت له اين نسكن ، اجابنى بقوله : « هذا ، ياصاحبى ،
مكان مريب .. هؤلاء أناس مشبوهون ... » وهذا صحيح . فما
هذا الأعمى الذى يذهب وحده الى السوق ، والى البئر ، والى

الخباز ؟.. يظهر انهم معتادون هنا على هذا ...
ـ وهل رأيت صاحبة البيت اليوم ؟
ـ نعم .. لقد جاءت أثناء غيابك عجوز وابنتها .
ـ ابنتها ؟ ولـكن ليس لها ابنه .
ـ ان لم تكن ابنتها ، فلست ادرى من تكون ! اسـمع ، ان العجوز فى البيت .

ودخلت الكوخ فرأيت فى الموقد نارا كثيرة ، يطبخ عليها غداء فاخر لا يتناول مثله اناس فى مثل فقرهم المدقع . ولم تجب على جميع اسئلتى الا بأنها صماء لا تسمع . ماذا أعمل ؟ التفت نحو الاعمى ، وقد جلس أمام الموقد يغذى النار بأغصان يابسة ، وقلت له وانا امسك بأذنه : « وأنت يا اعمى النحس ، الا قلت لى اين ذهبت البارحة تحمل رزمتك ؟ »

فاخذ الاعمى يتأوه ويبكى ويصرخ :
ـ اين ذهبت ؟ لم اذهب الى أى مكان ؟ رزمة ؟ اى رزمة ؟
وسمعت العجوز فى هذه المرة ، فدمدمت تقول :
ـ لايعرف الناس الا أن يلفقوا ! ماذا تريد من هـذا الصبى البائس ؟ ماذا صنع ؟

فازعجنى هذا كله أخيرا ، فخرجت وقد صممت على أن أجد مفتاح السر .

وتلفعت بمعطفى اللبادى ، وجلست على حجر مسندا ظهرى الى جدار السياج . كان البحر يمتد أمامى ، وكان لايزال يضـطرب بعاصفة الليلة البارحة ، وكان هديره الرتيب الذى يشبه جلبة مدينة تهم بالنوم يذكرنى بالسنين الخوالى ، فانتقل بفكرى الى الشمال ، الى عاصمتنا الباردة . وغرقت فى ذكرياتى ، فذهلت عن كل ما حولى ... وانقضت على ذلك ساعة كاملة أو يزيد ، ولاح لى فجأة اننى أسمع غناء . نعم انه غناء ... هى امرأة تغنى بصوت نضير . ولكن من أين يأتى هذا الغناء ؟ وأرهفت سمعى . انه غناء غريب ، بطىء حزين تارة ، سريع نشط تارة أخرى . ونظرت حولى فلم أر أحدا . وعدت أرهف السمع . لكأن هذه النبرات تهبط من السماء ؟ ورفعت بصرى الى فوق ، فلمحت على سقف البيت فتاة ترتدى ثوبا مخططا ، يتموج شعرها فى الهواء : انها لحورية من حوريات البحر حقا . وكانت تحمى عينيها من أشعة الشمس بيدها ، وتتفرس فى الأفق البعيد ، ضاحكة مخاطبة نفسها تارة ، ومستأنفة

غناءها تارة اخرى . وانى لاتذكر اغنيتها كلمة كلمة :

فى البحر الجميل
تسير السفن
السفن ذات الأشرعة البيض ،
طليقة كالرياح .
بين هذه السفن
يسير قاربى
قاربى الذى ليس له جهاز ،
وليس له الا مقدافان
حين تهب الزوبعة
تطوى جميع السفن القديمة
اجنحتها
وتتفرق فوق الامواج .
اما انا فانحنى للبحر
قائلة :
« حذار ايها البحر الخبيث
أن تقلب قاربى ،
قاربى الملىء
بألف شىء ثمين
يدير دفته فى الظلام الدامس
رجل محنك » .

ودار فى خلدى فورا ان هذا الصوت هو الصوت الذى سمعته فى الليلة البارحة . فاذهلنى ذلك قليلا ، حتى اذا نظرت بعد لحظة الى السطح ، كانت الفتاة قد بارحته ... وفجاة رايتها تمر امامى راكضة . كانت تغنى أغنية اخرى ، وهى تصفق بأصابعها ، ودخلت على العجوز بسرعة كأنها الريح . وسمعتهما تتشاجران . كانت هى تضحك فى قهقهة عالية ، وكانت العجوز تصرخ غاضبة . وفجاة رايت حوريتى تستانف ركضها المتواثب ، حتى اذا اقتربت منى ، توقفت ، ونظرت فى عينى كأن وجودى يدهشها ، ثم تحولت عنى فى غير احتفال ، وابتعدت نحو الشاطىء بخطا بطيئة . ولكنها لم تستقر هنالك ، بل ظلت تحوم حول البيت طوال النهار ، تثب وتغنى بلا هوادة . ما أغربها من فتاة ! لم يكن فى وجهها اى امارة من امارات الجنون . بالعكس ، كان فيما ترشقنى به عيناها

النافذتان من نظرة متحدية ، قوة مغناطيسية لا أستطيع وصفها .
وكان يتراءى لى أن عينيها تنتظران فى كل لحظة سؤالا ، ولكننى ما اكاد افتح فمى حتى تولى هاربة ، وهى تبتسم ابتسامة متخابثة .

ما رايت فى حياتى امراة مثلها ، حتما . لم تكن جميلة ، ولكن لى فى الجمال آرائى ، انها أصيلة العرق ... واصالة العرق هذه هى الشيء الهام فى النساء كما فى الخيول أيضا جميعا . تلك حقيقة يرجع الفضل فى اكتشافها الى فرنسا الفتية . وهى تتجلى (أعنى اصالة العرق لا فرنسا الفتية) فى المشية واليدين والساقين ، وفى الأنف على وجه الخصوص . ان الانف المستقيم أندر فى روسيا من قدم صغيرة . ولاح لى أن مغنيتى لم تتجاوز الثامنة عشرة من عمرها . ان مرونة قدها العجيبة ، وطريقتها الخاصة فى احناء راسها ، وشعرها الكستنائى الطويل ، والتماع جلدها المثلوج عند الجيد والكتفين كبريق الذهب ، وانفها المستقيم خاصة ، كل ذلك قد سحرنى وملك على عقلى ورغم اننى قرأت فى نظراتها المراوغة ما لا اعرف من معانى الشراسة والشبهات ، ورغم أن فى ابتسامتها شيئا لم أجد سبيلا الى فهمه ، فلقد أسرتنى أسرا قويا ، وأطاش انفها الجميل صوابى . وتخيلت كأننى وجدت مينيون التى تصورها جوته ، وابتدعها خياله الالمانى الجامح . والحق ان بين الفتاتين وجوها كثيرة من الشبه : انتقال مفاجيء من الحركة الصاخبة الى الهدوء الشامل ، كلام هو الألغاز ، سير متواثب ، غناء غريب ...

فلماجاء المساء ، استوقفتها عند العتبة، وجرى بينناهذا الحديث:

ـ قولى يابنتى الجميلة ما كنت تصنعين اليوم على السطح ؟
ـ ذهبت أنظر من أين تهب الريح ؟
ـ ولماذا ؟ ..
ـ لأن الريح تاتى بالسعادة .
ـ وهل كانت اغنيتك تستدعى السعادة ؟ ..
ـ السعادة تأتيك حيث تغنى .
ـ واذا اتتك اغنية بالشقاوة ؟ ..
ـ الشقاوة تنقص السعادة . وبين الخير والشر خطوة . .
ـ من علمك هذه الأغنية ؟ ..
ـ ما علمنيها أحد . ما يخطر ببالى ، أغنيه ، يسمعه من يجب أن يسمعه ، ومن لا يجب أن يسمعه لا يفهمه .
ـ وما اسمك أيتها المغنية الجميلة ؟

ــ سل عن اسمى من سمانى .
ــ ومن ذا الذى سماك ؟ ..
ــ كيف تريد أن أعرف ذلك ؟

أيتها الماكرة الصغيرة ! لا بأس ... انني عرفت عنك بعض الأمور (لم يتغير وجهها ، ولم تمط شفتيها ، كأننى أقصد بكلامى غيرها). أعرف أنك ذهبت فى الليلة البارحة الى الشاطىء .

ثم اصطنعت كل ما أستطيع من جد ، وقصصت عليها ما رأيته بالأمس كاملا . كنت اظن انها ستضطرب . ابدا . لقد انفجرت تضحك مقهقهة .

ــ رأيت كثيرا ، ولكنك عرفت قليلا .. وما عرفته ، فاحتفظ به لنفسك .

واذا قصصت على القائد كل شىء ؟

كنت قد اصطنعت هيئة جادة ، بل قاسية . فهربت فجاة وهى تغنى ، كما يهرب العصفور من دغل حين يجفل . لقد جاءت كلمتى الأخيرة فى غير محلها . ولم يدر بخلدى ما عسى أن يكون لها من عواقب ، وسأندم عليها فى القريب .

هبط الليل . فأمرت صاحبى القوزاقى أن يسخن غلايتى كما كان يفعل فى المعسكر ، وأشعلت الشمعة ، وجلست قريبا من المنضدة أدخن غليونى . كنت أفرغ من احتساء القدح الثانى من الشاى حين سمعت فجأة صرير الباب ، وسمعت ورائى حفيف ثوب ، ووقع أقدام خفيفة . فارتعشت والتفت ، فاذا هى حوريتى ! جلست امامى فى رفق ، دون أن تقول كلمة واحدة . ورفعت عينيها ، فرأيت نظرتها ــ لا أدرى لماذا ــ تفيض عاطفة ورقة ، وذكرتنى بواحدة من تلك النظرات التى سبق أن عبثت بحياتى فى كثير من الاستبداد والطغيان . لاح لى أنها تنتظر أن أسألها ، ولكننى صمت وقد تملكنى اضطراب لاسبيل الى وصفه . كان وجهها قد اكتسى شحوبا يضرب الى الزرقة ، ويفضح ما بنفسها من قلق واضطراب . وكانت يدها تطوف على المنضدة بلا هدف ، ولاحظت انها ترتعش ارتعاشة خفيفة .. وكان صدرها يعلو من حين الى حين ثم يتجمد . كأنها كانت تحبس نفسها . وضقت ذرعا بهذه المهزلة فى آخر الأمر ، وأوشكت أن أقطع حبل الصمت بطريقة لا تخلو من غلظة ، أى بأن أقدم لها قدحا من الشاى ، فاذا هى تنهض فجاة ، فتطبع على شفتى قبلة رطبة محرقة ، فزاغ بصرى ، ودار رأسى ، وعانقتها عناقا قويا ، عناق

فتى موله . ولكنها انسلت من بين يدى كالأفعى ، وهمست فى أذنى تقول : « متى نام جميع الناس فى هذا المساء ، تعال الى شاطىء البحر » . ثم خرجت مسرعة كالسهم ، فقلبت الغلاية والشمعة التى كانت على الأرض .

صاح صاحبى القوزاقى الذى كان قد استقر على فراشه وأمل ان يستدفىء مما بقى من الشاى :

ـ ان بها جنا !

عندئذ فقط ، ثبت الى نفسى .

وبعد ساعتين على وجه التقريب ، حين صمت كل شىء فى المرفأ ، ايقظت القوزاقى وقلت له :

ـ متى سمعت طلقة مسدس ، فاسرع الى الشاطىء . فجحظت عيناه ، وقال لى دون وعى : نعم يا صاحب النبالة .

ووضعت مسدسى فى حزامى ، وخرجت . كانت تنط تنتظرنى على حافة المنحدر ، وكانت ثيابها أخف من خفيفة . وكان شال صغير يلف جسمها اللدن .

قالت وهى تمسك بيدى :

ـ اتبعنى .

واخذنا نهبط . ما زلت أتساءل الى الآن كيف صنعت يومئذ حتى لم تدق عنقى . فلما وصلنا الى تحت ، اتجهنا يمينا ، سائرين فى الممر الذى تبعت فيه الأعمى الليلة البارحة . ما كان القمر قد طلع بعد ، وليس فى قبة السماء الزرقاء القاتمة الا نجمتان صغيرتان تتلألآن كأنهما مناران يهديان سراة الليل . وكانت الأمواج ثقيلة تتعاقب بحركة واحدة مطردة ، ولا تكاد تقوى علي رفع القارب المنعزل الذى شد الى الشاطىء . قالت :

ـ لنصعد الى القارب .

فترددت قليلا ، لاننى لا احب النزهات العاطفية فى الماء كثيرا ، ولكن أوان التراجع كان قد فات ، فلقد وثبت الى القارب ، ففعلت مثلها ، ولم أشعر الا ونحن فى عرض البحر ، قبل أن أدرك ماذا يجرى . قلت لها غاضبا :

ـ ما معنى هذا ؟

فأجابت ، وهى تجلسنى وتطوقنى بذراعيها :

ـ معناه انني أحبك .

وجعلت خدها على خدى ، فأحسست بزفرالهـا الحارة تلفح وجهى . وفجأة ، سمعت شيئا يسقط فى الماء . فمددت يدى الى حزامي فلم اجد شيئا ... المسدس ا آ ... لقد راودتنى شبهة رهيبة ، فصعد الدم الى راسي والتفت فرأيت اننا بعدنا عن الشاطىء مسافة خمسين ساجين* على وجه التقريب، وانا لا أعرف السباحة ! فأردت ان ادفعها عنى ، ولكنها تشبثت بثيابى كالهرة ، ثم أوشكت فجأة أن تلقى بى الى الماء بدفعة قوية . وترنح القارب . ولكننى صمدت . وكان بيننا عندئذ صراع بائس . لقد ضاعف الغضب قواى ، ولكننى سرعان ما لاحظت أننى دون خصمى خفة ، فقبضت على يديها الصغيرتين وضغطتهما ضغطا شديدا ، وانا اقول لها :

ـ ماذا تريدين ؟

فقضقضت اصابعها ، ولكنها لم تصرخ . ان طبيعة الأفعى فيها ، تتحمل وتتجلد .

قالت :

ـ لقد رأيت ، وستشى بنا !

واستطاعت بجهد كبير أن تقلبنى على حافة القارب ، فأصبح نصف جسمى ونصف جسمها يتدليان خارج القارب ، واصبح شعرها يلامس صفحة الماء . فأشرفنا على الهلاك . فاستندت بركبتى الى قاع القارب ، وامسكت غديرتها باحدى يدى ، وامسكت خناقها باليد الأخرى ، فتركت ثيابى ، فألقيتها الى البحر بمثل لمح البصر .

كان الظلام مخيما ، ورأيت راسها بين الزبد مرتين، ثم لم أر شيئا .

ووجدت فى قاع القارب نصف مقذاف قديم ، فاستطعت بجهود طويلة أن أصل أخيرا الى الشاطىء . وفيما كنت اسير الى الضفة لأعود الى منزلى حانت منى التفاتة الى الجهة التى جاء اليها الأعمى امس ينتظر بحار الليل . وكان القمر قد بدأ يزحف فى السماء ، فتراءى لى شـبح أبيض يجلس الى الشاطىء ، فاقتربت بخطا مختلسة يدفعنى حب الاطلاع ، وانبطحت على العشب ، عند ذروة المنحدر ، فكنت اذا مددت راسى أستطيع أن ارى كل ما يجرى تحت . ورأيت حوريتى ... لم يدهشنى ذلك كثيرا بل أسعدنى

* ساجين : وحدة لقياس الطول تساوى ٢١٣ر٢ مترا

تقريبا . كانت تعقف شعرها الطويل الذى يتقاطر منه الزبد . وكان قميصها المبلل يرسم جسمها اللدن ، وصدرها الناهد . وما هى الا لحظة حتى ظهر فى الأفق البعيد زورق يقترب من الشاطىء سريعا. فلما وصل خرج منه ، كالأمس ، رجل يضع على رأسه قلبقا تتريا ، ولكن شعره قد قص على طريقة القوزاق ، وفى حزامه سكين كبيرة .

قالت له :

ـ يانكو ، لقد ضاع كل شىء .

واستمر الحديث بينهما طويلا ، ولكن صوتهما كان خافتا جدا ، فلم أستطع أن أسمع منه شيئا .

وقال يانكو أخيرا بصوت مرتفع :

ـ والأعمى .. أين هو ؟

قالت :

ـ لقد ارسلته ..

وبعد بضع دقائق ظهر الأعمى يحمل على ظهره كيسا وضعوه فى الزورق . وقال يانكو :

ـ والآن أيها الأعمى ، اسمع جيدا ما أقوله لك . ستحرس المكان ... هل تفهم ماذا أعنى ؟ .. ان هناك بضائع ثمينة ... قل لـ ... (لم اسمع الاسم) الا يعتمد على بعد الآن ، فالحالة هنا سيئة . لن يرانى أبدا . أصبح الأمر خطرا . سامضى ابحث عن عمل فى غير هذا المكان . ولن يسهل عليه أن يجد رفيقا جسورا مثلى . قل له لو دفع مبلغا أكبر ، لما تركه يانكو . لن أعدم أن أجد عملا ، حيثما هبت ريح ، وهدر بحر .

ثم أردف يقول بعد لحظة صمت :

ـ انها لا تستطيع أن تبقى هنا ، فسوف آخذها معى . قل للعجوز انه آن لها أن تموت ... أن تذهب الى جهنم ! وهى لن ترانا على كل حال .

قال الأعمى بصوت متوسل :

ـ وأنا ؟

فكان جواب يانكو :

ـ وماذا تريد أن اصنع بك ؟

وفى اثناء ذلك كانت حوريتى قد وثبت الى الزورق واخذت تومىء لرفيقها أن يأتى ، فوضع يانكو شيئا فى يد الأعمى وهو يقول :

ــ اليك شيئا تشترى به حلوى .

ــ هذا كل شىء ؟

ــ خذ أيضا .

وسقطت قطعة من النقدعلىالصخرة ترن.فلم يتناولها الأعمى. ووثب يانكو الى الزورق . وكانت الريح تهب من الشاطىء فنشرا شراعا صغيرا ، ورأيتهما يبتعدان بسرعة . وفى ضوء القمر رقص شراعهما الأبيض مدة طويلة بين الأمواج المظلمة . كان الاعمى لايزال جالسا على الشاطىء ، وفجأة سمعته يجهش منتحبا ، وظل يبكى طويلا ... احزننى ذلك . لماذا رمانى القدر فى هذه البيئة الهادئة ، بيئة هؤلاء المهربين الشرفاء ؟.. لقد كنت كالحصاة سقطت فى نبع صاف فعكرته ... لقد عكرت عليهم هدوءهم ... وكدت اهوى الى القاع أيضا كالحصاة .

عدت الى مسكنى . فرايت الشمعة تذوب عند المدخل ، فى طاس من الخشب ، ورايت القوزاقى يغط رغم أوامرى فى نوم عميق قابضا على بندقيته بكلتا يديه . فتركته ينام ، وحملت الشمعة ودخلت الى الغرفة . وا حسرتاه ! ان صندوقى الصغير ، وسيفى ذا الغمد الفضى ، وخنجرى الداغستاني الذى أهداه الى أحد الأصدقاء ، كل ذلك قد اختفى . عندئذ فقط عرفت ماذا كان يحمل ذلك الأعمى اللعين على ظهره . فايقظت صاحبى القوزاقى بضربة خشنة ، وغضبت ، وزمجرت ، ولكن ما عساى أصنع ؟ الا يكون من المضحك أن اشكو الى السلطات صبيا أعمى سرقنى ، وفتاة فى الثامنة عشرة من عمرها كادت تغرقنى ؟ من حسن حظى اننى أتيحت لى فى الغد فرصة السفر فتركت تامان . أما ماذا صار اليه الأعمى البائس والعجوز ، فلا أدرى ..! ثم وفيم تعنينى أفراح الناس وآلامهم ، أنا الضابط المترحل ، المكلف فوق ذلك بمهمة ! ..

نهاية القسم الاول

الفصل الثاني

تتمة يوميات بتشورين



الأميرة ماري

وصلت أمس الى بياتيجورسك ، واستأجرت بيتا يقع عند طرف المدينة ، على أعلى مكان ، بسفح جبل ماشوك ، حتى أن السحب تصل الى سقفي أيام العواصف . وحين فتحت نافذتي في الساعة الخامسة من هذا الصباح امتلأت غرفتي برائحة الأزهار النابتة في الحديقة الصغيرة ، وكانت أغصان الشجر المزهرة تطل علي من النافذة ، وتنثر الريح على مكتبي في بعض الأحيان شيئا من أوراق زهرها الأبيض . اني لأرى من الجهات الثلاث منظرا رائعا . من الغرب أرى جبل بشتو ، برءوسه الخمسة الضاربة الى الزرقة ، كأنه « آخر سحابة من سحب العاصفة المتبددة » * وفي الشمال ينتصب جبل ماشوك ، كأنه قبعة الفرو على رأس رجل من بلاد فارس ، ويحجب عني كل ذلك الجزء من الأفق . أما في الشرق فالمنظر أبهى وأدنى الى الفرح : في تحت ، تمتد أمامي زركشة المدينة الصغيرة ، الجميلة النظيفة ، واسمع خرير الينابيع ، ينابيع الاستشفاء ، وأصوات الناس تتكلم لغات شتى . ووراءها الجبال تتدرج صاعدة ، وتزداد زرقة وابخرة كلما امعنت في الصعود . وفي آخر الأفق تمتد سلسلة الذرى الفضية يغطيها الثلج ، تبدأ بجبل كازبك وتنتهي بجبل الالبروز ذي القمتين ... يا لها من فرحة أن يعيش الانسان في بلد كهذا البلد ! ان نشوة مرحة لتسري في عروقي كلها . الهواء نقي غض كقبلة طفل ، والشمس دافئة ، والسماء زرقاء — ماذا أريد على هذا من مزيد ؟ لا مكان للأهواء والرغبات والحسرات هنا ... ولكن ها قد حانت الساعة ، يجب أن أمضي الى نبع اليزابت : فقد قيل لي ان صفوة الناس التي جاءت للاستشفاء بالماء تلتقي هناك .

... ...

سرت ، وأنا أهبط الى مركز المدينة ، في شارع كبير ، فالتقيت بجماعات من الناس عابسة ، تصعد الجبل في بطء . ان معظمها أسر ملاك كبار من السهوب ، هذا ما يلاحظه المرء فورا من ردنجوت الأزواج الذي رث واصبح لا يجاري الزي الحديث ،

* بيت من قصيدة بوشكين « السحابة » .

وكذلك من افراط نسائهم وبناتهم فى التزين . لاشك انهم يستطيعون ان يعدوا على الأصابع جميع شبـــاب « الميـــاه » لأنهم نظروا الى مستطلعين فى غير قليل من اللطف ، غرتهم تفصيـــلة ردنجوتى البطرسبرجية ، ولكنهم ما لبثوا أن اشاحوا بوجوههم فى استياء ، حين ابصروا على كتفى شارات ضابط من ضباط القتال .

أما نساء السلطات المحلية ، وهن اللاتى يكرمن مثوى الضيوف ، فقد كان استقبالهن ألطف وأجمل . كن يحملن فى أيديهن نظارات ذات سواعد ، ولا يلقين كبير بال الى البدلة العسكرية ، كالأخريات ، لقد تعودن أن يلقين فى القفقاس قلوبا حـــارة تحت الأزرار ذات الأرقام ، وعقولا مثقفة تحت القبعات العسكرية البيضاء * ان أولئك السيدات لطيفات جدا . وليس للطفهن انقضاء . ان لهن عشاقا جددا كل سنة وفى هذا ربما سر لطفهن الذى لا ينضب له معين . وبينما كنت أصعد الدرب الضيق الذى يؤدى الى ينبوع اليزابت مررت بجمهور من المدنيين والعسكريين الذين يشكلون ـ كما عرفت فيما بعد ـ طبقة خاصة بين الذين يأتون الى هنا ينشدون الاستشفاء بالماء . انهم يشربون ولكنهم يشربون شيئا غير الماء وقلما يتنزهون ويغازلون الحسان بشكل عابر . وانهم يقامرون ويشكون من الضجر الذى يستولى عليهم . انهم متأنقون . فهم يصطنعون أوضـــاعا اكاديمية وهم يغطسون كئوسهم المغلفة فى بئر الماء الكبريتى ، اما المدنيون فهم يضعون ربطات عنق زرقاء ، والعسكريون يكشفون عن تخريم قمصانهم بفك ياقة البدلة . انهم يتظاهرون باحتقـــار عميق لمنازل الأقاليم ، ويتنهدون أسفا على الصالونات الأرستقراطية فى العاصمة ، التى حرموا من استقبالاتها .

ووصلت أخيرا الى البئر . . . ان على مقربة منه ، فى ساحة صغيرة ، بيتا ذا سقف أحمر فيه الحمامات ، وبعده ممر مسقوف يتنزه فيه الناس حين تمطر السماء . وهؤلاء ضباط جرحى جلسوا على مقعد كبير ، وقد شحبت وجوههم وظهرت عليهم امارات الحزن ، ووضعت عكاكيزهم الى جانبهم . وســـيدات يذهبن ويجئن فى الســـاحة الصغيرة بخطا سريعة فى انتظار تأثير الماء فيها . ان بينهن وجهين

---

* يشير الكاتب الى الضباط سليلى الطبقة النبيلة ، الذين جردوا من رتبهم وارسلوا الى القفقاس منفيين ، لانهـــم شاركوا فى عصيان كانون الاول ١٨٢٥ . كان الجنود الروس يضعون على رءوسهم فى القفقاس قبعة بيضاء ، وكان يشار الى رقم فوجهم على ازرار بدلهم العسكرية .

جميلين أو ثلاثة . وفي الممرات المزروعة بأشجار الكرمة التي تغطي سفح جبل ماشوك ، كانت تظهر من حين الى حين قبعات مزركشة هي قبعات النساء اللاتي يحببن العزلة اثنين اثنين ، لأنني ألمح دائما الى جانب هذه القبعات قلنسوة عسكرية ، أو قبعة مدورة كريهة . أما عشاق المناظر الطبيعية فقد برزوا على الصخرة الوعرة التي يقع عليها الجناح المسمى « معزف ايول » ، وينظرون الى جبل الالبروز بنظارة مقربة . وكان بينهم مربيان مع تلاميذهما ، وفدوا الى المياه استشفاء من داء الخنازير .

وكنت ألهث من التعب فتوقفت عند حافة الجبل ، واستندت الى زاوية بيت صغير ، واخذت أسرح طرفي فيهذه المناظر الخلابة ، فاذا بصوت أعرفه يهتف من ورائي :

ـ هه ، بتشورين ! أانت هنا منذ زمان ؟

فالتفت ، فاذا هو جروشنيتسكي ، فتعانقنا . لقد عرفته أثناء احدى الحملات ، وقد أصيب برصاصة في ساقه ، ووصل الى المياه قبلي باسبوع .

ان جروشنيتسكي جندي قضى في الخدمة سنة واحدة لا أكثر. وهو يصرف غندرته الى ارتداء معطف جندي مصنوع من جوخ غليظ ويحمل صليب القديس جرجس ، وهو صليب يعطى للجنود من غير ذوي الرتب . انه فتى جميل ، ملوح الجلد ، أسود الشعر، يحسبه من يراه أول مرة انه في الخامسة والعشرين من عمره ، مع أنه ماكاد يبلغ الواحدة والعشرين ، فاذا تكلم رمى رأسه الى الوراء . وفتل شاربه في كل لحظة بيده اليسرى ، لأنه يستند باليمنى الى عكازه . انه يتحدث بسرعة وتصنع . هو من أولئك الناس الذين يملكون لكل ظرف من ظروف الحياة جملا متفصحة جاهزة ، ولا يهزهم الجمال البسيط ، ويرفعون لواء المشاعر النادرة ، والأهواء الرفيعة ، والآلام الفذة . فادهاش الناس هو لذتهم الكبرى ، والحالمات من بنات الاقاليم يفتتن بهم أيما افتتان ، حتى اذا طعنوا في السن أصبحوا اما من ملاك الأراضي الهادئين ، واما منالسكيرين، وقد يصبح أحدهم هذا وذاك في آن واحد . وكثيرا ما يتصف هؤلاء الناس بمزايا عالية ، ولكن لا في الشعر أبدا . ولقد كان هوى جروشنيتسكي أن ينشد الشعر ، وكان لاينضب معينه متى خرج الحديث عن نطاق الأفكار العادية . ولم استطع يوما أن أناقشه . انه لا يجيب على اعتراضاتك ، ولا يصغي اليك ، بل ينتظر أن تتوقف

عن الكلام ، حتى يندفع فى حديث طويل تظن أن له علاقة بما قلت ، فاذا هو استمرار لحديثه هو لا أكثر .

وهو انسان هجاء ، وكثيرا ما تكون لدعاته فكهة ، ولكنها لاتشتمل على حقد ، ولا تصيب مقتلا ابدا ... فلن يستطيع أن يقتل أحدا بكلمة . وهو لايعرف الناس ، لايعرف أوتارهم الضعيفة ، لأنه طوال حياته لم يهتم الا بنفسه ، وكان غايته ان يصبح بطل رواية . وقد اراد أن يلقى فى روع الناس انه لم يخلق لهذا العالم ، وانه ميسر لما لا أدرى من آلام خفية .. ومن كثرة ما كرر ذلك على مسامع الناس أصبح يصدقه هو نفسه . من أجل هـــذا يرتدى معطفه الخشن ، معطف الجندى ، فى كثير من الاعتزاز والفخر . وقد أدركت انا هذه الحقيقة ، فهو لذلك لايحبنى ، رغم ان علاقاتنا هي فى الظاهر من اقوى علاقات الصداقة . وهو يدعى الشجاعة والبسالة ، ولكننى رأيته أثناء القتال : كان يهز سيفه وهو يصرخ ، ويهجم مغمضا عينيه . ما هذه هى الشجاعة الروسية ! ..

وانا أيضا لا أحبه . واشعر اننا سنصطدم يوما على ممر ضيق ، فتقع الطامة على واحد منا .

واذا وجد اليوم فى القفقاس ، فلا شك ان ذلك كان نتيجة تعصبه الرومانسي . وانا على يقين انه فى صبيحة اليوم الذى ترك فيه قرية أبيه ، قال لامرأة ما من الجيران ، وهو متجهم الوجه : « انه لايسافر للخدمة وكفى ، بل يسافر باحثا عن الموت ، لأن ... » ولاشك انه أضاف يقول وهو يغطى عينيه بيده : « لا ، لا ، يجب الا تعرفى (أو يجب أن لا تعرفن) ! لأن نفسك بريئة نقية ، فقد تهلع أشد الهلع اذا عرفت ! وفيم أقول لك السبب ؟ ما انا عندك ؟ هل تستطيعين أن تفهميني ؟ » الى آخر ما هنالك .

ولقد قال لى هو نفسه : « ان ما حمله على الالتحاق بفوج ك... سيبقى الى الأبد سرا بينه وبين السماء » . على انه — حين يطرح عنه قناعه التعيس — شخص ممتع مسل بعض الشيء ... ومن الشائق أن يراه المرء مع النساء ، فلا شك انه عندئذ ينشر ريشه !

التقينا اذن كما يلتقي صديقان قديمان ، وسألته عن الحياة فى بياتيجورسك ، وعن الأشخاص الذين يجدر أن يعرفهم المرء ممن يعيشون فيها ، فقال وهو يتنهد :

— الحق اننا نعيش حياة خالية من الشعر . فى الصباح نشرب الماء ونكون واهنين كجميع المرضى ، وفى المساء نشرب الخمر ونصبح

ثقيلي الظل كسائر الأصحاء . وهناك نساء ، ولكن المرء لا يجد فى صحبتهن كبير متعة : يلعبن الورق ، ولا يجدن التأنق فى الملبس ، ويتحدثن بلغة فرنسية كريهة . ولم يأت من موسكو هذا العام الا الأميرة ليجوفسكايا وابنتها ، ولكننى لا أعرفهما . ان معطف الجنود الذى أرتديه اشبه بخاتم الجحود ، وما يثيره من اهتمام الناس يثقل على نفسى كالصدقة .

فى تلك اللحظة مرت بنا سيدتان ذاهبتان الى البئر : أولاهما متقدمة فى السن قليلا ، والثانية صبية رشيقة خفيفة . لم أستطع ان أرى وجهيهما المختبئين تحت القبعتين ، ولكن ملابسهما تلتزم أدق قواعد الذوق الانيق : فلا شيء زائد عن حدود الاعتدال . كانت الصغرى ترتدى فستانا Bris de Perles * ويحيط بعنقها الرشيق منديل خفيف من الحرير . وكان حذاؤها العالى الأحمر ، يشد قدمها الدقيقة الى الكعب على أجمل صورة ، حتى ان أجهل الناس بأسرار الجمال لايمكنه متى رآه الا يصيح ، من الدهشة على أقل تقدير . وكان فى خطواتها الخفيفة ، على امتلائها بالنبالة ، شيء من العذرية والطهارة ، لايمكن وصفه ، ولكن البصر يدركه . وحين مرت قربنا فاح منها عبق لا سبيل الى تفسيره ، عبق كالذى يخرج من رسائل حبيبة . قال لى جروشنيتسكى :

ـ هى الأميرة ليجوفسكايا ، وابنتها مارى ، كما تناديها على الطريقة الانجليزية . وهما هنا منذ ثلاثة أيام فقط .

ـ ها ، وعرفت اسمها ؟

قال وقد اصطبغ وجهه بحمرة الخجل :

ـ سمعته مصادفة . أعترف لك بأننى لا أحرص على أن أتعرف اليهما . فالذى يخدم فى الجيش يكاد يكون فى نظر هؤلاء الأرستقراطيين المتعجرفين انسانا متوحشا ، لا يعنيهم كثيرا أن يكون هنالك عقل يفكر تحت القبعة المرقمة ، أو قلب يخفق تحت معطف الجوخ الغليظ .

قلت مبتسما :

ـ مسكين هذا المعطف ! ولكن قل لى ، من هو هذا السيد الذى يتقدم نحوهما ويمد اليهما قدحا ، فى كثير من اللطف ؟

ـ هو رايفتش ، رجل مفرط الأناقة من موسكو ، مقامر يعرف ذلك فورا من السلسلة الذهبية الكبيرة المعلقة بصدارته الزرقاء .

---

* أشهب بلون اللؤلؤ .

وانظر الى هذه العصا الكبيرة ! لكأنها عصا روبنسون كروزيه ! ثم انظر الى لحيته ، والى شعره * ... ! A la moulik

ـ انت تحقد اذن على النوع البشرى كله .

ـ هناك ما يدعو الى ذلك ...

ـ صحيح ؟

وفى اثناء ذلك كانت السيدتان قد غادرتا البئر ، فلما مرتا بالقرب منا رفع جروشنيتسكى صوته قائلا بالفرنسية ، وهو يصطنع مع عكازه وضعا دراميا :

— Mon cher, je hais les hommes pour ne pas les mépriser, car autrement la vie serait une farce trop dégoutante. **

فالتفتت الأميرة الصبــية الجميلة ، وكافأت الخطيب بنظرة مستطلعة طويلة لايمكن تعريف معناها ، ولكنها لم تكن نظرة ساخرة على كل حال . ولا أكتمكم اننى فى أعماق نفسى هنأته من صميم فؤادى . قلت له :

ـ ان الأميرة مارى فاتنــة .. ان لها عينين مخمليتين ، نعم مخمليتين ، وانصحك بانتحال هذا التعبير لنفسك اذا تكلمت عن عينيها فيما بعد . وان أهدابها تبلغ من الطول أن أشعة الشمس لا تنعكس فى البؤبؤ . أحب هذه الأعين التى ليس لها بريق . انها عذبة جدا . يحس المرء انها تلاطفه ... على اننى اعتقد ان ليس فى وجهها من جمال غير هذا . ولكن هل اسنانها بيضاء ؟ هذا امر اساسى ! يؤسفنى ان عبارتك المتنفخة لم تحملها على الابتسام !..

فقال جروشنيتسكى مستاء :

ـ انك تتحدث عن امرأة جميلة حديثك عن حصان انجليزى .

فقلت محاولا أن أصطنع لهجته :

—Mon cher, je méprise les femmes pour ne pas les aimer, car autrement la vie serait un mélodrame trop ridicule. ***

وهنا أدرت له ظهرى وابتعدت ، وقضيت نحوا من نصف ساعة أتنزه فى شعاب الكروم بين صخور الكلس والجذوع . واشتدت الحرارة ، فاردت أن أعود الى بيتى، فلما مررت بالقرب من النبع ،

---

* قص على طريقة الفلاح الروسى .

** يا عزيزى ، انا اكره الناس كى لا احتقرهم ، والا اصبحت الحياة مسخرة تدفع الى كثير من الاشمئزاز .

*** ياعزيزى ، انا احتقر النساء كى لااحبهن ، والا غدت الحياة ميلودراما تدفع الى كثير من الضحك « بالفرنسية فى الاصل »

وقفت تحت السقيفة أتنفس فى ظلها ، فأتيح لى أن أرى مشهداً شائقاً : الاشخاص قـــد توزعوا هكذا : الأميرة الأم والمتظرف الموسكوبى جالسان على مقعد ، وقد استغرقا فى حديث يلوح خطيرا ، والفتاة التى لعلها فرغت منذ لحظة من شرب كأسها الأخيرة ، تسير حالمة بالقرب من البئر حيث يقف جروشنيتسكى . ولم يكن فى الساحة الصغيرة أحد غير هؤلاء .

فاقتربت ، واختبأت وراء زاوية من السقيفة . وفى هذه اللحظة سقط كأس جروشنيتسكى على الرمل ، فانحنى يحاول التقاطه ، ولكنه لم يستطع ذلك بسبب ساقه المريضة . مسكين ! ما أكثر ما بذل من جهود وهو يستند الى عكازه ، دون أن يظفر بالكأس ! فى هذه اللحظة كان وجهه المعبر ينم حقا عن الم .

كانت الأميرة مارى قد رأت هذا كله خيرا منى .

فاندفعت نحو جروشنيتسكى خفيفة كعصفور ، وانحنت على الأرض ، فتناولت الكأس ، ومدتها اليه بحركة لا نهاية لسحرها ، واصطبغ وجهها بحمرة شـــديدة ، ثم التفتت بسرعة الى جهة السقيفة ، فلما تأكدت من أن أمها لم تر شيئا ، ارتد اليها هدوؤها فورا . وحين فتح جروشنيتسكى فمه ليشكر لها جميلها ، كانت قد ابتعدت . وبعد دقيقة خرجت من الرواق مع أمها ورايفتش ، ومرت بالقرب من جروشنيتسكى ، وهى تتخذ هيئة الجد والوقار ، حتى أنها لم تلتفت الى وراء ، ولا لاحظت تلك النظرة المولهة التى تابعها بها وهى تهبط الجبل الى أن غابت وراء زيزفونات الشارع . ثم لمحت قبعتها فجأة فى الشارع ، ورأيتها تدخل باب بيت من أجمل بيوت بياتيجورسك ، وكانت الأميرة تتبعها ، فلما وصلت الى الباب استأذنت رايفتش .

عندئذ لاحظ الجندى المسكين وجودى . قال وهو يضربنى بيده ضربة قوية :

ـ هل رأيت ؟ انها الملاك وكفى ! ..

قلت له أتكلف السذاجة :

ـ لمـــاذا ؟

ـ انت اذن ما رأيت ؟

ـ بل رأيتها تناولك كأســـك . ولو كان الحارس هناك لفعل ما فعلت ، ولأسرع الى ذلك أكثر منها ، لأنه قد يأمل فى عطاء . ثم انها قد أشفقت عليك : كان وجهك يتجعد تجعدا رهيبا وأنت تستند الى ساقك الجريحة ! ..

ــ ألم يهززك ، فى تلك اللحظة ، أن ترى روحها تشع فى وجهها ؟
ــ لا . .

لقد كذبت ، ولكننى كنت أريد أن أحنقه . انى لأهوى المعاكسة بفطرتى ، وحياتى كلها لم تكن الا نسيجا من المتناقضات الحزينة الشقية بين عقلى وقلبى . يكفى ان ارى شخصـــا متحمسا حتى أصبح باردا كالثلج ، وأعتقد اننى اذا عاشرت شخصا بارد العاطفه رخوا أصبحت من أشد الجامحين جموح هوى . ويجب أن أعترف ان شعورا مؤلما أعرفه من قبل قد عض قلبى قليلا فى هذه اللحظة. انه الغيرة . أقول ذلك بلا لف ولا دوران ، لأننى تعودت أن اعترف بكل شىء صراحة . ثم انه ليندر أن نجد شابا (أقصد شابا من الطبقة الراقية تعود على أن يتملق الناس غروره) يلتقى بامرأة جميلة ، وينتبه اليها خلسة ، ثم لا يؤذيه أن يراها ، على حين فجأة ، تؤثر عليه ، ايثارا واضحا ، شخصا آخر لا تعرفه أكثر مما تعرفه هو .

وهبطنـا الجبل صامتين ، ومررنا فى الشارع أمام البيت الذى غابت فيه الحسناء . لقد كانت جالسة الى النافذة . فشـــدنى جروشنيتسكى من كمى ، وأرسل اليها نظرة من تلك النظرات ، العاطفية المضطربة فى آن واحد ، التى ليس لها فى النساء كبير تأثير . أما أنا فصوبت اليها نظارتى. فرأيت أن نظرةجروشنيتسكى تجعلها تبتسم ، وأن نظارتى الوقحة تغضبها كثيرا : كيف يجرؤ ضابط يخدم فى القفقاس أن يسدد نظارته الى اميرة من موسكو ؟..

١٣ ايار .

فى هذا الصباح أتى الى الطبيب . ان اسمه فرنر، ولكنه روسى. وهل فى هذا عجب ؟ لقد عرفت ألمانيا كان يدعى ايفانوف .

ان فرنر شخص فذ فى أكثر من ناحية . أنه ريبى مادى ، كسائر الأطباء على وجه التقريب . وهو الى ذلك شاعر ، أقول هذا جادا لا هازلا : هو شاعر دائما فى أعماله ، وأحيانا فى أقواله ، وان لم ينظم فى حياته بيتين من الشعر . لقد درس جميـــع أوتار القلب الانسانى ، كما تدرس الأعصاب فى جثة تشرح ، ولكنه لم يجن من معرفته أى فائدة يوما ، كما يتفق لعالم كبير فى التشريح أن لايشفى من حمى ! وكان من عادة فرنر أن يسخر من مرضاه خفية ، ولكننى رأيته يبكى وهو ينحنى على جندى يحتضر ... كان فقيرا ويحلم بالملايين ، ولكنه ما كان ليفعل « الأمر » طمعا فى مال . قال لى يوما انه يؤثر أن يخدم عدوا على أن يخدم صديقا ، لأن فى خدمة

الصديق شيئا من بيع الاحسان ، فى حين أن الكره يزداد على قدر نبل الخصم . وكان سليط اللسان فى اغتياب الناس : أكثر من رجل طيب أحاله هجاؤه فى أعين الناس غرا أحمق . وقد أشاع عنه أطباء المياه ، خصومه الحاسدون ، انه يصور مرضاه تصويرا كاريكاتوريا، فاستاء المرضى منه ، وكادوا ينقطعون جميعا عن استشارته. وحاول أصدقاؤه ، اعنى جميع الممتازين ممن يخدمون فى القفقاس ، أن يردوا الى الناس ثقتهم به ، بعد أن تزعزعت ، ولكنهم لم يستطيعوا الى ذلك سبيلا .

كان من أولئك الناس الذين يزعجك منظرهم أول مرة ، ولكنه يعجبك بعد ذلك ، متى عرفت عيناك ان تكتشف فى ملامحه المتنافرة روحا مجربة نبيلة رفيعة . لقد رأينا نساء يحببن رجالا مثله حبا مجنونا ، ولا يبادلن دماماتهم بجمال أنضر الشباب عودا وازهاهم وردا ، كأنديميون * . يجب أن نعترف للنساء بهذه الميزة ، وهى انهن يدركن جمال النفس بفريزة ، ولعل هذا هو السبب فى أن رجلا مثل فرنر يحبهن أيضا أعنف الحب .

كان فرنر قصير القامة ، نحيلا ، رهيفا ، كطفل . وكانت احدى ساقيه أقصر من الأخرى ، كبايرون . وكان رأسه يبدو كبيرا بالقياس الى جسمه . وكان يحلق شعر رأسه معطا فلو رأى عالم من علماء الجمجمة ما يظهر فى جمجمته العارية من نتوءات ، لأدهشه هذا التزاوج العجيب بين ميول متعارضة أشد التعارض. وان عينيه الصغيرتين السوداوين اللتين لا تستقران على حال من القلق ، تحاولان أن تسبرا أغوار فكرك . وترى من ملبسه انه ذو ذوق ، وانه يعتنى بهندامه ، قفازه الضارب الى الصفرة يغطى يديه الصغيرتين المصبيتين ، وردنجوته وربطة عنقه وصدارته سوداء اللون دائما . ولقد لقبه الشباب باسم مفستوفيليس ** . فكان يتظاهر بالاستياء من ذلك ، ولكن هذا اللقب كان يتملق غروره فى أعماق نفسه. لقد تفاهمنا بسرعة. وانعقدت بيننا أواصر التعارف ، أقول التعارف ولا اقول الصداقة ، لأننى فى حقيقة الأمر عاجز عن الصداقة ، ذلك لأن أحد الصديقين لابد أن يكون عبدا للآخر، ولو أن أحدا منهما لايريد أن يعترف بذلك لنفسه فى كثير من الأحيان.

---

* انديميون : هو شاب — فى القصص اليونانية القديمة — يرمز الى الشباب والجمال الخالدين

** هو اسم الروح الشريرة فى الحكايات الالمانية القديمة ، وربما يقصد ليرمونتوف هنا شخصا من مسرحية جوته « فاوست »

وانا امرؤ لايمكن أن أكون عبدا ، كما ان القيادة متعبة فى هـذه الحال ، اذ لابد لمن يقود من أن يجيد الخداع . ثم اننى أملك خدما ومالا ، فما لى ولهذا كله ...

واليكم كيف تعارفنا : لقد لقيت فرنر فى س ... ، فى حلقة من الشباب غفيرة صاخبة ، ودار الحديث فى آخر السهرة فلسفة وميتافيزيقا . كنا نتحدث عن العقائد ، وكان لكل منا عقائده التى تختلف عن عقائد الآخرين .

قال الدكتور :

ـ اما أنا فلا أعتقد الا بشىء واحد ...

قلت تدفعنى الرغبة فى معرفة رأى هذا الشخص الذى ظل الى ذلك الحين صامتا :

ـ ما هو هذا الشىء ؟

قال :

ـ انني سأموت فى ذات صباح ، قريب أو بعيد.

قلت :

ـ أنا أغنى منك ... لأننى أعتقد بشىء آخر ايضا : هو اننى فى ذات مساء مشئوم ولدت .

ووجد جميع الناس أن ما نقوله سخف . ومع ذلك لم يقل أحد منهم كلاما أقرب منه الى العقل . ومنذ ذلك الحين تميزنا كلانا عن العامة . وكنا نلتقى كثيرا ، فنتجاذب أطراف الحديث فى شئون مجردة جادين ، الى أن لمحنا فى ذات لحظة ان كلا منا يتلاعب بالآخر ، فنظر كل منا الى صاحبه نظرة صارمة ، كما كان يفعل العرافون الرومانيون ، على ما يزعم شيشرون ، ثم انفجرنا ضاحكين ... وظللنا نضحك مدة طويلة ، ثم افترقنا ، وقد سر كل منا بهذه السهرة .

كنت مستلقيا على أريكة ، أنظر الى السقف وقد وضعت يدى تحت عنقى ، حين دخل فرنر الى غرفتى . فجلس على أحد المقاعد، بعد أن وضع عصاه فى ركن من أركان الغرفة ، وابلغنى وهو يتثاءب أن الجو حار فى الخارج ، فأجبته بأن الذباب يزعجنى ، ثم صمتنا.

قلت له بعد لحظة :

ـ لاحظ ياعزيزى الدكتور ان الدنيا تصبح مملة اذا خلت من الحمقى . أنظر : نحن هنا رجلان ذكيان ، نعلم مقدما اننا نستطيع أن نتناقش فى كل امر الى غير نهاية ... ونحن لذلك لا نتناقش فى

أى أمر . ان كلا منا يعرف تقريبا جميع ما يدور فى راس الآخر من أفكار خفية . ورب كلمة واحدة هى عندنا قصة برمتها . اننا نرى بذرة كل عاطفة من عواطفنا من خلال جميع الحجب . وما هو محزن يتراءى لنا مضحكا ، وما هو مضحك يبدو لنا محزنا ، ويمكن القول على وجه العموم اننا لا نحفل بشىء ، غير أنفسنا . لذلك لايمكن أن يقوم بيننا تبادل فى العواطف والأفكار . نحن نعرف كل منا عن الآخر كل ما نريد أن نعرفه ولا نريد أن نعرف أكثر من ذلك ، وليس لنا اذن الا مخرج واحد : هو أن نتبادل قص الحكايات . فهيا قص على حكاية من الحكايات .

وتعبت من هـذا الحديث الطويل ، فأغمضت عينى ، وأخذت أتثاءب ، فقال لى الدكتور بعد لحظة من تفكير :

ـ فى كلامك الملتبس ، مع ذلك ، فكرة !

ـ بل فكرتان !

ـ قل لى الأولى أقل لك الثانية .

ـ أبدا .

قلت ذلك وأنا أنظر الى السقف وأبتسم بينى وبين نفسى .

قال :

ـ أنت ترغب فى مزيد من المعلومات عن شـخص وافـد الى المياه ، وأنا أعرف من هو ذلك الشخص ، لأنهم طلبوا معلومات عنك هناك .

ـ دكتور ، يستحيل علينا حتما أن نتحادث : ان كلا منا يقرأ ما بنفس الآخر .

ـ الى الآن بالفكرة الثانية .

ـ الفكرة الثانية هى هذه : كنت أريد أن تقص أنت شيئا على ، أولا لأن الاستماع لا يتعب كما يتعب الكلام ، ثانيا لأن ذلك لايورطنى فى أن أقول أكثر مما يجب أن أقول ، ثالثـا لأن المرء يستطيع بالاستماع أن يلم بأسرار غيره ، رابعا ، لأن الأذكياء من أمثالك يؤثرون أن يكون أمامهم مستمعون لا محدثون . ولننتقل ، بعد ، الى الموضوع . ما الذى قالته لك الأميرة الأم عنى ؟

ـ أأنت واثق أنها الأم ... لا البنت ؟

ـ واثق .

ـ لماذا ؟

ـ لأن البنت سألت عن جروشنيتسكى .

ــ انت فى النفاذ الى الأمور صاحب موهبة عظيمة . لقد قالت الفتاة انها متأكدة من ان هذا الشاب الذى يرتدى معطف الجنود ضابط حرم من رتبته على اثر مبارزة ...
ــ أرجو ان تكون قد تركت لها هذا الوهم الممتع !
ــ طبعا .
فهتفت فرحا :
ــ لقد وجدنا العقدة . وسنعنى بعد الآن بالحل الذى ستنتهى اليه المهزلة . يأبى القدر أن يتركنى الضجر ، هذا واضح ...
قال الدكتور :
ــ احس سلفا أن جروشنيتسكى المسكين هذا سيكون ضحيتك
ــ تابع كلامك يا دكتور .

ــ قالت الأم ان وجهك ليس غريبا عليها ... فقلت لها لعلك رأيته ياسيدتى ببطرسبرج ، فى المجتمع... وذكرت لها اسمك... كانت تعرف اسمك . يظهر أن قصتك أثارت هناك كثيرا من الجلبة. وأخذت الأميرة تقص على مغامراتك ، ولا شك أنها أضافت الى أقوال الناس تعليقات من عندها ... وكانت ابنتها تصغى اليها فى كثير من الاستطلاع ، حتى أصبحت فى خيـــالها بطـــلا من أبطال الروايات ... ولم اكذب شيئا مما قالته الأميرة ، رغم علمى بأن ما تقوله هراء سخيف .

فهتفت وانا آمد يدى لمصافحتها :
ــ انت صديقى !
فشد الدكتور على يدى وقد بدا فى وجهه التأثر ، وقال :
ــ اذا شئت قدمتك اليها ...
فقلت وانا اضرب كفا بكف :
ــ عفوك ... هل يقدم الأبطال ؟ انهم يعرفون حين ينقذون حبيبتهم من موت محقق ...
ــ هل تنوى حقا مغازلة الأميرة الصغيرة ؟
ــ أبدا ، أبدا . هأنا أظفر أخيرا يا دكتور : انك لا تفهمنى .
وقلت بعد لحظة من صمت :

ــ ويؤسفنى ذلك ... اننى لا أبوح أبدا بأسرارى ، بل أحب كثيرا أن تحزر حزرا ، حتى أستطيع أن أنفيها متى أردت . ولكن يجب ان تصف لى الأم وابنتها ، وأن تقول لى من هما .
ــ الأم اولا : هى امرأة فى الخامســة والأربعين من عمرها ، جيدة

المعدة ، ولكنها فاسدة الدم ، على خديها بقع حمراء . قضت فى موسكو النصف الثانى من عمرها ، فسمنت هناك من قلة العمل وترهلت . وهى تحب الحكايات البذيئة ، وقد تقول هى نفسها أشياء جريئة ، حين لا تكون ابنتها هناك . لقد قالت لى ان ابنتها بريئة كحمامة . وما شأنى أنا فى هذا ؟ وددت لو أجيبها : « اطمئنى بالا ، فلن أقول هـذا لأحد » . الأم تستشفى من الروماتزم ، والبنت الله أعلم بما تستشفى منه ! ولقد نصحت لهما بأن تشرب كل منهما كأسين من الماء الكبريتى فى اليوم ، وأن تستحما بالماء المعدنى مرتين فى الاسبوع . ويظهر أن الأم لم تتعود الأمر والنهى ، وهى تفيض احتراما لذكاء ابنتها ، ولثقافة ابنتها ، التى قرأت بايرون بالانجليزية كما أنها تعرف الجبر . يظهر أن الفتيـات ، بموسكو ، اندفعن فى ميدان العلوم ، يمينا انهن ليحسن صنعا ! فالرجال ، هنا ، على وجه العموم ، ليسوا على حظ وافر من الظرف ، ولاشك ان المرأة الذكية لا تطيق أن تلهو معهم . والأم تحب الشباب كثيرا ، أما ابنتها فتنظر اليهم فى شىء من الاحتقار : تلك عادة من موسكو . هناك لا يستملحن الا العقول الذكية ذات الأربعين عاما .

ــ هل كنت بموسكو يا دكتور ؟ ..

ــ نعم ... كان لى فيها زبائن .

ــ كمل ..

ــ اعتقد اننى قلت لك كل شىء .. ها ! نسيت : يبدو أن الصبية تحب حديث العاطفة والهوى وما الى ذلك . ولقد قضت شتاء ببطرسبرج ، فلم تسر فيها ولا سيما فى مجتمع الأكابر : يظهر ان الناس استقبلوها هناك استقبالا باردا .

ــ ألم تر عندهما اليوم أحدا ؟

ــ بلى .. كان عندهما شخص من الحاشية ، وضابط من الحرس شديد التبهرج ، وسيدة وصلت منذ قريب ، تمت الى الأميرة بقرابة من ناحية زوجها ، سيدة جميلة جدا ، ولكنها تعانى مرضا شديدا فيما يبدو ... ألم تلقها عند البئر ؟ انها شقراء ، متوسطة طول القامة ، متسقة القسمات ، شاحبة اللون كالمصدورين ، وعلى خدها الأيمن شامة سوداء . لقدخطف وجهها بصرى، فانه معبر جدا فدمدمت بينى وبين نفسى :

ــ على خدها شامة ؟ أهذا ممكن ؟

فنظر الى الدكتور، وقال مفخما كلامه ، وهو يضع يده على قلبى :
ــ انت تعرفها !
هذا صحيح ، ولقد اشتدت خفقات قلبى .
قلت له :
ــ انت الآن المنتصر ، ولكننى أعتمد عليك ، لا تفضحنى . اننى ما رأيتها بعد ، ولكننى أبصر فى هذه الأوصاف ، يقينا ، وجه امرأة أحببتها منذ زمن بعيد . فلا تأت على ذكرى بكلمة ، واذا سألتك فحدثها عنى بسوء .

فقال فرنر وهو يهز كتفيه :
ــ لك ما تريد .

فلما ذهب الدكتور شعرت بحزن شديد يقبض صدرى . أهى الصدفة تجمعنا مرة أخرى فى القفقاس ، أم انها تعمدت أن تجىء الى هنا ليقينها بأنها ستلقانى ؟ وما عسى أن يكون لقاؤنا ؟ ولكن ، اولا ، اهى هى حقا ؟ اننى ما اخطأت يوما فيما اوجس من مشاعر! ما من رجل يسيطر عليه الماضى كما يسيطر على . فان ذكرى الحزن او الفرح لتترجع فى نفسى ترجعا أليما ، وتخرج منها دائما نفس الأصوات .. هكذا شاءت الأقدار أن اكون . لا أنسى شيئا ، لا أنسى شيئا .

بعد الغداء ، فى نحو الساعة السادسة ، ذهبت الى الشارع الكبير . كان الشارع يغص بالناس ، وكانت الأميرة وابنتها جالستين على أحد المقاعد ، وكان الشباب يحومون حولهما ، فاتخذت لى مكانا على مقعد آخر يبعد قليلا عن ذلك المقعد . واستوقفت ضابطين اعرفهما من د... وأخذت اقص عليهما حكاية... ويظهر ان الحكاية كانت هزلية كثيرا ، فلقد أخذا يضحكان كالمجانين . واجتذب حب الاستطلاع الى حلقتنا بعض من كانوا يحيطون بالأميرة . وشيئا فشيئا هجرها الجميع وانضموا الينا . لم ينضب معينى . كانت حكاياتى فكهة الى درجة الهذيان ، وكان تندرى على من يمر أمامنا من أشخاص متفردين خبيثا الى حد الجنون ... وظللت أفكه جمهورى وابهجه الى أن غابت الشمس . وقد مرت الأميرة الصغيرة من أمامى عدة مرات ، وهى تمسك بيد أمها ، يصحبهما عجوز قصير اعرج . وكان بصرها حين يقع على فى كل مرة يعبر عن الغيظ ، وان حاولت أن تظهر بمظهر من لايبالى .

وسألت شابا عاد اليها على سبيل الأدب :

ـ ماذا كان يقص لـكم ؟ لاشك أن حديثه كان شائقا ؟ لعله كان يحدثكم عن مآثره فى الحرب ؟

قالت ذلك بصوت عال ، وربما كانت تنوى أن تغمز من قناتى . قلت فى نفسى : « هاها ... ها انت تغضبين اذن أيتها الأميرة العزيزة ... انتظرى ، فلسوف ترين ما هو أدهى من ذلك » .

وكان جروشنيتسكى يتبعها كحيوان كاسر ، ولا يفارقها بنظره . اراهن على أنه سيطلب أن يقدمه أحد الى الأميرة غدا . وسيسرها ذلك كثيرا ، لأنها ضجرة .

١٦ ايار .

لقد تقدمت اعمالى خلال يومين تقدما هائلا . ان الأميرة الصغيرة حانقة على ، ما فى ذلك ريب . حتى لقـــد نمى الى أنها اغتابتنى مرتين أو ثلاث مرات ، بقدح لا يخلو من مرارة ، ولـكنه لا يخلو من كثير من مداراة . انها لتستغرب كثيرا كيف أن رجلا اختلف الى المجتمع الراقى ، وعرف بنات عمها وعماتها فى بطرسبرج ، لا يحاول أن يتعرف اليها . اننا نلتقى كل يوم عند البئر فى الشارع الـكبير . وأحاول بكل ما أوتيت من قوة أن انتزع منهـــا عبادها المعجبين بها ، وهم من ضباط الحاشية البارزين، ومن الموسكوبيين الشاحبين وغيرهم ، وكنت أظفر بذلك دائما على وجه التقريب . وانا امرؤ أكره أن أستقبل الناس فى بيتى ، ولكن بيتى يعج بهم الآن فى كل يوم ، يتغدون ويتعشون ويلعبون . ان الشمبانيا التى أقدمها لهم تنتصر على ما فى عينيها الجميلتين من قوة جاذبيـــة مغناطيسية !

لقيتها أمس فى مخزن تشيلاخوف ، تساوم على سجادة رائعة من سجاد العجم . كانت تضرع الى أمها أن لا تتباخل ، فان هـــذه السجادة ستكون جميلة جدا فى مخدعها !.. فزدت عليها أربعين روبلا ، واخذت السجادة . فكافأتنى على ذلك بنظرة يلتمع فيهـا حنق يفتن اللب . وتعمدت فى وقت الغداء أن أرسل حصـــانى الشركسى يتنزه تحت نوافذ بيتها ، وقد فرش ظهره بهذه السجادة. وقال لى فرنر ، الذى كان فى تلك اللحظة عندهما ، ان أثر ذلك فى نفسها كان أثرا دراميا شديدا . ان الأميرة الصغيرة تريد أن تؤلب جميع الناس على ، حتى لقـــد لاحظت على ضابطين من ضـــباط الحاشية انهما أوشكا أن لا يلقيا على التحية أثناء وجودها ، ولكن ذلك لا يمنعهما من المجىء الى بيتى للغداء كل يوم .

أما جروشنيتسكي فقد أصبحت حاله غريبة . انه يسير ، وقد وضع يديه خلف ظهره ، لا يعرف احـــدا ولا يلوى على شيء . وكأنما شفيت ساقه بسحر ، فهو الآن لا يكاد يعرج . وقد أتيح له أن يخاطب الأميرة الأم ، وأن يثني على ابنتها . ولا شك انها ترضي بالقليل ، ولا تلحف ، فها هي ذى ترد تحيته منـــذ ذلك الحين بابتسامة محببة لطيفة .

وسألني أمس :

ـ أأنت اذن تصر على أن لا تتعرف الى السيدتين ليجوفسكايا ؟

قلت :

ـ نعم .

قال :

ـ ولـكن بيتهما أمتع بيوت الميـــاه قاطبـــة ... ان الطبقة الراقية كلها هنا ...

ـ ياعزيزى ، هذه الطبقة الراقية تزعجني كثيرا .. هنا أو هناك . ولـكن هل تتردد أنت عليهما ؟

ـ لم أذهب اليهما بعد ، لقد تحدثت مع الأميرة الصغيرة مرتين أو ثلاث مرات ، ولكن المرء يخجل أن يفرض نفسه فى بيت ، رغم ان هذا مألوف هنا ... لو كان لى على الأقل شارات ضابط ...

ـ عفوا ، انك على ما أنت عليه أكثر لفتا للاهتمام . وكل ما فى الأمر انك لا تعرف الاستفادة من مزايا الظرف الذى أنت فيه ... ان معطف الجنود الذى ترتديه يجعلك فى نظر فتـــاة عاطفية بطلا وشهيدا .

فابتسم جروشنيتسكى ابتسامة الرضا ، وقال :

ـ دعك من هذا الـكلام ! ..

فأردفت أقول :

ـ انا واثق من ان الفتاة تحبك منذ الآن .

فاحمر حتى الأذنين ، وتجهم .

ايه أيها الغرور ، انت الرافعة التى كان يبحث عنها أرشميدس ليرفع العالم ! ..

قال جروشنيتسكى وهو يتصنع الزعل :

ـ انت تحيل كل شيء الى مزاح ... فالفتاة ، أولا ، لا تعرفنى الا قليلا جدا ..

ـ النساء لا يحببن الا من لا يعرفنه .

ـ ولكننى لا أطمع فى أن أعجبها . كل ما فى الأمر اننى أريد التعرف الى أسرة ممتعة ، ومن المضحك أن تداعبنى آمال أخرى... أما أنتم ، يا غزاة بطرسبرج ، فشأنكم شأن آخر ... يكفى أن تنظروا الى امرأة حتى تذوب فورا ... بالمناسبة ، هل تعرف أن الأميرة قد تحدثت عنك ؟

ـ كيف ؟ حدثتك عنى ؟

ـ ولكن ليس لك أن تسر بما قالته عنك . لقد بدأت معها حديثا بالقرب من البئر على سبيل المصادفة تماما . فما كدنا نتبادل ثلاث كلمات حتى سألتنى : « من ذلك السيد ذو النظرة القاسية المنفرة ؟ ... لقد كان معك حين ... » ثم احمرت فقد تذكرت بادرتها اللطيفة ، ولم تشأ أن توضح . قلت لها : « لا حاجة بك الى أن تعينى لى ذلك اليوم ، فستظل ذكراه منقوشة فى نفسى الى الأبد ... » يا عزيزى بتشورين ، لست أهنئك ، فانها ترى فيك رأيا سيئا ... وهذا مؤسف حقا ، لأن مارى فتاة لطيفة جدا...

وأحب أن ألفت نظركم الى أن جروشنيتسكى هو من أولئك الذين اذا تحدثوا عن امرأة لا يكادون يعرفونها ، قالوا : عزيزتى مارى ، أو عزيزتى صوفيا ، متى حظيت برضاهم عنها ، واعجابهم بها .

قلت بنبرة جادة :

ـ حقا لا بأس بها ... ولكن حذار ياجروشنيتسكى ! ان أكثر الفتيات الروسيات يفتذين بحب افلاطونى ، دون أن يربطن به فكرة الزواج . والحب الافلاطونى أشد انواع الحب قلقا . يلوح لى أن الأميرة هى من تلك النساء اللاتى يردن أن يتسلين ، فاذا ضجرت معك دقيقتين متعاقبتين ، ضعت الى الأبد ... صمتك يجب أن يثير استطلاعها ، وحديثك يجب أن لا يرويها تماما . يجب أن تجعلها دائما فى حالة تعلق . لسوف تخاصم من أجلك راى الناس جميعا عشر مرات ، لسوف تعد هذا تضحية منها فى سبيلك ، ولكنها سوف تأخذ فى تعذيبك جزاء لنفسها ، ثم اذا بها ، فى ذات صباح ، تقول لك بلا مراعاة انها أصبحت لا تطيقك . ان لم تتسلط عليها ، فان قبلتها الأولى نفسها لن تعطيك حقا فى قبلة ثانية . ستثيرك بقدر ما تستطيع من الاثارة ، ثم اذا بها ، بعد عام أو عامين ، تتزوج قردا أشوه اطاعة لأمها ، وتروح تندب حظها الشقى ، وتقول انها ما أحبت فى حياتها الا رجلا واحدا هو أنت .

ولـكن الأقدار لم تشأ أن تجمعها بذلك الرجـــل ، لأنه يرتدى معطف جندى ، رغم أن قلبا نبيلا فياضا بالحب يخفق تحت ذلك المعطف الغليظ الرمادى ..

فضرب جروشنيتسكي المنضدة بيده ، وأخذ يذهب ويجيء فى الغرفة .

وضحكت فى أعماق نفسى ، حتى لقد ابتسمت مرتين ، ولكنه ، لحسن الحظ ، لم يلاحظ ابتسامتى . واضح انه عاشق مدنف ، لأنه أصبح أكثر ثقة مما كان . ولاحظت انه يحمل خاتما من تلك الخواتم الفضية المنقوشة التى تصنع هنا . فاشتبهت فى أمر هـذا الخاتم ، فنظرت فيه ، فرأيت اسم مارى منقوشـا فى داخله بأحرف صغيرة ، والى جانب الاسم نقش تاريخ اليوم الذى ناولته فيه الكأس ! لم أقل شيئا . فاننى لا أحب أن أضطره اضطرارا الى البوح بكل شيء ، وانما أريد أن يتخذنى نجيا من تلقاء ذاته ، فعندئذ سأتفكه ! ..

... ...

استيقظت اليوم فى ساعة متأخرة من الصباح ، فلما وصلت الى البئر لم أجد هنالك أحدا . وكان الجو حارا . وغمامات صغيرة بيضاء ، شعثة ، تتراكض من الذرى التى يغطيها الثلج ، وتنذر بالعاصفة . وكان الدخان يتصاعد من قمة ماشوك كما يتصاعد من مشعل أطفىء . وهذه مزق من الغيوم تتموج وتزحف كالثعابين ، كأن الأدغال الشائكة هى التى تحبسـها عن المسير . كان الهواء مشحونا بالكهرباء ، فتسربت تحت عرائش الممر الذى يؤدى الى المغارة. كنت مكتئبا حزين النفس، أفكر فى المرأة التى على خدها شامة ، والتى حدثنى عنها الدكتور ... لماذا جاءت ؟ ولكن أهى هى حقا ؟ وما الذى جعلنى أعتقد انها هى ؟ ما الذى يجعلنى على يقين من ذلك ؟ ان كثيرا من النساء على خدودهن شامات ! .. وفيما أنا أفكر فى ذلك ، وصلت الى المغارة . كانت تجلس هنالك على مقعد من الحجر ، تحت القبة الظليلة الرطيبة ، امرأة تلبس قبعة من القش ، تتلفع بشال أسود ، وقد أحنت رأسها على صدرها . كانت قبعتها تخفى وجهها ، وكنت أهم أن أعود أدراجى ، حتى لا أعكر عليها أحلامها ، فاذا هى تنظر الى . فهتفت بالرغم منى :

ــ فيرا ! ..

فارتعشت ، ورأيت وجهها يمتقع ... وقالت :

ــ كنت أعرف انك هنا .

فجلست وتناولت يدها . ان اضطرابا نسيته منذ زمن بعيد ، سرى فى كيانى كله حين سمعت صوتها الحبيب . وأخذت عيناها العميقتان تنظران فى عينى . فقرأت فى نظراتها ارتيابا ، وشيئا يشبه أن يكون لوما . قلت :

ــ ما أطول هذه المدة التى لم أرك خلالها !

ــ نعم .. انها طويلة جدا ، وقد تغيرنا كلانا كثيرا .

ــ أى انك اصبحت لا تحبيننى ؟

ــ أنا متزوجة ! ..

ــ تزوجت مرة أخرى ؟ ولكن زواجك لم يكن يمنعنا من شىء منذ بضع سنين ! ..

فسلت يدها من يدى ، واحمر وجهها احمرارا شديدا .

ــ لعلك تحبين زوجك الثانى ؟

فلم تجب عن سؤالي ، وأشاحت بوجهها عنى .

ــ لعله شديد الغيرة ؟

وظلت صامتة .

ــ فماذا اذن ؟ لعله شاب ، لعله جميل ، لعله غنى جدا ، وأنت تخشين ...

ونظرت اليها ، فارتعدت خوفا . كان وجهها يعبر عن يأس عميق ... وكانت الدموع تترقرق فى عينيها ، تمتمت تقول :

ــ يلذ لك اذن أن تعذبنى ؟ كان ينبغى أن أكرهك منذ عرفتك ، لأنك لم تهب لى غير الشقاء ...

كان صوتها يرتعش ، ثم انحنت على ، وأسندت رأسها الى صدرى .

قلت أخاطبها بينى وبين نفسى : « لعلك من أجل هذا بعينه أحببتنى ، لأن الأفراح تنسى ، أما الاتراح فلا تنسى مدى الحياة »

وشددتها بين ذراعى شدا قويا ، وظللنا هكذا مدة طويلة ، ثم تقاربت شفتانا واتحدتا فى قبلة طويلة مسكرة . كانت يداها باردتين كالثلج ، وكان جبينها يحترق احتراقا . ودار بيننا عندئذ حديث من تلك الأحاديث التى اذا سجلت على الورق لم يبق لها معنى ، من تلك الأحاديث التى لا يمكن تكرارها بل ويتعذر تذكرها ، ذلك لأن ما يعبر عنه الصوت يغنى عما يقوله اللسان ويكمله ، كما فى أوبرا ايطالية .

انهـــا تصر اصرارا جـــازما على ألا أتعرف الى زوجها ، العجوز القصير الاعرج الذى لمحته فى الشرع الكبير • لقد تزوجته من أجل ابنها . فهو غنى ومصاب بالروماتيزم ... ولم ابح لنفسى اى مزاح فى حقه ، لأنها تحترمه كما تحترم ابنة أباها ، ولكنها تخونه زوجا. ما أعجب قلب الانسان ، لاسيما اذا كان قلب امرأة ! ..

ان زوج فيرا ، واسمه سميون فاسيليفنش ، يمت الى الاميرة ليجوفسكايا بقرابة بعيدة ، وبيتاهما متلاصقان ، فكثيرا ما تذهب فيرا الى الأميرتين . وقـــد وعدتها بأن أتعرف الى الســـيدتين ليجوفسكايا ، وأن ألاطف الفتاة لكى يحسبوا أن الهوى حيث انظر. وهكذا لم يتغير فى خططى شىء ، وسوف اتسلى ! ..

أتسلى ! .. نعم ! لقـــد تجاوزت من الحياة تلك المرحلة التى لا تسعى فيها النفس الى غير السعادة ، والتى يشعر فيها القلب بحاجة الى حب قوى جامح . ان كل ما ارغب فيه الآن هو أن اكون محبوبا ، وان لا يحبنى الا بضع نساء ! بل اننى لأشعر أن تعلقا دائما يمكن أن يكفينى : ما أبأسها للقلب من عادة ! ..

ثمة شىء ادهشنى دائما ، هو اننى لم أكن فى يوم من الأيام عبدا للنساء اللاتى أحببتهن . بالعكس ، كنت اسيطر على ارادتهن وعلى قلوبهن سيطرة لا سبيل لهن الى دفعها ، دون أن أفعل من أجل ذلك شيئا . أيرجع هذا الى اننى لا أحرص على اى شىء حرصا عميقا ، والى أنهن يخشين فى كل لحظة أن أفلت منهن ؟.. أيرجع الى أن جسمى قوى ذو تأثير مغناطيسى ؟ أم يرجع ، بكل بساطة ، الى أننى لم ألق امرأة ذات ارادة ؟ ..

يجب أن أعترف ، من جهة أخرى ، اننى لا أحب النســـاء اللاتى يملكن طبعا قويا ... وهل على النساء أن يملكن طبعا قويا ؟

على اننى اتذكر الآن اننى احببت مرة ، مرة واحدة ، امرأة قوية عنيفة ، لم استطع أن أنتصر عليها ، فافترقنا عدوين ... وأغلب ظنى اننا لو تعارفنا بعد ذلك الوقت بخمس سنين ، اذن لــكان يمكن أن نفترق على غير هذه الصورة ...

ان فيرا مريضة ، مريضة جدا ، رغم أنها لا تريد الاعتراف بذلك. أخشى أن تكون مصابة بالسل ، او بهذا المرض الذى يسمونه * fievre lente وهو مرض ليس روسيا أبدا ، وليس له فى لغتنا اسم يسمى به .

* الحمى المضنية .

وحبستنا العاصفة التى هبت أثناء وجودنا فى المغارة ، نصف ساعة ايضا . لم تطلب غيرا أن أعاهدها على الوفاء ، ولا سألتنى هل أحببت غيرها منذ افترقنا ... بل عاد اطمئنانها الى ، كسابق عهدها . ولن أخونها... انها المراة الوحيدة التى أعجز عن خيانتها. أعرف اننا سنفترق مرة أخرى ؛ وان هذا الفراق قريب ، وقد يكون فراقا لا لقاء بعده ... وعندئذ يسير كل منا فى طريق غير طريق صاحبه ، الى أن نموت ، ولكن ذكراها ستظل منقوشة فى قلبى : قلت لها ذلك غير مرة ، وهى تصدقنى ، رغم انها تدعى خلاف ذلك .

وافترقنا أخيرا ، وتابعتها بنظراتى طويلا ، الى أن غابت قبعتها بين الأدغال والصخور . وانقبض صدرى انقباضا أليما ، كانقباضه يوم انفصلنا أول مره . آه ، كم سعدت بهذا الشعور !... أتراه الشباب يريد أن يعود الى بعواصفه المتعة ؟ أم هى نظرة الوداع يلقيها على آخر هدية يريد أن يبقيها لى ذكرى ؟ .. انه ليضحكنى أن أتصور أننى لو رآنى أحد لحسب أننى ما أزال شابا فى ميعة الصبا ! ان وجهى لا يزال نضرا على شحوبه ، وأعضائى مرنه متناسبة ، وهذه غدائر كثة تحف بجبينى ... عيناى تلتمعان ؛ ودمى يغلى ...

فلما عدت الى منزلى امتطيت صهوة جوادى ، ومضيت أعدو فى السهوب ، احب أن أرانى على ظهر حصان قوى البأس ، بين الأعشاب العالية فى ريح السهول ! اننى لأتنسم الهواء المعطر بشراهة ، واغرق بصرى فى الأفق البعيد الأزرق ، محاولا أن أميز حواشى الأشياء ، وهى غامضة لم تتضح لحظة بعد لحظة . مهما تكن المرارة التى تثوى فى قلبى ، ومهما يكن الغم الذى يرهق فكرى ، فان هذا كله يتبدد عندئذ فى لحظة ، ويهدأ قلبى : ان تعب الجسم ينتصر على قلق النفس . لا ، ما من نظرة امرأة الا واستطيع أن أنساها ، حين أسرح طرفى فى الجبال المشبوكة تضيئها اشعة الظهيرة ، أو حين أتأمل السماء الزرقاء ، أو حين أسمع السيل يتدحرج من صخرة الى صخرة هادرا صاخبا .

لاشك ان القوزاق الذين يتثاءبون وهم فى ابراجهم يراقبون ، قد تصدعت رءوسهم طويلا ، وهم يروننى أعدو بلا سبب ولا هدف ، اذ لاريب أنهم ظنونى من لباسى شركسيا . وكثيرا ما قيل لى ، فى الواقع ، اننى حين أكون على صهوة جوادى بلباس

الشراكسة أبدو كاباردينا أكثر من الكاباردينين أنفسهم . ويجب أن أعترف أنني فى كل ما يتصل بهذا اللباس الحربى النبيل . شخص أنيق جدا : ما من شريطة زائدة ، والأسلحة ثمينة ذات زخارف جد بسيطة ، وفروة القلبق ما هى بالطويلة ولا هى بالقصيرة ، والجورب الجلدى ، والحذاء متناسبان كل التناسب ، وجلباب أبيض ، وقفطان بنى . ولقد درست طويلا طريقة الجبليين فى الفروسية ، ولا يفرح قلبى لشىء كما يفرح للثناء على براعتى فى امتطاء صهوة الحصان كالقفقاسيين . أننى أملك أربعة أحصنة ، احدها لى أنا ، والثلاثة الباقية لأصدقائى ، حتى لا ينتابنى الضجر وأنا أعدو فى الحقول وحدى . وأصدقائى يركبون خيلى مسرورين ، ولكنهم لايرافقوننى أبدا . كانت الساعة قد بلغت السادسة حين تذكرت أن أوان الغداء قد أزف . وكان حصانى مكدودا ، فسرت فى الطريق التى تمضى من بياتيجورسك الى المستعمرة الألمانية التى كثيرا ما يذهب اليها مجتمع المياه فى نزهات التسلية . ان الطريق تتلوى وسط الأدغال ، وتهبط أحيانا الى وديان صغيرة تجرى فيها السواقى مفردة فى ظل الأعشاب الطويلة. والجبال الزرقاء ، جبال بشتو ، وزميينايا ، وجيليزنايا ، وليسايا ، تنتصب فى الأفق البعيد صاعدة على درجات . فلما قطعت واديا من تلك الوديان (يسميه سكان المنطقة بالكا) ، وقفت ليرد حصانى الماء ، فلاحت لى جماعة زاهية من الفرسان تتنزه فى الطريق ، وتحدث جلبة كبيرة ، فأما السيدات فيرتدين أثواب الفارسات سوداء وزرقاء ، وأما الرجال فيرتدون مزيجا من لباس الشراكسة ولباس الروس . رأيت جروشنيتسكى فى طليعة الركب مع مارى .

ان السيدات اللاتى يفدن الى المياه ما زلن يعتقدن أن للشراكسة هجمات فى وضح النهار، وربما كانذلك هو الذى دفعجروشنيتسكى الى أن يحمل فوقمعطف الجندى الذى يرتديه ، سيفا ومسدسين، لقد كان منظره مضحكا بهذا الزى البطولى العجيب . كان يخفينى عن أعينهما دغل كبير ، ولكننى كنت أراهما من خلال الأوراق ، وأدركت من تعبير وجهيهما أن الحديث عاطفى . ووصلا أخيرا الى المنحدر ، فأمسك جروشنيتسكى بزمام حصان الأميرة ، وسمعت نهاية حديثهما . قالت الأميرة :

— وهل تريد أن تقضى حياتك كلها فى القفقاس ؟

فأجاب الفارس :
ـ ما لى ولروسيا ؟ روسيا بلد يعتقد فيه ألوف الناس أن من حقهم أن يحتقرونى ، لأنهم أغنى منى .. أما هنا ، فان هـذا المعطف الغليظ لم يحل بينى وبين التعرف اليك ...
قالت وقد احمر وجهها :
ـ بالعكس .
فارتسمت علامات الرضا على وجه جروشنيتسكى، وأردف يقول :
ـ هنا ، تحت رصاص المتوحشين ، ستنقضى حياتى مضطربة سريعة ، دون أن أشعر بها ... واذا ارادت مشيئة الله أن ترسل الى فى كل عام نظرة مشرقة من عينى امرأة ، نظرة مثل نظرة...
وكانا قد وصلا الى حيث كنت ، فلكزت حصانى ، وخرجت من بين الأدغال ... فصاحت الأميرة مذعورة :
— Mon dieu, un circassien !... *
فأجبتها بالفرنسية ، كى أبرر خطـأ ظنها :
— Ne craignez rien, madame, — je ne suis pas plus dangereux que votre cavalier **
قلت ذلك وأنا أنحنى لها قليلا . فظهرت على وجههـا علامات الاضطراب . ترى ألأنها اخطـأت الظن ، أم لأنهـا عدت جوابى وقحا ؟ أود لو يكون الافتراض الثانى هو الصحيح . وألقى على جروشنيتسكى نظرة استياء .
فى ساعة متأخرة من المساء ، فى نحو الساعة الحادية عشرة ، ذهبت أتنزه تحت زيزفونات الشارع الكبير . كانت المدينة نائمة ، وليس ثمة الا بضع نوافذ لا تزال تضىء . ومن جهات ثلاث تتراءى الذرى السوداء من سلاسل الجبال التى تلاصق جبل ماشوك الذى انتشرت على قمته سحابة تنذر بشر. وكان القمر يطلع من الشرق ، وفى الأفق البعيد يلتمع الهدب الفضى من الجبـال التى تغطيهـا الثلوج . وكانت أصوات الخفراء تمتزج بخرير الينابيع الحارة التى تفتح فى الليل . ومن حين الى حين ، يسمع صوت حوافر حصان على أرض الشارع ، يصحبه صرير عربة أو غناء تترى حزين . وجلست على احد المقاعد ، واستغرقت فى أفكارى ... انى لأشعر بحاجة قوية الى الافضاء بما فى نفسى الى أحد ... ولكن الى من أفضى بما فى نفسى ؟ وذكرت فيرا ... ترى ماذا تصـنع ؟ ليتنى

---

* يا آلهى ، شركسى !..
** لا تخافى يا سيدتى ، فلست اخطر من فارسك .

استطيع ان أشد على يدها الآن بيدى .

وفجاة سمعت وقع خطوات سريعة متفاوتة . لابد انه جروشنيتسكى . حقا انه هو !

ـ من اين تأتى ؟

ـ من عند الأميرة ليجوفسكايا .

قال ذلك بنبرة فخورة . ثم اردف :

ـ ليتك سمعت مارى تغنى ! ..

ـ هل تريد أن اقول لك ؟ انى لأراهن على انها لا تعرف انك جندى ، بل تحسب أنك ضابط جرد من رتبته ... فأجابنى ذاهلا :

ـ هذا ممكن ... ولكن فيم يهمنى ؟

ـ عفوا . لقد قلت ذلك كما يمكن أن أقول شيئا آخر ...

ـ ولكن هل تعلم انها حانقة عليك أشد الحنق ؟ لقد رات انك على جانب من الوقاحة لا نظير له . وبذلت كل ما فى وسعى من جهد حتى اقنعها بأنك شخص مثقف وانك تعرف المجتمع الراقى ، فلا يعقل أن تكون قصدت الى اهانتها . فقالت ان نظرتك دعية ، وانك لا شك مغرور بنفسك .

ـ ليست على خطأ !.. ولكن يبدو لى أنك تريد أن تظاهرها ؟

ـ ليس لى حق فى ذلك بعد ، مع الأسف ...

قلت فى نفسى : « ان له اذن لأملا ... »

واردف جروشنيتسكى يقول :

ـ ياحسرتى عليك ! لن يسهل أن تتعرف اليهما بعد ذلك الحادث . هذه خسارة ! ان بيتهما لمن أمتع ما عرفت من بيوت .

فابتسمت بينى وبين نفسى .

ـ ما من بيت يبدو لى فى هذه اللحظة أمتع من بيتى .

قلت ذلك وأنا أتثاءب ، ونهضت لاذهب . قال :

ـ أعترف مع ذلك بأنك نادم ..

ـ هه !.. ولكننى أستطيع أن أذهب اليهما منذ مساء الغد ، ان أردت .

ـ سنرى !

ـ وسأبدأ بمغازلة الأميرة الصغيرة اكراما لك اذا شئت ...

ـ هذا اذا أصغت اليك !

ـ ما على الا أن انتظر اللحظة التى يضجرها فيها حديثك ... هيا ، هيا ، عم مساء !

ـ سأطوف قليلا ، فانه ليستحيل على أن انام !.. فاذا شئت ذهبنا الى المطعم نلعب ؟ انني الآن لفي حاجة الى احساسات قوية.
ـ أتمنى لك أن تخسر ! ..
قلت له ذلك ، وعدت الى بيتي .

٢١ ايار ٠

انقضى ما يقرب من اسبوع ، ولم أتعرف بعد الى السيدتين ليجوفسكايا . انني انتظر فرصة مناسبة . ان جروشنيتسكي يتبع الاميرة الصغيرة كظلها ، وهما يتحدثان أحاديث ما لها نهاية ٠ ترى متى يضجرها ؟ ان الأم لا تلقي الى ذلك بالا ولا تحاذر ، لأن الرجل ليس بالذي تريده لابنتها بعلا . هكذا منطق الأمهات ! لقد فاجأت الصبية تلقي على جروشنيتسكي نظرة عاطفية ، مرتين أو ثلاث مرات ... يجب أن يوضع حد لهذا !

أمس جاءت فيرا الى البئر ، لاول مرة ٠٠ لم تخرج منذ اليوم الذي التقينا فيه بالمغارة ، اغطسنا قدحينا معا ، فانحنت على وهمست بي :
ـ ألا تريد أن تتعرف الى الاميرتين ليجوفسكايا ؟ ان بيتهما هو المكان الوحيد الذي يمكن ان نلتقي فيه ...
هذا عتاب ! .. هذا شيء مضجر ... ولكنني استحقه ...
بالمناسبة : غدا تقام في قاعة المطعم حفلة راقصة بالاكتتاب ، سأرقص مع الأميرة رقصة المازوركا .

٢٢ ايار .

اجتمعت الطبقة الراقية في بهو المطعم ، فما ازفت الساعة التاسعة حتى كانوا جميعا هناك . لقد وصلت الأميرة وابنتها مع آخر من وصلوا ٠ وكان كثير من السيدات ينظرن اليها نظرة حسد وعداوة ، لان ماري كانت أنيقة كل الاناقة ٠ واللاتي يعددن أنفسهن من الطبقة الأرستقراطية ، أخفين حسدهن ، فاقتربن منها. هل يمكن أن لا يقع هذا ؟ متى اجتمعت النساء تكونت على الفور حلقة عليا وحلقة دنيا ! وكان جروشنيتسكي بين الجمهور على مقربة من النافذة ، قد الصق وجهه بزجاجها ، واخذ يتأمل معبودته لا يفارقها بصره لحظة . ولقد القت عليه الأميرة ، وهي تمر ، تحية لا تكاد تلاحظ ، فأشرق وجهه كالشمس ... وبدأ الرقص برقصة بولونية ٠٠ ثم عزفت الجوقة الفالس ، فأخذت المهاميز ترن ، وأخذت ذيول الثياب ترفرف وتدور .

كنت وراء سيدة سمينة غارقة فى ريش وردى اللون ، ذكرنى فستانها بعهد زى السلال ، وذكرتنى برقشة جلدها المحبب بذلك العصر الجميل ، عصر الحرير الاسود المذبوب ، وكان فى رقبتها ؤلول كبير أخفته تحت قفل عقدها . وسمعتها تقول لفارسها ، وهو رئيس خيال :

ــ ان هذه الصغيرة ليجوفسكايا طفــلة لا تطاق ! تصــور انها اصطدمت بى ولم تقدم الى اعتذارها ، واكثر من ذلك انها التفتت وحدقت الى بنظارتها التى فى يدها ... * C'est impayable !... بم تعتز هذا الاعتزاز كله ؟ انها فى حاجة الى درس قاس .

فأجابها الرئيس المهذب :

ــ ستعطى درسا !

ومضى الى الحجرة المجاورة .

فاقتربت من الأميرة الشابة فورا . ودعوتها الى رقصة فالس ، مستفيدا من هذه العادة المــألوفة هنا ، وهى أن يستطيع الرجل مراقصة سيدات لا يعرفهن . لم تكد تستطيع أن تكبح ابتسامتها وأن تخفى فرح انتصارها . ولكنها سرعان ما اصطنعت عدم المبالاة بل والقسوة ، فأسبلت يدها على كتفى باهمال ، وعطفت رأســها قليلا الى جانب ، وأخذنا ندور . لا أعرف قدا الذ من هذا القد ولا ألدن ! كانت أنفاســـها الطرية تهب على وجهى خفيفة ... وأحيانا تنزلق على خدى الملتهب غديرة من غدائرها انفصلت عن اخواتها فى زوبعة الفالس ... درنا حول الحلبة ثلاث مرات (انها تجيد الفالس اجادة رائعة) ، وأخذ منهـــا التعب كل مأخـــذ ، واضطربت عيناها ، ولم تكد تستطيع شفتاها المنفتحتان قليلا أن تقولا : ** «Merci, monsieur» ، وهو شكر لابد منه .

قلت لها بعد بضع لحظات من صمت ، وأنا أتصنع غاية الخضوع والضراعة :

ــ بلغنى ، أيتها الأميرة ، انك من سوء حظى غير راضية عنى ، رغم أنك لا تعرفيننى ... وأنك ترييننى سفيها وقحا ... فهل هذا صحيح ؟

فأجابت ، وهى تقلب شفتها قليلا عن سخر (يجب أن أذكر ان هذه الحركة تنسجم كثيرا مع وجهها القلب) :

---

* آن هذا مضحك !..

** شكرا يا سيدى .

ـ وهل تريد أن تبقيني على رأيي هذا ؟
ـ لئن تجاسرت فأسأت اليك ، فاسمحي لي الآن بجسارة أكبر ، هي أن أتوسل اليك طالبا عفوك ومغفرتك . يمينا أن غاية ما أصبو اليه واطمع فيه ، ان أبرهن لك على أنك أخطأت الظن بي .
ـ سيصعب عليك هذا كثيرا ...
ـ لماذا ؟ ..
ـ لأنك لا تأتي الينا ، وحفلة كهذه لن تتكرر كثيرا .
قلت في نفسي : « معنى هذا ان بابهما موصد عني الى الابد » .
وقلت لها في شيء من الحسرة :
ـ الا تعرفين أيتها الأميرة أن المجرم التائب يجب أن لايصد ، والا تضاعف اجرامه ، وعندئذ ...
هنا سمعت قهقهات وهمسات فاضطررت أن أقطع جملتي وان التفت الى وراء . فرأيت رهطا من الرجال قد وقفوا على مسافة بضع خطوات مني ، وبينهم الرئيس الخيال الذي يبيت لأميرتي الصغيرة نية الشر والعداوة . كان يبدو سعيدا جدا ، وهو يفرك يديه ، ويتبادل الغمزات مع رفاقه . وفجأة خرج من الرهط رجل يرتدي لباس السهرة ، وله شاربان طويلان وقد التمع وجهــه بعلامات السكر ، اتجه نحو الاميرة بخطا مترنحة ، حتى اذا وقف أمامها ، وقد اضطربت هي من ذلك أشد الاضطراب ، شبك يديه وراء ظهره ، وحدق اليهــا بعينيه الرماديتين المشوشتين ، وقال بصوت أبح :
ـ هل تسمحين ... ولكن لم هــذه الكلفة كلها ؟ ببساطة ، احجزك لرقصة مازوركا ...
فقالت بصوت مضطرب ، وهي تلقي حولها نظرة توسل :
ـ ماذا تريد مني ؟
ومن سوء الحظ أن أمها كانت بعيدة ، ولم يكن ثمة أي رجل ممن تعرفهم ، الا واحدا من ضباط الحاشية ، رأى كل شيء فيما أعتقد ، ولكنه اختبأ بين الجمهور ، حتى لا يتدخل في الأمر .
قال السيد السكران وهو يغمز الضابط الخيال الذي كان يشجعه بحركة من رأسه :
ـ ماذا ؟ لا تريدين ؟ أكرر ما قلت : لي الشرف أن أطلبك... * Pourmazure لعلك تظنين انني سـكران ؟ لا بأس ... السكر

* لرقصة مازوركا .

يزيدني براعة فى الرقص ، أستطيع أن أؤكد لك ذلك جازما ...
رأيت أنها تكاد يغمى عليها من شدة الرعب والاستياء .
فسرت الى السيد السكران ، وقبضت على ذراعه فى خشونة ، وحدقت الى بياض عينيه ، وطلبت اليه ان ينسحب ، مضيفا الى ذلك ان الأميرة وعدتنى بأن تراقصنى المازوركا منذ مدة طويلة .
فقال وهو يضحك بضجة :
ـ اذن لا سبيل ... فى مرة أخرى ...
قال ذلك ، ومضى يلتحق برفاقه الذين شعروا بخـــزى شديد ، وقادوه حالا الى حجرة أخرى .
كافأتنى الأميرة على ذلك بنظرة عميقة ، نظرة لا تنسى . ومضت الى أمها ، تقص عليها كل شىء ، فبحثت الأم عنى حتى وجدتنى ، فشكرتنى ، وقالت : انها تعرف أمى ، وانها صـــديقة نصف « دزينة » من عماتى وخالاتى ، وأضافت الى ذلك :
ـ كيف لم نتعارف الى الآن ؟ أعترف ان الذنب ذنبك . انت تتهرب من جميع الناس . ما هذا ؟ آمل أن يستطيع هواء صالونى تبديد سأمك ، أليس هذا صحيحا ؟
فسقت اليها عبارة من تلك العبارات الفصيحة التى يجب أن يحفظها المرء عن ظهر قلب لمناسبة كهذه المناسبة .
وطال رقص الكادريل ثم طال الى غير نهاية .
وأخيرا انفجر الأوركستر يعزف المازوركا ، فى الرواق . فجلسنا أنا والأميرة .
لم ألمح مرة واحدة الى حادثة السيد السكران ، ولا الى سلوكى السابق ، ولا الى جروشنيتسكى . وكان الانزعاج الذى أحدثه فيها ذلك الحادث الكريه قد ذهب شيئا فشيئا ، فاسترد وجهها تورده ، وأخذت تمزح فى كثير من الظرف ، وكان حديثهـــا فكها دون أن تقصد الى الفكاهة ، وكان كلامها حيا طلقا رشيقا ، وكانت ملاحظاتها فى بعض الاحيان عميقة .. وألمحت بعبارة مضطربة ملتبسة الى اننى معجب بها منذ زمان طويل ، فأحنت رأسها واحمرت قليلا .
ثم قالت وهى تحمل نفسها على الضحك حملا ، وترفع نحوى عينيها المخمليتين :
ـ أنت رجل غريب !
واستأنفت كلامى أقول :
ـ ولئن لم أشأ أن أتعرف اليك ، فلأنك محاطة بجمهور كبير من المعجبين ، كنت أخشى أن أضيع بينهم تماما .

ـ أنت مخطىء ! .. انهم جميعا مملون .
ـ جميعا ، هل هذا ممكن ؟
فحدقت الى ، كأنها تحاول أن تتذكر ، واصطبغ وجهها مرة اخرى بحمرة خفيفة ، وقالت أخيرا بلهجة جازمة :
ـ نعم ، جميعا !
ـ وحتى صديقى جروشنيتسكى ؟
فهتفت تقول فى لهجة الشك :
ـ أهو صديقك ؟
ـ نعم ، هو صديقى .
ـ لا ، طبعا ، هو لا يدخل فى عداد المملين ...
فقلت ضاحكا :
ـ اذن يدخل فى عداد البؤساء ؟
ـ وهل تجد فى هذا ما يضحك ؟ ليتنى أراك فى مكانه ! ..
ـ لقد كنت جنديا أنا أيضا .. وأؤكد لك أن تلك الفترة كانت اجمل أيام حياتى !
قالت فى حرارة :
ـ اهو اذن جندى !
ثم اردفت تقول :
ـ كنت أظن ..
ـ ماذا كنت تظنين ؟ ..
ـ لا شىء ، لا شىء ... ترى من هذه السيدة ؟ ..
ودار الحديث فى اتجاه آخر ، ثم لم نعد الى ذلك الموضوع .
وانتهت رقصة المازوركا ، فافترقنا على كلمة : الى اللقاء ... وانصرفت السيدات ... فذهبت أتناول طعام العشاء ، ولقيت فرنر .. قال لى فرنر :
ـ ها ها ! .. لقد قبضت عليك متلبسا بالجرم ، يا من قلت انك لا تريد أن تتعرف الى الأميرة الا بانقاذها من موت محقق .
قلت :
ـ فعلت ما هو خير من ذلك .. أنقذتها من اغماء فى قلب حلبة الرقص .
ـ كيف وقع ذلك ؟ قص على !
ـ بل حزره ، يا من تحزر كل شىء فى الدنيا !

٢٣ آيار .

فى الساعة السابعة من المساء ذهبت أتنزه فى الشارع الكبير ،

فرآنى جروشنيتسكى من بعيد . فجاء الى . كانت تلتمع فى عينيه حماسة مضحكة ، فصافحنى بقوة ، وقال بصوت تراجيدى :
ـ شكرا بتشورين ... هل تفهمنى ؟
ـ لا ٠٠ ثم انى لا اتذكر ان ما صنعت يستحق أن أشكر عليه ٠
ـ كيف ! امس ؟ هل نسيت ؟ لقد قصت على مارى كل شىء .
ـ ها ، نعم ! ولكن هل أصبح كل شىء بينكما مشتركا ؟ حتى العرفان بالجميل ؟
فقال جروشنيتسكى بلهجة الجد :
ـ اسمع ! لا تسخر من حبى اذا أردت أن تظل صديقى . انت ترى اننى أحبها الى حد الجنون ... وأعتقد ... أرجو أنها تحبنى ايضا . لى رجاء أتوجه به اليك . ستذهب اليهما هذا المساء ، وعدنى بأن تلاحظ كل شىء . ان لك خبرة فى هذه الأمور ، وانت تعرف النساء أكثر منى ... آه من النساء ، آه من النساء ! من ذا الذى يستطيع أن يفهمهن ؟ بسماتهن تكذب نظراتهن ، وكلامهن يعد ويجذب ، ونبرة صوتهن تبعد وتصد ... تارة يفهمن كل ما دق من خطرات فكرنا ، وتارة يعجزن عن فهم أوضح الايماءات... هذه مارى مثلا : أمس كانت عيناها تلتمعان بهوى عنيف وهى تنظر الى ، واليوم أراهما كابيتين باردتين ...

قلت : لعل هذا من تأثير المياه .
قال :
ـ أوه ٠٠ انت ترى الامور دائما من جانبها الدميم ٠٠ ثم أضاف فى احتقار :
ـ اذهب فأنت مادى ... ولكن فلنغير مادة الحديث ... وسر كثيرا بهذا التلاعب فى الألفاظ ، وأصبح أكثر مرحا .

وفى الساعة الثامنة ذهبنا الى بيت الأميرة معا ، فلما مررنا تحت نوافذ فيرا رأيتها تطل من احداها ، فتبادلنا نظرة سريعة ، ثم اذا بها تصل الى صالون السيدة ليجوفسكايا بعدنا بقليل. فقدمتنى اليها الأميرة الأم على أنها قريبتها . فتناولنا الشاى ، وكان هناك عدد كبير من الناس ، وكان الحديث عاما . وقد حرصت على أن احظى باعجاب السيدة ليجوفسكايا ، فكنت أمزح ، حتى أضحكتها ضحكا يخرج من صميم القلب عدة مرات . وكانت ابنتها تود لو تضحك ، ولكنها كانت تكظم ضحكها حتى لا تخرج عن الدور الذى اصطنعته ، فلقد كانت ترى أن السآمة تليق بجمالها ، ولعلها على

حق . وسر جروشنيتسكى جدا أن مرحى لم يكتسبها .
وبعد تناول الشاى ذهبنا الى الصالة .
قلت لفيرا ، وأنا أمر الى جانبها :
ـ أأنت راضية عن طاعتى يا فيرا ؟
فألقت على نظرة تفيض حبا وشكرا . اننى متعود على هذه النظرات ، ومع ذلك فما أكثر ما كانت تبث فى نفسى من سعادة !
واجلست الأميرة ابنتها الى البيانو ، ورجاها الناس أن تغنى . ولم انبس أنا بكلمة واحدة ، بل انتهزت الفرصة ، وانسللت الى قرب النافذة مع فيرا التى كانت تريد أن تفضى الى بشىء خطير يهمنا كلينا ... ترهة من الترهات !
واحنق عدم اكتراثى هذا .. الاميرة كثيرا ، كما لاحظت ذلك فى نظرة ساخطة من عينيها اللامعتين . آه كم أفهمها هذه اللغة ، هذه اللغة الخرساء ، ولكنها معبرة ، وهى وجيزة ولكنها عنيفة !
واخذت أخيرا تغنى . ان صوتها جميل ، ولكنها لا تجيد الغناء .. ثم اننى لم أحسن الاصغاء . أما جروشنيتسكى فقد توكأ على البيانو أمامها ، وراح يلتهمها بنظراته التهاما ، ويقول فى كل لحظة بصوت خافت : * «Charmant ! délicieux !»
قالت لى فيرا :
ـ اسمع ! لا أريد أن تتعرف الى زوجى ، ولكن عليك أن تحوز رضا الاميرة الام . وهذا سهل عليك ، انك تستطيع كل ما تشاء.. فى هذا المكان وحده نستطيع أن نلتقى .
ـ فى هذا المكان وحده ؟
فاحمر وجهها ، واستمرت تقول :
ـ أنت تعرف اننى عبدتك ، واننى لم أستطع أن أقاومك يوما ، وسأنال عقاب ذلك حين أفيق فاذا أنت لا تحبنى ! ولكننى أريد أن تصون سمعتى ، لا من أجل نفسى ، أنت تعرف ذلك كل المعرفة. أتوسل اليك الا تعذبنى كما كنت تعذبنى ، بشكوكك العقيمة وببرودتك المفتعلة . اظن اننى سأموت قريبا ، فانى أحس بالوهن يزداد يوما بعد يوم ... ومع ذلك لا أستطيع أن أفكر فى الحياة الآتية ، ولا أحلم الا بك ... ان الرجال لا يفهمون الأفراح التى تشيعها فى القلب نظرة عين أو لمسة يد ... أقسم لك اننى حين أسمع صوتك ، أشعر بسعادة عميقة ، غريبة ، لا تغنى عنها أحر القبلات ...

* عظيم ! رائع ! بالفرنسية فى الاصل .

وفى أثناء ذلك توقفت الأميرة مارى عن الغناء ، واذا بالمديح يتقاطر عليها من كل صوب ، اقتربت منها آخر من اقترب ، وقلت كلمتين فى الثناء على صوتها ، بلهجة لا اكتراث فيها .

فأطالت شفتها السفلى ، وأحنت رأسها احناءة ساخرة وقالت :

ـ يسرنى ثناؤك كثيرا ، ولا سيما انك لم تسمع شيئا البتة ، ولكن لعلك لا تحب الموسيقى .

ـ بالعكس ، ولا سيما بعد الغداء .

ـ كان جروشنيتسكى على حق حين قال ان أذواقك ليس فيها شيء من الشعر . فها أنت ذا لا تحب الموسيقى الا من زاوية الطعام .

ـ مخطئة ... لست ممن يحبون الطعام ، فان معدتى سيئة جدا . ولكن الموسيقى ، بعد الطعام ، تحمل على النوم ، ومن الخير للصحة أن ينام المرء بعد تناول الغداء ، فأنا اذن أحب الموسيقى من زاوية الطب . أما فى المساء ، فالموسيقى تثيرنى ، تجعلنى حزينا مسرفا فى الحزن أو فرحا مسرفا فى الفرح ، ومن المتعب أن يحزن المرء أو أن يفرح حين لا يكون ثمة داع جدى يدعو الى الحزن أو الى الفرح .. ثم ان الحزن ، بين الناس ، مضحك ، والفرح ان زاد عن الحد كان وقاحة ...

لم تصغ الى كلامى حتى النهاية ، بل ذهبت تجلس الى جانب جروشنيتسكى ، ودار بينهما عندئذ حديث عاطفى . وتراءى لى أن الأميرة كانت تجيب على عباراته البليغة ، ذاهلة لا تعرف ماذا تقول ، على تظاهرها بأنها تصغى الى كلامه فى كثير من الانتباه . ذلك انه كان ينظر اليها فى بعض الأحيان نظرة استغراب ، محاولا أن يدرك سبب هذا الاضطراب الخفى الذى تفضحه نظرتها القلقة من حين الى حين ...

ولكننى فهمتك أيتها الأميرة العزيزة . حذار منى ! تريدين أن تقتصى لنفسك بالسـلاح عينه ، تريدين أن تجرحى عزتى . لن تظفرى بذلك ! واذا أعلنت على الحرب ، فلن تأخذنى بك رحمة .

تظاهرت عدة مرات ، أثناء السهرة ، بأننى أريد الاشتراك فى حديثهما ، ولكنها استقبلت كلامى بشيء من الجفاف ، فابتعدت أخيرا وأنا أتظاهر بالأسى والحنق. انتصرت. وانتصرجروشنيتسكى أيضا . انتصرا ، يا صديقى ، وحثا الخطا ! عمر نصركما قصير !.. أوجس ذلك ! انى حين اتعرف على امرأة ادرك انها سوف تحبنى أو لن تحبنى ، وما خاب ظنى يوما ...

قضيت باقى السهرة الى جانب فيرا نتحدث فى الماضى حديثا طويلا حتى شبعت ... اننى لا اعرف حقا لماذا تحبنى كل هـــذا الحب ، لاسيما انها الوحيدة التى فهمتنى فهما عميقا ، وعرفت ما بنفسى من ضروب الضعف الحقير والهوى الفاسد ... هل يمكن أن يكون الشر جذابا الى هذا الحد ؟ ..

وخرجت مع جروشنيتسكي ، وأمسك بيدى فى الشارع ، وقال بعد برهة طويلة من الصمت :

ـ ما رأيك ؟ ..

وددت لو أقول له : « رأيى انك غبى » ، ولكننى أمسكت عن الكلام ، واكتفيت بأن أهز كتفى .

٢٩ آيار ·

خلال هذه الأيام كلها لم أخرج مرة واحدة عن الخط الذى رسمته لسلوكي . أخذ حديثى يرضى الأميرة الشابة . لقد قصصت عليها بعض الأحداث الغريبة من حياتى ، وأخذت تنظر الى نظرتها الى رجل فريد عجيب . اننى أسخر من كل شيء . وأسخر من العواطف أكثر من اى شيء . أخذ هذا يرعبها . انها لا تجرؤ على الشروع فى حديث عاطفى مع جروشنيتسكى بحضورى . حتى انها أجابت على فوراته بابتسامة ساخرة عدة مرات . ولكننى كنت ، كلما اقترب منها ، اصطنع هيئة الاذعان ، وأدعهما وحدهما . سرت من ذلك فى المرة الأولى ، او تظاهرت بأنها سرت . ولكنها فى المرة الثانية سخطت على . وفى المرة الثالثة سخطت عليه هو .

قالت لى أمس :

ـ انت قليل الاعتزاز بنفسك ... ما الذى يوهمك بأن صحبة جروشنيتسكى أمتع عندى من صحبتك ؟ ..

فأجبتها قائلا :

ـ اننى أضحى بلذتى فى سبيل سعادة صديقى ...

قالت :

ـ وتضحى بلذتى أيضا ؟ ..

فحدقتها بنظرة رصينة ، ثم لم أتجـــه اليهـــا بكلمة واحـدة طوال ذلك اليوم ... كانت فى المساء واجمة تفكر ، وفى صباح اليوم كانت أشد وجوما . وحين اقتربت منها اليوم ، كانت تصغى ذاهلة الى جروشنيتسكى الذى كان يتدفق فى الحديث عن جمال الطبيعة ، فيما أعتقد ، فلما رأتنى أخذت تضحك ضحكا عاليا (فى غير محله) متظاهرة بانها لم تلمحنى · فابتعدت واخذت أراقبهـــا خلســة ،

فرأيتها تشيح بوجهها عن محدثها ، تتثاءب مرتين .

ان جروشنيتسكي يضجرها ، ما في ذلك ريب . سأظل يومين أيضا لا أخاطبها بكلمة .

٣ حزيران

كثيرا ما أتساءل : لماذا انصب هذا الانصباب على اثارة الحب في قلب فتاة لا أنوى اغراءها ولا أريد ان اتزوجها ؟ ما هذا الطبع المثير الذى يليق بامرأة ؟ ان فيرا تحبني حبا لن تقدر على مثله الأميرة ماري ... ولو كانت الأميرة تبدو لي صعبة المنال لقلت ان الصعوبة تغريني ...

ولكن الأمر ليس كذلك . لست اذن بصدد تلك الحاجة القلقة الى الحب التي تعذبنا في السنين الأولى من شبابنا ، وما تنفك تنقلنا من امرأة الى أخرى ، الى أن نجد امرأة لا تستطيع أن تطيقنا ، فاذا نحن نثبت على الهوى ، ونشعر بذلك الحب الجامح الصادق اللانهائي ، الذى يمكن أن نعبر عنه في الرياضيات بخط يبدأ من نقطة ويغيب في الفضاء الفسيح ... ان سر هذه اللانهاية هو العجز عن بلوغ الهدف اى الوصول الى الغاية ...

ولكن ما الذى يحملني اذن على هذا العناء كله ؟ أتكون هي الغيرة من جروشنيتسكي ؟ مسكين جروشنيتسكي ، انه لايستحق حقا هذه الغيرة ! .. أم لعلني أنساق مع تلك العاطفة الخبيثة الجارفة التي تدفعنا الى تحطيم ما تفيض به نفس الجار من أوهام عذبة ، حتى ننعم بتلك اللذة الصغيرة ، وهي أن نجيبه ذات يوم حين يسألنا وقد تملكه اليأس : بمن أثق بعد الآن ؟ فنقول له : « اسمع ياصديقي ، لقد مررت بمثل ما تمر به الآن ، هأنذا مع ذلك ، كما ترى ، أتغدى وأتعشى ، وأنام هادئا ، وآمل أن أستطيع لقاء الموت بلا صراخ ولا دموع ! »

ثم ، أليس في امتلاك نفس فتية ، لم تكد تتفتح ، لذة لاتقاوم ؟ انها كتلك الزهرات التي تنشر عبقها العطر لأولى أشعة الشمس : ففي تلك اللحظة انما يجب ان تجتنى ، لتـرمى على قارعة الطريق ، بعد ان تشم حتى الثمالة : وربما تجد يومئذ من يلتقطها. اني لأشعر بنهم في نفسي لا يشبع ، يلتهم كل ما يصادفه على الطريق. ولا انظر الى آلام الآخرين وأفراحهم الا من ناحية صلتها بي ، أى على انها غذاء لنفسي . أصبحت عاجزا عن الاندفاع المجنون بتأثير هوى جامح . لقد خنقت الظروف طموحي . ولكنه يظهر الآن

بوجه آخر ، لأن الطموح ليس الا الظمأ الى السيطرة ، وغاية اللذة عندى أن أخضع من يحيط بى. وان توحى بالحب والوفاء والخوف ، اليس ذلك أول علامة من علامات الظفر ، وأكبر نصر تحققه قوتك ؟ أن تكون مبعث الم أو لذة لآخر ، دون أن يكون لك اى حق فى ذلك ، اليس هذا أعذب غذاء تغتـــذى به كبرياؤك ؟ وما هى السعادة ؟ انها ارتواء الكبرياء . لو اعتقدت اننى أحسـن الناس واقواهم ، لأصبحت سعيدا . ولو أحبنى جميع الناس ، لوجدت فى نفسى ينابيع من الحب لا تنضب . والشر يلد الشر . ان الألم الأول الذى تعانيه يطلعك على اللذة التى يحققها لك تعذيب الآخرين. ولا يمكن أن تخطر فكرة الشر ببال أحد ، الا ويفكر فى تحقيقها فورا. قال احدهم : الأفكار مخلوقات عضوية ، ولادتها تهب لها شكلا ، وشكلها هو الفعل . والذى تولد فى ذهنه الأفكار أكثر من غيره ، يفعل أكثر من غيره . ويتبع ذلك أن العبقرى اذا سمر على كرسى الوظيفة فاما أن يموت واما ان يجن ، مثله كمثل من أوتى جسما قويا ، اذا عاش حياة خاملة ساكنة ولم ينفق من قوته شيئًا ، مات بسكتة القلب .

ما الأهواء الجامحة الا افكار فى أول مرحلة من مراحل نموها. هى من شأن القلب الفتى ، وما أشد حماقة من يتصور أنه يتمكن أن يظل مضطربا بها ، حياته كلها . كثير من الأنهر الهادئة هى فى أول أمرها سيول عارمة جارفة . ولكن ما من نهر منها يظل يتواثب ويرغى ويزبد حتى لحظة انصبابه الى البحر . وكثيرا ما يكون هذا الهدوء دليل قوة كبيرة كامنة . ان الأفكار والعواطف الواســعة العميقة تنفى الفورات الهائجة والاندفاعات المحمومة . والنفس ، فى المها ولذتها ، تعى كل ما يجرى فيها أدق الوعى ، وتقنع ذاتها بأن ما كان لابد أن يكون . تعرف أنها ، بدون العواصف ، تجففها حرارة الشمس الدائمة . انها تتغذى بحياتها نفسها . تدلل ذاتها وتعاقب ذاتها ، كما يدلل ويعاقب طفل حبيب . لايستطيع الانسان أن يفهم العدالة الالهية الا اذا بلغ هذه الدرجة العليا من معـــرفة نفسه .

حين أعدت قراءة هـــذه الصـــفحة لاحظت اننى ابتعدت عن موضوعى ... ولكن لا ضير !.. اننى أكتب هذه اليوميات لنفسى ، وكل ما أخطه سيكون لى فى المستقبل ذكرى ثمينة .

... ...

جاءنى جروشنيتسكى ، ووثب الى عنقى : لقد اصبح ضابطا . وشربنا من الشمبانيا . وما هى الا برهة حتى دخــل الدكتور فرنر . قال فرنر يخاطب جروشنيتسكى :

ـ لا اهنئك ..

ـ لماذا ؟ ..

ـ لأن معطف الجنود الذى كنت ترتديه جميل عليك جدا . ثق ان بدلة ضابط من ضباط المشاة تصنعها هنا ، لا تجعلك شائقا كثيرا . انظر ، لقد كنت الى الآن فريدا فذا ، أما اليوم فقــد اصبحت كسائر الناس .

ـ لك ان تقول ماتشاء يادكتور، فلن يمنعنىكلامك من أن افرح !

وهمس فى اذنى :

ـ انه لا يعلم الآمال التى تهبها لى هذه الشارات !.. آه ... شارات ، شارات ، نجمات ذات سلطان ... نعم ، اننى الآن سعيد كل السعادة !

قلت له : هل ترافقنا فى جولة حول الفور ؟

انا ؟ لن اظهر للأميرة قبل أن ارتدى بدلتى الجديدة .

ـ هل تكلفنى أن أبلغها النبأ السعيد ؟

ـ كلا ، ارجوك ، لا تقل لها شيئا ... أريد أن أفاجئها بالأمر مفاجأة ...

ـ قل لى على الأقل الى أين وصلتما ؟

القاه سؤالى هذا فى اضطراب ، واخذ يفكر . كان يود لو يموه ويتباهى ، ولكنه لم يجرؤ . وهو يخجل أن يذكر الحقيقة .

ـ هل تعتقد أنها تحبك ؟

ـ هل اعتقد أنها تحبنى ؟ أفكارك غريبة يا بتشورين !.. وكيف تريد أن تحبنى بمثل هذه السرعة ... وهبها تحبنى ، أفيمكن لامرأة مهذبة أن تبوح بهذه الامور ؟

ـ عظيم !.. ولعلك ترى أيضا انعلى الرجل المهذب أن يسكت ، هو الآخر ، عن هواه .

ـ ولكن ياصديقى هناك السلوك ... بعض الأشيــاء لا تقال ولكنها تحزر ..

ـ هذا صحيح ، ولكن الحب الذى يقرأ فى العينين لا يربط امرأة ... فى حين أن الـكلام ... انتبه ياجروشنيتسكى ، أنها تهزأ بك ...

ـ هى ؟ ..

هتف بذلك ، وهو يرفع عينيه الى السماء ، ويبتسم ابتسامة تفيض بمعنى الرضا والاكتفاء . واضاف :

ـ انني أرثي لك يا بتشورين .

ثم مضى الى سبيله .

فى المساء اتجه جمع غفير نحو الفور سيرا على الأقدام .

يرى علماء البلد أن هذا الفور ليس الا فوهة بركان منطفىء . وهو يقع فى أحد سفوح جبل ماشوك ، على مسافة فرست من المدينة . ويؤدى الى الفور ممر ضيق يتعرج بين الأدغال والصخور . وقد قدمت ذراعى للأميرة الشابة حتى تجتاز الجبل ، فلم تتركها بعد ذلك خلال النزهة كلها .

دار حديثنا فى أول الأمر عن الناس نغتابهم ونتنـدر عليهم . فاستعرضت من نعرفهم منهم حاضرين وغائبين ، وأخـذت أتفكه بمضحكاتهم ، ثم أخذت أتحدث فى عيوبهم ونقائصهم . واندفعت فى الحديث . بدأت بمزاح لطيف ، ثم انتهيت الى اقذاع خبيث . وطربت هى لذلك فى أول الأمر ، ولكنها ما لبثت أن اعتـراها خوف . قالت :

ـ أنت رجل خطر . انى لأوثر أن اسقط فى غابة تحت سكين قاتل سفاك ، على أن يتناولنى لسانك السليط ... أسألك جادة لا هازلة : اذا بدا لك يوما أن تقول فى قول السوء ، فانتض سكينا واذبحنى ... وما أظن أن ذلك عليك عسير .

ـ هل هيئتى هيئة قاتل ؟

ـ أنت شر من ذلك ...

ففكرت لحظة ثم قلت لها وقد بدا على وجهى تأثر عميق :

ـ نعم ؛ ذلك كان حظى منذ نعومة أظفارى . كان جميع النـاس يقرأون فى وجهى علامات غرائز شريرة أنا منها برىء ، وما زالوا يفترضونها فى ، حتى نبتت وتأصلت . كنت خجولا ، فاتهمونى بالمكر ، فأصبحت كتوما . وكنت أحس بالخير والشر احساسا عميقا ، ولكن أحدا لم يعطف على ، بل كانوا جميعا يؤذوننى ، فأصبحت حقودا أحب الانتقام . وكنت حزين النفس ، وكان الأطفال الآخرون فرحين هذارين ، وكنت أشعر انني فوقهم ، فقيل لى اننى دونهم ، فأصبحت حسودا ، وكنت مهيأ لأن أحب جميع الناس ، فلم يفهمنى أحد ، فتعلمت الكره . لم يكن شبابى الخالى من الفرح الا صراعا مع الناس ومع نفسى . خوفا من الهزء ، دفنت أنبل

عواطفي في أعماق قلبي ، فماتت هنالك . وكنت أحب ان اقول الحقيقة ، فلم يصدقني أحد ، فأخذت أكذب . وقد تعلمت أن اسبر أغوار الناس ، وان أدرك الدوافع التي تحركهم فأصبحت بارعا في فن الحياة ، ولاحظت أن غيري ممن لا يملكون هذا الفن كانوا سعداء ، ينعمون ، من غير جهد ، بهذه الخيرات التي كنت اجهد للحصول عليها بلا كلال ، فولد اليأس في قلبي ، لا ذلك اليأس الذي تذهب به رصاصة من مسدس ، بل هذا اليأس البارد ، العاجز ، الذي يختفي وراء سلوك لطيف ، وابتسامة طيبـــة . اصبحت روحي مشلولة . ذهب نصف نفسي : جف ، تبخر ، مات . قطعته ورميته بعيدا عني . بينما كان النصف الآخر يتحرك ويتمنى أن يخدم جميع الناس . ولكن احدا لم يلاحظ ذلك ، لأن أحدا لم يعرف أن النصف الضائع كان موجودا . ولكنك ايقظت الآن في نفسي ذكراه . فقرأت لك ما كتب على قبره . كثير من الناس يرون ما يكتب على القبور مضحكا ، أما أنا فلا ، لا سيما حين أفكر فيمن يرقد تحت . على انني لا أسألك أن تشاركيني الرأي ... واذا رأيت فورتي مضحكة ، فاضحكي ما شاء لك الضحك ... وثقي أن الضحك لن يجرحني أبدا .

في هذه اللحظة التقيت بعينيها ، فاذا بالدموع تترقرق فيهما... كانت ذراعها المستندة الى ذراعي ترتعش ، وكان خداها مضرجين بالحمرة . انها تشفق علي ، وترثي لحالي . ان الشفقة ، هـــذه العاطفة التي سرعان ما تستسلم لها المرأة ، قد أنشبت أظفارها في أعماق قلبها البريء الذي لا خبرة له . فظلت صامتة طوال النزهة ، ولم تعابث أحدا . هذه علامة خطيرة !

وصلنا الى الفور ، وافلتت كل سيدة ذراع فارسها ... ولكنها ظلت ممسكة بذراعي. لم تبهجها فكاهات المتظرفين من اهل المنطقة ، ولا اخافها المنحدر الشاهق الذي كانت عليه كما أخاف غيرها من الأوانس اللاتي أخذن يطلقن صرخات صغيرة ويغمضن أعينهن .

وحين عدنا ، لم أستأنف حديثنا الحزين الأول ، ولكنها لم تكن تجيب على أسئلتي المبتذلة وعلى أمازيحي الا اجابات موجزة ، وهي شاردة اللب ذاهلة .

سألتها أخيرا : هل أحببت ؟ ..

فحدقت الي ، وهزت رأسها بالانكار ، ثم عادت مطرقة تحلم. كان واضحا أنها تود لو تقول شيئا ، ولكنها لا تعرف من أين

تبدأ . كان صدرها يخفق ... ما العمل ؟ ان كما من الحرير الشفاف لا يمكن أن يكون حصنا منيعا : لقد سرت شرارة كهربائية من ذراعى الى ذراعها . يكاد ينشأ الغرام دائما هكذا ، ومن الخطل أن نتصور أن النساء يحببننا لصفاتنا الجسمية أو النفسية ، فلئن كانت هــذه الصــفات تهيىء الجو ، وتعد قلوبهن لاستقبال النار المقدسة ، فان الملامسة الأولى هى التى تقرر كل شيء ...

قالت بعد انتهاء النزهة ، وهى تحمل نفسها على الابتسام :

ــ الم اكن لطيفة جدا فى هذا اليوم ؟

وافترقنا .

انها غير راضية عن نفسها ... انها تتهم نفسها بالبرودة ... هذا نصر أول ، هذا أهم نصر !.. ستحاول أن تعوض على فى الغد . اعرف ذلك عن ظهر قلب ، وهذا ما يضجر !

٤ حزيران .

رأيت اليوم فيرا . صـــدمت رأسى بغيرتها ! أظن أن الأميرة اتخذتها نجية ، فأفضت اليها بأسرار قلبها . يجب أن اعترف انها أحسنت الاختيار !

قالت فيرا :

ــ اعرف الى اين تريد أن تصل . لماذا لا تقول انك تحبها ؟

ــ ولـكننى لا أحبها !

ــ فلماذا اذن تحاصرها ، وتشوشها ، وتقلق خيالها ؟ اننى لأعرفك . اسمع ، اذا كنت تريد أن أطمئن الى ما تقول ، فتعال بعد أسبوع الى كيسلوفودسك . سنذهب أنا وزوجى الى هناك بعد غد ، وسنستقر هناك . أما الاميرة فستبقى هنـــا بعض الوقت ايضا . استأجر بيتا قريبا من بيتنا . سنسكن نحن فى البيت الكبير الذى يقع على مقربة من النبع . سنحتل نحن الطابق النهائى العلوى ، ولقد استأجرت الأميرة ليجوفسكايا الطابق الأرضى ، غير أن البيت الذى يقع الى جانب هذا البيت ، ويملكه صاحب هذا البيت نفسه ، لايزال خاليا ... هل تأتى ؟

فوعدتها بالمجيء ، حتى لقد أرسلت وصيفى لاستئجار ذلك المنزل

أتانى جروشنيتسكى فى الساعة السادسة ، وأنبأنى بأن بذلته ستكون جاهزة فى الغد ، موعد الحفلة الراقصة ، وأضاف يقول :

ــ سأستطيع اخيرا أن أراقصها طوال السهرة ... وسأفضى لها بكل ما فى صدرى .

ـ متى الحفلة الراقصة ؟
ـ غدا ! ألم يبلغك نبؤها ؟ هى حفلة كبيرة تقيمها السلطات المحلية ...
ـ تعال نتجول قليلا فى الشارع .
ـ يستحيل أن أخرج بهذا المعطف الحقير .
ـ كيف ؟ أصبحت لا تحبه ؟
وخرجت وحدى ، ولقيت الأميرة مارى ، ودعوتها الى رقصة مازوركا ، فبدا أن ذلك أدهشها وسرها . قالت وهى تبتسم ابتسامة فاتنة :
ـ كنت أحسب انك لا ترقص الالضرورة ، كالمرة الماضية .
كان يبدو عليها انها لا تنتبه الى غيبة جروشنيتسكى . قلت لها : تنتظرك غدا مفاجأة سارة .
ـ ما هى ؟
ـ هذا سر ... ستكتشفينه فى الحفلة .
قضيت باقى اليوم فى بيت الأميرتين ، ولم اجد هناك الا فيرا ، وعجوزا ظريفا جدا . كنت مشرق المزاج ، وارتجلت عددا من الأقاصيص العجيبة . كانت الأميرة الصغيرة جالسة أمامى ، فكانت تصغى الى استطراداتى بانتباه بلغ من العمق ، والتركيز ، بل ومن الرقة ، اننى ارتبكت . أين حيويتها ، وصوتها المنير ، ونزواتها ، وكبرياؤها ، وبسمتها الساخرة ، ونظرتها الغائبة ؟
ولاحظت فيرا كل شىء ، فاذا وجهها الذى غيره المرض يلم به حزن عميق . كانت جالسة فى الظلام ، فى قاع مقعد كبير ، بالقرب من النافذة ... لقد اشفقت عليها ورثيت لها ...
فاخذت عندئذ اقص تلك الحكاية الدرامية ، حكاية لقائنا الأول ، وحبنا ، مع تغيير جميع الأسماء . فبلغت من جمال تصوير عاطفتى وقلقى واندفاعى ، ومن حسن الثناء على أفعالها وطباعها ، انها اضطرت الى أن تغفر لى معابثتى للأميرة .
فتركت مقعدها ، وانتعشت فجأة ، وجاءت تجلس الى جانبنا... ودقت الساعة الثانية من الليل ، حين تذكرنا أن الأطباء هنا ينصحون بالنوم فى الحادية عشرة .
٥ حزيران .
دخل على جروشنيتسكى قبل حفلة الرقص بنصف ساعة ، مشرق الوجه ، مرتديا بدلته الجديدة ، بدلة ضابط من ضباط المشاة ،

وقد ربط بالزر الثالث من قميصه سلسلة من البرونز علق بها نظارة . كانت شارتا الكتفين مرتفعتين كجناحي اله حب صغيرين . وكان حذاؤه يزقزق . وكان يمسك بيده اليسرى قفازا بنيا وقبعة. وكان يمر بيده اليمنى ، فى كل لحظة ، على الغدائر الصغيرة من ذؤابته المجعدة . كان وجهه يعبر عن الرضا والتوجس فى آن واحد ان منظره المحتفل . وسيره المتغطرس ، خليقان بأن يحملانى على ضحك شديد ، لولا ان ذلك يتعارض مع ما بيت من خطط .

ورمى قفازه وقبعته على المنضدة ، واخذ يشد ذيل بدلتـــه ، ويصلح من زينته أمام المرآة . لقد عقد ربطة سوداء على ياقته العالية التى تستند اليها ذقنه ، وكانت الربطـــة ترتفع عن زيق القميص مسافة اصبعين ، ولكن يظهر ان هذا بدا له غير كاف ، فرفعها حتى صارت عند أذنيه . وأنفق فى ذلك جهدا كبيرا ، ذلك ان زيق البدلة كان ضيقا جدا ، وكان يزعجه كثيرا ، فاحمر من ذلك وجهه .

قال لى فى شيء من عدم المبالاة ، ودون أن ينظر الى :

ــ يظهر أنك كنت خلال جميع هذه الأيام تغازل أميرتى بلا انقطاع!

فقلت أستعير ذلك التعبير الذى كان يؤثره ماكر من الطف الماكرين فى عصر آخر أشاد به بوشكين :

ــ هذا الشاى لم يخلق لفمى الردىء .

ــ قل لى ، بدلتى هذه ، هل هى جميلة على ؟ آه من ذلك اليهودى اللعين ! .. انها لتزعجنى تحت الذراعين ... هل عندك عطر ؟

ــ أيضا ؟ .. لقد شممت رائحة عطر الورد الذى تطيبت به ، من مسافة فرست كامل .

ــ لا بأس ، هات أيضا .

وصب نصف زجاجة العطر على ربطته ، ومنديله ، وأكمامه . سألنى :

ــ هل ترقص الليلة ؟

ــ لا أظن ..

ــ أخاف أن أبدأ المـــازوركا مع الأميرة ، وأنا لا أكاد أعرف أى خطوة من خطواتها ...

ــ ولــكن هل دعوتها لرقصة المازوركا ؟

ــ لم أدعها بعد ....

ـ انتبه ! من الممكن أن تسبق الى ذلك ...

فضرب جبينه قائلا :

ـ هل تعتقد ؟ اذن الى اللقاء ! سأنتظرها عند المدخل .

وهنا أخذ قبعته وذهب بخطا واسعة .

وبعد نصف الساعة ، خرجت انا أيضا . ان الشوارع مظلمة مقفرة . والناس يهرعون حول المجتمع الراقى ، أو حول المطعم ، سمه ماشئت . كانت النوافذ مضيئة ، وحمل الى نسيم المساء اصوات موسيقى عسكرية . كنت اسير على مهل ، لا اسرع. وكنت حزين النفس . تساءلت : ترى هل يمكن أن تكون رسالتى كلها فى هـذه الحياة الدنيا هى ان أحطم آمال البشر ؟ اننى منذ عشت وفعلت ، يستخدمنى القدر دائما لحل درامات الناس ، كأن أحدا لايستطيع بدونى أن يموت أو أن ييأس ! كنت الشخصية التى لابد منها فى الفصل الخامس . وقد مثلت ، رغم انفى ، ذلك الدور المؤلم ، دور جلاد أو خائن . ماذا كانت غاية القدر ؟ أتراه أراد ان يجعل منى مؤلف تراجيديات برجوازية ، وروايات عائلية ، أو كاتب أقاصيص لمجلة « مكتبة للقراءة » مثلا ؟ .. أين لى أن أعرف ذلك ... ما أكثر أولئك الذين يحسبون ، حين يبدأون حياتهم ، انهم سيختمونها كالاسكندر الأكبر أو كاللورد بايرون ، ثم يظلون حياتهم كلها مستشارى شرف ؟

حين دخلت الى القاعة ، اختفيت بين جمهور الرجال ، وأخذت أراقب . كان جروشنيتسكى واقفا الى جانب الأميرة الشابة يحدثها بحرارة ، وكانت تصغى اليه ذاهلة ، وهى تنظر من حولها ، عاضة على مروحتها بشفتيها . ان وجهها يعبر عن التبرم ونفاد الصبر . ان عينيها تبحثان عن أحد . فاقتربت على هون من وراء ، لأستمع الى حديثهما ، قال جروشنيتسكى :

ـ انك تعذبيننى أيتها الأميرة ، لقد تغيرت كثيرا اثناء غيابى .

فقالت له الأميرة وهى تلفه بنظرة سريعة لم يدرك ما فيها من سخر خفى :

ـ وانت أيضا تغيرت ..

ـ انا ، تغيرت ؟ لن اتغير فى حياتى كلها ! انت تعرفين ان هـذا مستحيل . من يراك مرة واحدة يحتفظ خياله بصورتك الالهية مدى الحياة ! ..

ـ كفى ! ..

ــ لمــاذا أصبحت لا تريدين أن تسمعي ما كنت تصغين اليه بالأمس راضية ؟
ــ لأنني لا أحب التكرار .
قالت ذلك وهي تضحك ...
ــ آه ... لقد أخطأت الظن خطأ مؤلما مرا ... كنت مجنونا اذ ظننت ان هذه الشارات ستهب لى حق الأمل على الأقل ... لا ، لا ، كان ينبغى أن ارتدى الى الأبد معطفى الحقير الذى لعل الفضل يرجع اليه فيما اظهرت من اهتمام بى ...
ــ حقا كان معطفك انسب لك ...
فى هذه اللحظة تقدمت منها وحييتها ، فاحمر وجهها قليلا ، وقالت :
ــ اليس صحيحا ياسيد بتشورين ان معطفه الرمادى كان أجمل؟
ــ لستمن مؤيدى هذا الراى...ان بدلته تظهره أفتى مماكان يبدو.
لم يستطع جروشنيتسكى أن يتحمل الضربة ، فهو يطمع كسائر الشباب أن يكون طاعنا فى السن منذ الآن . انه يتخيل أن الهوى قد خلف فى وجهه آثارا عميقة تغنى عن الآثار التى يخلفها تعاقب السنين . فنظر الى نظرة حانقة ، وضرب الأرض بقدمه ، وابتعد عنا ...
قلت للأميرة :
ــ اما كنت منذ مدة قريبة ، على رغم انه كان مضحكا دائما تجدينه طريفا شائقا ... بمعطفه الرمادى ؟
فغضت طرفها ، ولم تجب بشىء .
ظل جروشنيتسكى طوال السهرة يلاحقهــا ويلازمها ، ويرقص معها أو يرقص أمامها . وكان يلتهمها بعينيه التهاما ، ويتنهد ، ويزعجها بتوسله وعتابه . فلما انتهت رقصـــة الكادريل الثالثة ، كانت مارى قد اشمأزت منه .
قال لى وهو يقترب منى ، ويمسك بذراعى :
ــ ما كنت أصدق أن تفعل ذلك !
ــ ماذا ؟ ..
فأجاب بصوت فخم :
ــ سترقص المازوركا مع مارى ؟ .. لقد اعترفت لى ...
ــ طبعا ! وهل يجب أن تجعل من الأمر سرا ؟
ــ كان ينبغى أن أتوقع ذلك من هذه البنت الصغيرة ... من

هذه العابثة ... ولكننى سأنتقم !

ـ يجب أن تحقد على معطفك أو على شاراتك ، لا عليها هى ! هل يكون الذنب ذنبها اذا أنت لا تعجبها الآن ؟ ..

ـ لماذا أملتنى اذن ؟ ..

ـ ولماذا أملت أنت ؟ أنا افهم أن يرغب الانسان فى شىء ، وأن يسعى الى الحصول عليه ، اما ان يأمل ؟ ..

فقال وهو يبتسم ابتسامة خبيثة :

ـ لقد ربحت الرهان ، ولكنك لم تربحه تماما ...

وبدت المازوركا . فلم يختر جروشنيتسكى ، طوال الوقت ، الا الأميرة ، وكان يجىء اليها فرسان آخرون يدعونها كل لحظة ... واضح ان كل هذا تآمر على . لا بأس . انها تريد أن تتحدث معى ، فحالوا بينها وبينى ، وستزداد من ذلك رغبتها فى التحدث الى ! ..

شددت على يدها مرتين ، وفى المرة الثانية سلت يدها دون أن تنبس بكلمة . قالت بعد انتهاء المازوركا :

ـ لن أنام اليوم نوما هادئا ! ..

ـ هل هذا بسبب جروشنيتسكى ؟ ..

ـ لا ، لا ! ..

كان فى وجهها من علامات الحزن والكآبة ما جعلنى أقطع على نفسى عهدا أن اقبل يدها فى ذلك المساء نفسه .

وانفض الجمع ، فلما ساعدتها على الصعود الى عربتها ، اسرعت فحملت يدها الصغيرة الى شفتى . وكان الظلام مخيما ، فلم ير أحد شيئا .

عدت الى القاعة راضيا عنها كل الرضا .

كان هناك عدد من الشباب يتعشون حول مائدة كبيرة . وكان جروشنيتسكى بينهم . فلما دخلت سكتوا جميعا عن الكلام : كان واضحا أنهم يتحدثون عنى . أن كثيرا من الناس يحنقون على ، منذ حفلة الرقص الأولى ، ولا سيما الرئيس الخيال . لا شك أن عصابة تتألف ضدى ، ولا شك أن جروشنيتسكى هو رأسها . ها هو ذا يرفع عقيرته ، ببسالة وغطرسة ! ..

حسن . انني أحب أعدائى ، لا حبا مسيحيا طبعا ... انهم يسلوننى ، وينشطون دمى ... أن أظل دائما على يقظة ، أن أفاجىء كل نظرة من نظراتهم ، أن أحزر كل كلمة من كلماتهم ، أن أنفذ

الى صميم نواياهم ، أن احبط مشاريعهم . ان اتظاهر بانني غر مخدوع ، ثم أهدم بضربة واحدة كل ما بنوا بالجهد الطويل الشاق والمكر والحيلة : تلـكم هى عندى الحياة !

لم ينقطع جروشنيتسكي والرئيس الخيال ، طوال السهرة ، عن التهامس وتبادل نظرات المـكر .

٦ حزيران

سافرت فيرا هذا الصباح الى كيسلوفودسك مع زوجها . لقد التقيت بعربتها فى طريقى الى بيت الأميرة ليجوفسكايا ، فهزت لى راسها ، وكان فى نظرتها شيء من العتب .

ولكن ما ذنبى ؟ لماذا لا تريد أن تتيح لي خلوة ؟ الحب كالنار ، ينطفيء اذا لم نغذه بالوقود . لعل الغيرة أن تنجح ، حيث اخفقت التوسلات .

بقيت مع الأميرة الأم ساعة كاملة ، ولم أر مارى : انها مريضة . لم تخرج هذا المساء الى الشارع الكبير . ان العصابة التى تالفت قد تسلحت بنظارات ، واصطنعت هيئة التهديد . سرنى ان الأميرة مريضة . كان يمكن أن يزعجوها ... رأيت جروشنيتسكى أشعث الشعر ، وقد لاحت على وجهه علامات اليأس . وأعتقد انه متألم ، ولا سيما من ناحية عزته الجريحة . ولكنه من أولئك الناس الذين يضحك المرء حتى من يأسهم .

حين عدت الى بيتى ، شعرت ان شيئا ينقصنى ... اننى لم ارها ! انها مريضة ! اترانى أحبها ؟ دع عنك هذا الهراء ! ..

٧ حزيران .

فى الساعة الحادية عشرة من الصباح ، وهى الساعة التى اعتادت السيدة ليجوفسكايا ان تذهب فيها الىحمامات يرمولوف للتعرق ، مررت أمام بيتها ، فرايت الأميرة مارى جالسة الى النـافذة . تحلم ، فلما راتنى أسرعت تنهض .

ودخلت ، ولم يكن فى حجرة المدخل أحد ، فاستعملت الحرية التى تبيحها العادات هنا ، فنفذت الى الصالون دون استئذان...

كان وجه الأميرة الجميل شاحبا كابيا . وكانت واقفة بالقرب من البيانو ، قد وضعت يدها على مسـند مقعدها ... كانت يدها ترتعش قليلا . فاقتربت منها بهدوء ، وقلت لها :

ــ أانت حانقة على ؟ ..

فرفعت الى نظرة ذابلة عميقة ، وهزت راسها ... كانت شفتاها

تريدان أن تقولا شيئا ، ولكنهما لا تستطيعان . وامتــلأت عيناها بالدموع . وتهاوت على مقعدها وهى تخفى وجهها بيديها .

قلت لها وأنا أتناول يدها :

ـ ما بك ؟..

فقالت :

ـ لاشك أنك تحتقرنى !.. دعنى دعنى ...

فلما ابتعدت بضع خطوات ، استوت على مقعدها ، ورأيت الشرر يتطاير من عينيها ...

وقفت ، وأنا أضع يدى على قبضة الباب ، وقلت لها :

ـ سامحينى أيتها الأميرة ! .. لقد تصرفت تصرف مجنون ... ولن يقع هذا بعد الآن أبدا ... سأحترس ... فيم أطلعك على ما جال فى نفسى حتى الآن ؟ انك لن تعرفيه ، ومن الخير لك أن لا تعرفيه . وداعا !

وحين خرجت ، خيل الى اننى سمعتها تبكى .

ظللت حتى المساء هائما على وجهى فى جوارماشوك ، حتى اذا عدت الى البيت ارتميت على سريرى وقد اخذ منى الاعياء كل مأخذ .

وجاءنى فرنر يسألنى :

ـ هل صحيح انك ستتزوج الأميرة ليجوفسكايا ؟..

ـ نعم ... ؟

ـ المدينة كلها تلغط فى الأمر . ومرضــاى جميعا يتحدثون فى الخبر الهام ، والمرضى أناس يعرفون دائما كل شىء .

قلت فى نفسى : « لا شك ان جروشنيتسكى هو الذى دبر هذه المكيدة » . قلت للدكتور :

ـ كى أبرهن لك ، يا دكتور ، على كذب هــذه الشائعات ، افضى اليك بهذا السر المكتوم ، وهو اننى مســافر غدا الى كيسلوفودسك .

ـ والأميرة ؟ ..

ـ ستبقى هنا اسبوعا ايضا .

ـ اذن لن تتزوجها ؟ ..

ـ يا دكتور ، ياعزيزى الدكتور ، انظر الى ، هل ترى فى أى شىء مما يرى فى خطيب ؟ ..

فأجاب :

ـ لا أقول هذا ...

ثم أضاف وهو يبتسم ابتسامة خبيثة :
– ولكنك تعلم أن هناك حالات يضطر فيها رجل شريف الى الزواج ، وهناك أمهات لا تفعل شيئا من أجل تحاشي هذه الحالات ... اليك نصيحة صديق : كن على حذر من الأمر ! .. ان الهواء ، هنا ، في المياه ، خطر جدا ... كم من شباب ممتازين مضوا من هنا رأسا الى الكنيسة ، مع انهم كانوا يستحقون حظا أجمل ! .. وانا نفسي ارادوا أن يزوجوني ، هل تصدق ؟.. هي أم من القضاء - بنتها مصابة باليرقان . لسوء حظي قلت لها ان ألوان ابنتها تعود اليها بعد الزواج ، فاذا هي تعرض علي ، ودموع الشكر تفيض من عينيها ، أن اتزوج ابنتها وأن احظى بثروتها ... كانت ثروتها خمسين نفسا فيما أظن . ولكنني أجبتها بأنني عاجز عن أن أكون زوجا .
وتركني فرنر ، مقتنعا كل الاقتناع بأنه نبهني وجعلني على حذر من أمري .
لقد حفظت من كلامه كله ما يلي : ان اشاعات خبيثة عني وعن الأميرة ، تدور في المدينة . سيدفع جروشنيتسكي ثمن ذلك !..

١٠ حزيران .

انا في كيسلوفودسك منذ ثلاثة أيام . انني أرى فيرا على البئر ، وفي النزهة ، كل يوم . متى استيقظت في الصباح أذهب الى النافذة ، وأسدد نظارتي الى شرفتها ، وتكون هي مرتدية ثيابها منذ مدة طويلة تنتظر الاشارة المتفق عليها ، فنلتقي في الحديقة التي تهبط من بيتنا الى البئر ، كأنما مصادفة على غير ميعاد . ان هواء الجبل المنعش قد أعاد الى لونها نضارته ، ورد اليها شيئا من القوة . صدق من قال ان نارزان تصنع هراقلة . ان سكان المنطقة يؤكدون أن هواء كيسلوفودسك يفتح القلوب للحب ، وأن الروايات التي تبدأ على سفح ماشوك تنحل عقدها هنا . ان جو العزلة يفوح من كل شيء في هذا المكان ، كل شيء هنا سر : الظلال الكثيفة في دروب أشجار الزيزفون المنحنية على السيل الذي يرغي ويزبد واثبا من صخرة الى صخرة ، ويشق طريقه بين الجبال المخضوضرة ، الفجاج المليئة بالضباب والصمت ، تتشعب في كل اتجاه ، طراوة الهواء العبق ، المحمل بروائح الأعشاب العالية الجنوبية ، وعبير أشجار الأكاسيا البيضاء ، خرير المياه يهدهد الآذان بغير انقطاع .. خرير السواقي الباردة التي تتلاقى على طرف

الوادى لتجرى معا الى مصبها فى نهر بودكوموك ... ان الثغرة تتسع من هذه الجهة ، وتستحيل الى واد تملؤه الخضرة ويتلوى فيه طريق أغبر . كلما نظرت الى هذا الطريق تراءى لى أن عربة تصل ، يطل من نافذتها وجه جميل فاتن. لقد مرت عربات كثيرة. ولكن العربة التى انتظرها لم تصل ... ان الضيعة التى وراء القلعة ، تعج بالناس . ومن خلال صفين من اشجار الحور ارى عند المساء أنوار المطعم الذى بنى على الهضبة الواقعة على بعد بضع خطوات من منزلى .

واظل اسمع حتى ساعة متأخرة من الليل جلبة الأصوات ، ورنين الكئوس .

ما من مكان يشرب فيه الناس من خمر كاخيتيا ومن الماء المعدنى مثلما يشربون فى هذا المكان :

فبعض الناس يخلطون هذين العملين
ولست انا من عداد هؤلاء .

ان جروشنيتسكى وعصابته يحدثون كثيرا من الصخب فى المطعم . ولا يكاد يلقى على التحية .

لقد وصل أمس ، وتشاجر حتى الآن مع ثلاثة شيوخ ارادوا أن يدخلوا الحمام قبله : لا شك أن تعاسته قد أحالته امرءا يحب القتال !

١١ حزيران .

أخيرا ، وصلتا . كنت جالسا الى النافذة حين سمعت صوت عربتهما . لقد ارتعش عندئذ قلبى . ما معنى هذا ؟ أأكون عاشقا ؟ ليس هذا بمستبعد على طبعى العجيب .

تغديت فى منزلهما . وقد نظرت الى الأم نظرة رقيقة ، ولكنها لا تترك ابنتها . الحال سيئة . غير أن فيرا ، فى مقابل ذلك ، تغار من الأميرة : جاءت اذن السعادة التى طالما بحثت عنها ! اى شىء تمتنع المرأة عن فعله من أجل ان تغيظ غريمتها ؟ أذكر ان امرأة قد أحبتنى يوما لأننى كنت أحب غيرها. لا شىء أعجب من منطقهن ! يستحيل أن تقنعهن بأى شىء ، يجب أن تتأدى بهن الى أن يقنعن أنفسهن بأنفسهن . ان فرع الحجج التى يمكن ان يهدم ما استقر فى اذهانهن فريد فى نوعه . يجب عليك اذا أردت السيطرة على منطقهن أن تتخلى عن ابسط قواعد المنطق . مثال : هذا استدلال طبيعى :

هذا الرجل يحبنى ، ولكننى متزوجة ، اذن يجب الا أحبه .
وهذا استدلال امرأة :
يجب ألا أحبه ، لأننى متزوجة ، ولكنه يحبنى ، اذن ...
وهنا نصمت .. لأن العقل ليس هو الذى يتكلم ، بل اللسان ، والعينان ، ثم القلب ، اذا كان لهن قلب .
لو وقعت هذه الكلمات تحت عينى امرأة ، لاستاءت من ذلك اشد الاستياء ، وقالت هذا افتراء ! ..
منذ نظم الشعراء شعرا ، ومنذ قرأ النساء هذا الشعر (ويجب ان نشكر لهن ذلك أعمق الشكر) سميت النساء ملائكة ، وبلغت هذه التسمية من التكرار انهن من بساطة قلوبهن صـدقنها ، ناسيات أن هؤلاء الشعراء انفسهم يمكن أن يضعوا نيرون فى مصاف انصاف الآلهة ، فى سبيل مال يحصلون عليه ...
لماذا اقول فى النساء هذا الكلام الهاجر ، انا الذى لا أحب فى الدنيا غيرهن ، انا الذى استطيع دائما أن اضحى من اجلهن براحتى ، بطموحى ، بحياتى ؟ ولكننى اذا انتزعت عن وجوه النساء هذا الحجاب السحرى الذى لا تستطيع أن تنظر الى ما وراءه الا عين متمرسة ، فاننى لا افعل ذلك مدفوعا بحنق شديد وكبرياء جريحة . كل ما اقوله عنهن ليس الا حقائق :

ملاحظات العقل البارد
والقلب تملؤه المرارة * .

ينبغى للنساء أن يتمنين أن يعرفهن جميع الرجال كما اعرفهن انا ، لاننى منذ اصبحت لا أخافهن ومنذ فضحت نواحى الضعف الصغيرة فيهن ، ازداد حبى لهن مائة مرة
لقد شبه قرنر النساء ، ذات مرة ، بالغابة المسحورة التى يتحدث عنها تاس فى « تحرير القدس » ، فيقول : « متى اقتربت انتابتك الوان الذعر كلها : الواجب ، الغرور ، الأدب ، رأى الناس، سخرهم ، احتقارهم ... ولكن يجب عليك أن تتقدم دون أن تنظر... فاذا بهذه الأشباح تختفى شيئا بعد شىء ، ثم اذا انت امام فسحة هادئة مضيئة يزهر فيها الآس المخضوضر . ولكن ويل لك اذا خفق قلبك منذ الخطوات الأولى ، ونظرت الى الوراء ! »

١٢ حزيران .

---

* بيتان من رواية بوشكين الشعرية « يفغينى أونيغين »

كانت سهرة اليوم حافلة بالأحداث . على مسافة ثلاثة فرستات من كيسلوفودسك ، فى الفج الذى يجرى فيه بودكوموك ، هنالك صخرة تسمى الحلقة ، هى أشبه بباب صنعته يد الطبيعة . انها تنتصب قائمة على هضبة عالية ، واليها ترسل الشمس عند المغيب نظرتها الملتهبة الأخيرة . ذهبنا الى هنالك رهطا من الفرسان نريد ان نتأمل غياب الشمس من هذه الكوة الصخرية ... الحقيقة أن احدا لم تخطر له الشمس ببال ... كنت ارافق الأميرة الصغيرة على حصانى . وعند العودة كان يجب علينا أن نقطع بودكوموك مخاضا . ان انهار الجبال خطرة ، مهما تكن صغيرة ، لاسيما وان قاعها منظار سحرى حقيقى ، يتغير بضغط المياه كل يوم ، فاذا المكان الذى كان فيه بالأمس صخرة أصبح اليوم ثغرة . امسكت بأعنة حصان الأميرة ، وأدخلته فى الماء الذى لم يصل الى اعلى ركبته ، وأخذنا نقطع النهر على مهل ، فى عكس اتجاه التيار ، مواربة . وانتم تعلمون أن المرء حين يقطع نهرا سريعا يجب أن لا ينظر فى الماء ، والا أصيب بدوار . وقد نسيت أن انبه الأميرة مارى الى ذلك .

فما أن وصلنا الى منتصف النهر ، حيث يتدفق الماء اسرع ما يكون ، حتى رأيت الأميرة تترنح على سرجها ، وتقول بصوت ضعيف : « اشعر اننى فى حالة سيئة » ... فانحنيت عليها بسرعة ، وطوقت جسمها اللدن بذراعى ، وتمتمت أقول لها :

ــ انظرى الى فوق ... الأمر بسيط ! ولا تخافى ، فاننى معك.

وشعرت بتحسن ، فارادت أن تنسل من بين ذراعى ، ولكننى شددت قدها الرشيق اللدن شدا أقوى ، حتى كاد يلامس خدى خدها .. وكان خدها يتوقد كأنه اللهب .

ــ ماذا تعمل ؟ يا الهى ! ..

ولكننى لم ألق بالا الى قلقها واضطرابها ... ولامست شفتاى وجنتها الناعمة . فارتعشت ولكنها لم تقل شيئا . كنا وراء الجميع ، فلم يرنا احد . فلما وصلنا الى الضفة الثانية من النهر ، كانوا جميعا يخبون . وحبست الأميرة حصانها عن العدو ، وظللت انا الى جانبها . كان واضحا ان صمتى يقلقها ، ولكننى كنت قد حلفت الا أنبس بكلمة ، من قبيل حب الاطلاع . كنت أريد أن اعرف كيف تخرج من هذا المأزق . فقالت لى أخيرا بصوت تمازجه الدموع :

ـ اما انك تحتقرنى ، واما انك تحبنى كثيرا . لعلك لا تريد الا أن تعبث بى وتسخر منى ، تدخل القلق والاضطراب الى نفسى ، ثم تدعنى وشأنى ... سيكون هذا من الحقارة والخسة والجبن بحيث أن تصوره وحده ... لا ، لا ، أليس كذلك ، (استدركت هذا الاستدراك بلهجة عذبة من الثقة) ، اذ ليس فى شىء يمكن أن يحرمنى من الاحترام الذى استحقه ؟ اما جرأتك ، فيجب على ، نعم يجب على ، أن اغفرها لك ، لأننى سمحت بها .. ولكن اجبنى ، تكلم ، اريد أن أسمع صوتك ! ..

كان فى كلماتها الأخيرة هذه فراغ الصبر الأنثوى ، ولم أملك الا أن ابتسم له بالرغم منى . ومن حسن الحظ أن الظلام كان قد بدأ يخيم .. ولم أجب بشىء .

فأردفت تقول :

ـ لا تزال صامتا ؟ لعلك تريد أن أكون أنا البادئة بالاعتراف بأننى احبك ؟

فظللت ملتزما الصمت ...

فاستأنفت تقول وهى تلتفت الى فجأة :

ـ قل ، أهذا ما تريد ؟

وكان فى قوة نظرتها وصوتها شىء يخيف. فأجبت وأنا أهز كتفى :

ـ لا داعى الى ذلك !

فضربت حصانها بالسوط ضربة قوية ، واندفعت فى الطريق الضيق الخطر لا تبالى . وبلغ عدوها من السرعة اننى لم استطع أن ألحق بها الا فى كثير من العناء ، وحين وصلت اليها كانت قد أدركت الركب . وظلت ، حتى وصلنا الى البيت ، لاتزيد على أن تضحك وتتكلم . كان فى حركاتها شىء من الحمى . ولم تلتفت الى بنظرة واحدة . لاحظ الجميع هذا المرح غير المألوف . وسرت الأميرة الأم بذلك بينها وبين نفسها . ولكن ابنتها كانت تعانى نوبة عصبية ، لا اكثر من ذلك ولا أقل . قلت فى نفسى لن تنام هذه الليلة ، وستبكى كثيرا . وأحدثت هذه الفكرة فى نفسى لذة عظيمة. ثمة لحظات أفهم ذلك الشبح الذى يخرج من القبر يمتص دماء الأحياء ... ومع ذلك فأنا أبدو فتى طيبا شجاعا ، وأفعل كل شىء من أجل ذلك .

ونزلت السيدات عن خيولهن ، ودخلن الى بيت الأميرة . كنت فى قلق واضطراب ، فمضيت أعدو على حصانى فى الجبل ، تبديدا

لهذه الافكار التى تتلاحق سريعة فى راسي . وجاء المساء رطبا بليلا بالندى ينشر طراوة مسكرة . وطلع القمر وراء الذرى المظلمة. كانت كل خطوة من خطوات حصاني تدوى فى الفجاج الصامتة دويا اصم . وأوردت دابتى شلالا من الماء . وما زلت أعب الهواء النقى من هذه الليلة الجنوبية ، حتى قفلت راجعا أعود الى بيتى . كنت أجتاز القرية . ان الأنوار أخذت تنطفىء فى النوافذ . وخفراء سور القلعة يتخاطبون مع العسس من جنود القوزاق بصوت بطىء ...

ولاحظت ضوءا غير مألوف فى بيت بنى على ضفة واد من الوديان. وسمعت اصواتا مبهمة وصرخات.لاشك انهم عسكريون يقصفون ، فوثبت عن حصانى ، واندسست تحت النافذة ، وكان احد مصراعيها لم يحكم اغلاقه ، فاستطعت أن أرى وأن أسمع . كانوا يتحدثون عنى .

كان الرئيس الخيال ، وقد استخفته الخمر وثارت حماسته ، يضرب المنضدة بيده ، يطلب الصمت والاصغاء ، ثم يقول :

ـ أيها السادة ، هذا أمر لايمكن قبوله . ان بتشورين يستحق أن نلقنه درسا . ان هؤلاء الأغرار الذين يأتون من بطرسبرج يظلون شامخين الى أن يتلقوا ضربة على الأنف حسنة . يظن انه وحده عاش فى المجتمع الراقى ، لأنه يلبس دائما قفازين نظيفين ، وينتعل حذاءين لامعين .

ـ وانظروا الى هذه الابتسامة المتكبرة ! .. الا اننى على يقين من انه جبان ، نعم ، نعم ، جبان ...

قال جروشنيتسكى :

ـ اعتقد ذلك أيضا . لقد تعود أن يتخلص من المآزق بالمزاح . فى ذات يوم ، بلغت من القسوة عليه فى الكلام أن أحدا غيره لو كان فى مكانه لقتلنى حتما . ولكنه استقبل كلامى بضحك ! طبعا ، لم أطلبه للمبارزة ... تركته وشأنه ... ثم اننى لم اشأ أن ابدأ ...

وهنا ارتفع صوت يقول :

ـ جروشنيتسكى حانق عليه لانه خطف منه الاميرة .

ـ هـذا كلام سخيف ! .. صحيح اننى توددت الى الأميرة قليلا ، ولكننى سرعان ما كففت ، لأننى لم أكن أنوى أن اتزوجها ، وليس من مبادئى أن أغرر بفتاة

قال الرئيس الخيال :

ـ أؤكد لكم انه أجبن انسان على وجه الأرض ... اقصد

بتشورين لا جروشنيتسكي... جروشنيتسكي رجل شهم شجاع. ثم انه صديقي ... أيها السادة ، هل يحب احد منكم ان يدافع عن بتشورين ؟ لا احد ؟ هذا حسن . هل تريدون أن تمتحنوا شجاعته ؟ سيسليكم ذلك ...

ـ نعم ، ولـكن كيف ؟

ـ اسمعوا . ان جروشنيتسكي هو الحاقد عليه بوجه خاص ، فعليه اذن يقع تمثيل الدور الأول : يماحكه ويناقره عند أول مناسبة تافهة ، ويطلبه للمبارزة ... انتظروا ... يطلبه للمبارزة ، نعم ... ويتم كل شيء ؛ التحدي ، التهيئـة ، الشروط ، على احسـن مايرام ... بصورة فخمة ، بصورة مؤثرة . سيكون هذا من شأني أنا . وأكون أنا مرافقك ، ياصديقي . نعم . كل شيء الى هنا حسن ! واليكم الآن المضحك في الأمر . لن نضع في المسدسـين رصاصا . وأنا كفيل لكم بأن بتشورين سيتراجع ! اضع كلا منهما على بعد ست خطوات من الآخر ... ما قولـكم أيها السادة ؟

فهتفوا من كل صوب يقولون :

ـ عظيم ، فكرة عظيمة !

ـ وانت يا جروشنيتسكي ، ما رأيك ؟

انتظرت جواب جروشنيتسكي وأنا ارتعد . ان غضبا باردا قد استولى على ، وأنا أتصور انني ، لولا هـذه المصادفة العابرة ، لاتخذني جميع هؤلاء الحمقى أضـحوكة . ولو أن جروشنيتسكي رفض ، لوثبت أعانقه . ولكنه بعد بضـع لحظات من الصمت ، نهض واقفا ، ومد يده الى الرئيس يقول :

ـ اتفقنا .

يصعب وصف الحماسة التي ظهرت عندئذ على وجوه جميـع هؤلاء الناس ! ..

وعدت الى بيتي فريسة شعورين متعارضين . اما الأول فهو شعور الحزن . « لماذا يكرهني هؤلاء الناس جميعا ؟ هل أسأت الى أحد منهم ؟ لا ... هل يمكن أن يكون منظري وحده يوحي بالكره والعداوة ؟ » وأما الشعور الثاني فهو وحشية شريرة تجتاح نفسي شيئا فشيئا . قلت وأنا أذهب وأجيء في الغرفة : « حذار ياسيد جروشنيتسكي ! .. لا مزاح من هذا النوع معي ... ستدفع غاليا ثمن مجاملتك لرفاقك هؤلاء الأغبياء ... لن أسمح بأن أكون العوبتكم ! .. »

ولم استطع أن اغمض جفني الليل كله . حتى اذا نهضت من فراشي فى الصباح كان وجهى أصفر كليمونة .
ولقيت الأميرة عند البئر ، فى الضحى . قالت وهى تحدق الى :
ـ انت مريض ؟
ـ لم انم طوال الليل .
ـ ولا انا نمت . كنت اتهمك ... ربما ظلما . ولكن اشرح ... اننى استطيع أن أغفر لك كل شيء ...
ـ كل شيء ، حقا ؟
ـ نعم ، على شرط أن تقول الحقيقة ... اسرع ... لقد فكرت طويلا . وحاولت أعلل سلوكك ، وان ابرره ... لعلك تخشى بعض العوائق من جهة أهلى ؟ ولكن ليس هذا شيئا ... (وهنا اضطرب صوتها) سأتوسل اليهم ... لعل هذا هو وضعك ... ولكن تق اننى استطيع أن أضحى بكل شيء فى سبيل من احب... اوه ! أجبنى بسرعة ، ارحمنى ... ألا تحتقرنى ؟ قل !
وكانت قد امسكت بيدى .
كانت أمها تسير أمامنا مع زوج فيرا ، فلم تر شيئا . ولكن المرضى الذين يتنزهون كان يمكنهم أن يرونا ... وهم أطول الناس لسانا فى النميمة ، فسرعان ما سللت يدى من وثاقها العنيف الجامح . وقلت لها :
ـ سأقول لك الحقيقة كلها ، لا أحاول أن ابرر نفسى ، ولا أن اعلل سلوكى . انا لا احبك .
فاصفرت شفتاها قليلا ، وقالت بصوت لا يكاد يسمع :
ـ دعنى .
فهززت كتفى ، ثم أدرت لها ظهرى ، وابتعدت .
١٤ حزيران .
اننى لأحتقر نفسى فى بعض الأحيان ... ترى أليس هذا هو السبب فى اننى احتقر الآخرين ؟... لقد اصبحت عاجزا عن الاندفاعات النبيلة ، اذ أخشى أن أصبح فى نظر نفسى مضحكا . لو كان غيرى فى مكانى ، لقدم للأميرة * Son Cœur et sa Fortune ولكن كلمة الزواج تفعل فى نفسى فعل السحر ، فقد أحب امرأة من النساء حبا جامحا عنيفا ، حتى اذا أشعرتنى قليلا بأن على أن اتزوجها ، زال حبى ، ومضى ! ان قلبى يصبح عندئذ كصخرة ، فلا

* قلبه وثروته . (بالفرنسية فى الأصل) م

يحركه بعد ذلك شيء . انني قادر على جميع التضحيات ، الا هذه ... يمكن أن أجازف بحياتي عشرين مرة ، بل قد اجازف بشرفي ايضا .. ولكنني لن أبيع حريتي . ترى ما الذى يجعلها غالية عندى الى هذه الدرجة ؟... ماذا أجد فيها ؟ ما الذى أعد له نفسي ؟ ماذا انتظر من المستقبل ؟... يمينا ، لا شيء . ولكنه خوف فطرت عليه ، وتوجس لا استطيع تعليله ... ثمة اناس يخافون من العناكب ، من الصراصير ، من الفئران ، دون أن يعرفوا لخوفهم هذا سببا . هل اعترف لكم بشيء ؟ حين كنت صغيرا تنبأت امرأة عجوز لأمي بأن الموت سيأتيني من زوجة شريرة . ولقد اضطربت يومئذ اضطرابا عميقا ، وأصبحت أنفر من الزواج نفرة لا سبيل الى مغالبتها ... ومع ذلك ... ان شيئا يهتف بي ان النبوءة ستتحقق . سأحاول على الأقل أن أرجئها ما استطعت الارجاء .

١٥ حزيران ·

وصل امس الى هنا المشعوذ ابفلباوم . ولقد الصق على باب المطعم اعلان طويل يزف الى الجمهور الكريم أن الملقب بأبفلباوم ، الحاوى المدهش ، البهلوان الرائع ، العالم فى الكيمياء والضوء ، يسره أن يقيم حفلة كبرى فى الساعة الثامنة من مساء هذا اليوم نفسه ، فى صالون الطبقة الراقية (اى فى المطعم) . ثمن التذكرة : روبلان ونصف روبل .

ان جميع الناس يريدون أن يذهبوا الى المطعم لمشاهدة الحاوى المدهش . وقد اشترت الأميرة ليجوفسكايا تذكرة ، رغم أن ابنتها مريضة ، وستذهب وحدها .

بعد الغداء ، مررت تحت نوافذ فيرا . كانت وحدها على شرفتها ، فاذا برسالة منها تسقط بين قدمى .

« هذا المساء فى الساعة العاشرة ، تعال الى ، من السلم الكبير . ذهب زوجي الى بياتيجورسك ، ولن يعود الا فى صباح الغد . لا الخدام ، ولا الخادمات ، لن يكونوا فى البيت . اشتريت لهم جميعا تذاكر ، وكذلك لخدام الأميرة . انتظرك . تعال حتما » .

قلت لنفسي : «ها ها... قد وصلت أخيرا الى ما كنت أريد».

ذهبت الى المطعم لمشاهدة المشعوذ ، فى الساعة المضروبة . ولم يلتئم جمع الجمهور الا فى الساعة التاسعة . ثم بدأت الحفلة . رأيت خدام وخادمات فيرا والأميرة فى الصفوف الأخيرة . كانوا جميعا هناك . ورأيت جروشنيتسكى فى الصف الأول ، يحمل

نظارته ، واليه كان يتوجه المشعوذ كلما كان فى حاجة الى منديل ، أو ساعة ، أو خاتم ، أو ما شاكل ذلك .

ان جروشنيتسكى لا يحييني منذ مدة . وقد نظر الى اليوم مرتين شزرا ، فى شيء من الوقاحة . سأذكره بذلك كله فى حينه.

وقبل الساعة العاشرة بقليل ، نهضت ، وخرجت . كان الظلام فى الخارج دامسا . وكانت سحب ثقيلة باردة ، تجثم على ذرى الجبال المجاورة . ومن حين الى حين تهب نسمة خفيفة بطيئة ، تهز رءوس أشجار الحور حول المطعم . فيسمع حفيف أوراقها خفيفا . كان الجمهور يسارع الى النوافذ . وهبطت الهضبة . حتى اذا تجاوزت الباب الكبير الذى تدخل منه العربات حثثت الخطا . فتراءى لى فجأة أن شخصا يسير ورائى . فتوقفت أنظر . كان يستحيل على أن أرى فى هذه الظلمة الكثيفة شيئا . وعلى سبيل الاحتراس ، درت حول البيت ، كمن يتنزه . فلما مررت تحت نوافذ الأميرة مارى سمعت مرة أخرى ، وقع خطوات ورائى : ومر بسرعة خاطفة ، رجل يرتدى معطفا عسكريا. فتطيرت من ذلك . غير اننى اقتربت من درج الباب بخفة ، وصعدت السلم فى الظلام بسرعة . وفتح الباب ، وامتدت يد صغيرة تمسك بيدى. قالت فيرا وهى تشد نفسها الى :

ــ هل رآك أحد ؟

ــ لا .

ــ هل أنت مقتنع الآن بأننى احبك ؟ آه . لقد ترددت كثيرا ، وتألمت كثيرا ... ولكنك تصنع بى ما تشاء .

كان قلبها يخفق بقوة ، وكانت يداها باردتين كالثلج . وبدأ عتاب الغيرة ، وبدأ اللوم والشكوى . وأخذت تستحثنى على أن أعترف لها بكل شيء ، قائلة انها ستتحمل خيانتى لها دون تذمر ، لأنها لا ترغب الا فى شيء واحد ، هو أن ترانى سعيدا . لم أصدقها تماما ، ولكننى هدأت روعها بالعهود والوعود الى آخر ما هنالك .

ــ اذن لن تتزوج مارى ؟ اذن انت لا تحبها ؟ وهى تظن ... هل تعرف انها مجنونة غراما بك ؟ مسكينة مارى ! ..

... ...

... ...

وفى الساعة الثانية من الصباح ، فتحت النافذة وانزلقت على عامود مستعينا بشالين ربط أحدهما بالآخر ، حتى وصلت الى

الشرفة تحت . لايزال فى غرفة مارى ضوء . وشعرت بشىء يدفعنى نحو نافذتها . لم تكن الستارة مسدولة تماما ، فاستطعت أن ألقى على غرفتها نظرة مستطلعة . كانت مارى جالسة على سريرها ، وقد شبكت يديها على ركبتيها . وكان شعرها الكثيف مضموما تحت قلنسوة صغيرة لليل يزينها حرير مخرم ، وكان يغطى كتفيهــا الأبيضين شال أحمر ، وكانت قدماها الصغيرتان مختبئتين فى بابوج عجمى صارخ الألوان . كانت ساكنة خافضة رأسها ، وأمامها كتاب مفتوح فوق منضدة صغيرة ، ولكن عينيها الجامدتين المليئتين بحزن قاهر كانتا كأنهما تطوفان على هذه الصفحة للمرة المائة ... انها شاردة اللب .

وفى هذه اللحظة سمعت شيئا يتحرك وراء دغل . فقفزت من الشرفة التى كنت عليهــا الى الأرض فوق العشب ، فاذا يد لا أراها تقع على كتفى ، ويقول صاحبها بصوت خشن :

ــ ها ... لقد قبضت عليك متلبسا بالجرم ! تذهب الى الأميرات فى الليل ؟ !

وصاح صوت آخر خرج من الظلام :

ــ اقبض عليه جيدا !

انهما جروشنيتسكى والرئيس الخيال .

فهويت على رأس هذا الأخير بضربة أسقطته على الأرض ، ووليت هاربا بين الأشجار الكثيفة . كنت أعرف جميع ممرات الحديقة التى تغطى المنحدر أمام بيوتنا . وسمعتهما يصرخان :

ــ سارق ، سارق ، اقبضوا على السارق !

وسمعت صوت طلقة من بندقية ، وسقطت بين قدمى تقريبا باشورة مدخنة .

وبعد دقيقة كنت فى بيتى . خلعت ثيابى ، واستلقيت على سريرى . وما كاد خادمى يقفل بالمفتاح ، حتى جاء جروشنيتسكى والرئيس يطرقان الباب .

وسمعت الرئيس يصيح :

ــ بتشورين ! انت نائم ؟ انت هنا ؟

فقلت محتدا :

ــ نعم ، أنا نائم !

ــ انهض ، انهض ، هناك لصوص ... شراكسة .

ــ اننى مصاب بزكام وأخاف أن يدركنى برد .

وذهبا . لقد أخطأت اذ رددت عليهما . كان ينبغي ان ادعهما يبحثان عنى ساعة أخرى فى الحديقة . وأطلقت اشارة الخطر أثناء ذلك . فوصل أحد القوزاق من القلعة ، وكان هرج ومرج عم جميع الناس . أخذوا يبحثون عن الشراكسة بين جميع الأدغال ، فلم يجدوا أحدا ، طبعا ... ولكن ظل كثيرون يعتقدون أن عشرين لصا من اللصوص على الأقل كان يمكن القبض عليهم فورا . لو أن الحامية اظهرت مزيدا من السرعة والبراعة .

١٦ حزيران .

لم يكن للناس من حديث فى هذا الصباح ، عند البئر ، الا هجوم الشراكسة فى الليل . أفرغت فى جوفى من مياه نارزان العدد المعين من الكئوس ، وأخذت اتجول تحت أشجار الزيزفون فى الممر ، فلما كنت أذهب وأجىء كثيرا ، لقيت زوج فيرا الذى عاد من بياتيجورسك منذ قليل ، فأمسك بذراعى . وذهبنا الى المطعم نتناول طعام الغداء . كان قلقا على زوجته اشد القلق . قال :

ـ لقد خافت فى الليلة البارحة كثيرا ... هل كان من الضرورى أن لا يقع هذا الا أثناء غيابى ؟ ! ..

جلسنا الى المائدة نتغدى ، على مقربة من الباب الذى يطل على غرفة فى الركن . كان فيها ما يقرب من عشرة شباب بينهم جروشنيتسكى . وهأنذا أسمع ، للمرة الثانية ، على سبيل المصادفة ، حديثا سيعين مصيره . كان لايرانى ، فلا يمكن أن أقدر اذن انه قال ما قال عن خطة مقصودة . ولكن ذنبه من أجل ذلك لا يصغر فى رأيى بل يكبر .

سأل أحدهم :

ـ هل كانوا شراكسة حقا ؟ ثم هل رآهم أحد ؟

فأجاب جروشنيتسكى :

ـ سأقص عليكم الحكاية كلها ، ولكن اياكم أن تشوا بى . هذا ما وقع : جاءنى أمس رجل لن أسميه لكم يقول انه رأى شخصا يتسلل فى نحو الساعة العاشرة من المساء الى بيت السيدتين ليجوفسكايا . لاحظوا أن الأميرة الأم كانت هنا ، وأن ابنتها بقيت وحدها فى المنزل . فذهبنا معا ، ورابطنا تحت نافذتها لنراقب ذلك الانسان السعيد .

اعترف اننى خفت ، رغم أن مؤاكلى كان منهمكا بتناول طعامه . فلقد كان يمكن أن يسمع شيئا يسوءه لو أن جروشنيتسكى حزر

الحقيقة . لكنه ، وقد أعمته الغيرة ، لم تخطر له الحقيقة ببال .
واستمر جروشنيتسكي يقول :
ــ وقد ذهبنا ببندقية مشحونة بخرطوشة بدون رصاص ، على سبيل التخويف . وظللنا ننتظر في الحديقة حتى الساعة الثانية من الصباح ، وأخيرا ظهر رجل ، لا ندري من أين جاء . لم يهبط من النافذة على كل حال . لأن النافذة كانت موصدة . ولا بد انه مر من الباب الزجاجي وراء العـــامود . المهم اننا رأينـــاه يهبط من الشرفة ... يا لهذه الأميرة ! آه من آنسات موسكو ! بمن يثق الانسان ، والى من يطمئن ؟ وأردنا أن نقبض عليه ، ولكنه فر منا ، وولى هاربا كالأرنب بين الأدغال . وعندئذ أطلقت النار .

هنا قامت حول جروشنيتسكي جلبـــة من عدم التصـــديق ، فأردف يقول :
ــ الا تصدقون ؟ اقسم لكم بشرفي انني لم اقل غير الحقيقة ، واذا شئتم برهانا على ذلك سميت لــكم الشخص .
فصاحوا به من كل جانب :
ــ سمه ، سمه ، من هو ؟
فقال جروشنيتسكي :
ــ هو بتشورين .
وفي هذه اللحظة ، رفع بصره ، فرآني على العتبة ، أمامه تماما. فاصطبغ وجهه بلون القرمز . اقتربت منه ، وقلت له ، على مهل، بصوت واضح :
ــ يؤسفني كثيرا انني لم ادخل الا بعد أن حلفت بشرفك أن تدعم أحقر افتراء ، وأحط أكذوبة . فلو أنني دخلت قبل ذلك لمنعك وجودي من اقتراف هذه الرذيلة الأخيرة زيادة على الرذائل التي سبقتها.

فنهض فجأة ، وأراد أن يعلو علي في القول ، فتابعت كلامي دون أن أغير من لهجتي شيئا :
ــ اسحب ما قلت فورا ، فأنت تعلم انه محض اختلاق . ولا اعتقد أن عدم اهتمام سيدة بمزاياك اللامعة يستحق انتقاما حقيرا الى هذا الحد من الحقارة . فكر في الأمر ، فاذا أصررت على مزاعمك ، فقدت الحق في أن تسمي رجلا شريفا ، وعرضت حياتك للخطر .
كان جروشنيتسكي واقفا أمامي ، خافض البصر ، مضطربا أشد الاضطراب . ولكن الصراع بين ضميره وكبريائه لم يدم طويلا ، كما

ان الرئيس الخيال الذى كان جالسا الى جانبه ، لكزه بكوعه . فانتفض وقال بسرعة ، دون أن يرفع بصره :

ـ ايها السيد العزيز ، حين أقول شيئا ، فاننى اعنيه ، واننى مستعد لتكراره... لستأخاف تهديداتك. وانا مستعد لكل شىء .

فأجبته ببرود :

ـ هذا ، قد سبق أن اظهرته .

ثم امسكت بذراع الرئيس الخيال ، وخرجت من الغرفة .

قال الرئيس :

ـ ماذا تريد ؟

قلت :

ـ انت صديق جروشنيتسكى ، ولا شك انك ستكون مرافقه .

فانحنى الرئيس فى احتفال ، وأجاب :

ـ نعم ، هذا صحيح ، بل ان من واجبى أن أكون مرافقه ، لأن الاهانة التى وجهتها اليه تصيبنى انا ايضا .

واضاف وهو ينصب قامته المقوسة قليلا :

ـ لقد كنت معه فى الليلة البارحة .

ـ ها ! هذا أنت اذن من هويت على رأسه بضربة طائشة .

فاصفر من ذلك وجهه ، ثم ازرق ، وارتسمت عليه آثار غضب مكبوح . واضفت اقول ، وأنا احييه فى لطف ولباقة ، متظاهرا باننى لم الاحظ غضبه :

ـ يشرفنى أن ابعث اليك اليوم بمرافقى .

وخرجت من المطعم ، فوجدت زوج فيرا. اعتقد انه كان ينتظرنى.

فشد على يدى بعاطفة تشبه أن تكون اعجابا ، وقال والدموع فى عينيه :

ـ مرحى لك أيها الفتى الباسل ! لقد سمعت كل شىء ... هذا الجرو! يا له من عاق...كيف يستقبلون بعد هذا فى بيت محترم ! الحمد لله على اننى ليس لى بنت ! ولكن تلك التى تجازف بحياتك من اجلها ستكافئك .

ثم أضاف يقول :

ـ كن واثقا كل الثقة من كتمانى للأمر ، ما لزم الكتمان . لقد كنت شابا ، أنا أيضا ، وخدمت فى الجيش ، وأعرف أن الانسان يجب أن لايتدخل فى هذه الأنواع من الأمور . الى اللقاء .

مسكين . يفرح لأنه ليس له بنت ! ..

ومضيت رأسا الى فرنر ، ووجدته فى بيته ، فقصصت عليه كل شيء : علاقاتي بفيرا ، بالأميرة الصغيرة ، والحديث الذى سمعته والذى علمت منه ما ينتويه هؤلاء السادة من العبث بى والسخر منى ، اذ يريدون أن نطلق خرطوشة فارغة . ولكن الأمر خرج الآن من نطاق المزاح . ولا شك انهم ما كانوا يتوقعون هذا الحل .

فوافق الدكتور على أن يكون مرافقي ، وذكرت له بعض المعلومات المتصلة بشروط المبارزة ، وقلت له أن يلح على أن يتم الأمر بلا جلبة ، لأننى اذا كنت مستعدا لمجابهة الموت ما شاءوا ذلك ، فلست أبدا مستعدا لافساد مستقبلى فى هذه الحياة الى الأبد .

ثم عدت الى منزلى . وجاء الى الدكتور بعد ساعة من ذلك ، يقص على ما أسفرت عنه مهمته . قال :
ــ انها مؤامرة مدبرة حقا . لقد وجدت عند جروشنيتسكي ، الرئيس الخيال وسيــــدا آخر يفوتنى اسمه . وتوقفت لحظة فى حجرة المدخل اخلع نعلى ، فسمعت صراخا وشجارا فى الداخل . كان جروشنيتسكى يقول : « مستحيل ، لقد أهاننى على ملأ من الناس » . فأجابه الرئيس : « وما الذى يضـيرك فى هذا ؟ سأتحمل أنا العبء كله . لقد كنت مرافقا فى خمس مبارزات ، وأعرف كيف أدبر الأمر . لقد فكرت فى كل شيء . من فضلك لا تمنعنى . سيخاف : وسيفيده ذلك ... ولماذا تعرض نفسك للخطر مع انك تستطيع تحاشيه ؟ ... »

وهنا دخلت ، فصمتوا ، وطالت مباحثاتنا . واليك ما انتهينا اليه من قرار . هناك ، على مسافة خمســة فرستات ، فج منعزل سيذهبون اليه غدا فى الساعة الرابعة من الصباح ، ونذهب نحن بعدهم بنصف ساعة . وقد أصر جروشنيتسكى على أن تطلقا على مسافة ست خطوات . وسيموت أحدكما ، فيســـند ذلك الى الشراكسة . ولكننى أظن أن المرافقين قــد عدلوا خطتهم الأولى قليلا ، فهم يريدون أن يشحنوا فقط مســـدس جروشنيتسكى بالرصاص . جريمة عن سابق عمد وتصميم ... ولكن فى أيام الحرب ، ولاسيما بآسيا ، كل الحيل مباحة . ومع ذلك فان جروشنيتسكى يبدو لى أقل خسة من أصدقائه . ما رأيك ؟ هل علينا أن نبين لهم اننا اكتشفنا كل شيء ؟
ــ أبدا يا دكتور ! اطمئن بالا ، لن يغدروا بى .
ــ ماذا تنوى أن تفعل ؟

ــ هذا سرى !
ــ كن على حذر ! ... لاحظ انكما على بعد خطوات !
ــ دكتور ، انتظرك غدا فى الساعة الرابعة ، ستكون الخيل مهيأة ... الى اللقاء !

قبعت فى غرفتى مساء فجاءنى الخادم يدعونى الى الأميرة فطلبت منه أن يقول لها اننى مريض .

... ...

دقت الساعة الثانية من الصباح ، ولم يغمض لى جفن . يجب ان أنام مع ذلك ، حتى لا تهتز يدى . ولكن على بعد ست خطوات ، يصعب أن تخيب الطلقة . آه يا سيد جروشنيتسكى ، لن تنفعك حيلتك ! ... انقلبت الآية ، وسوف يستلم كل منا دور الآخر . على أنا الآن أن الاحظ فى وجهك المتقع علامات خوفك الخفى . لماذا عينت أنت نفسك هذه المسافة المشئومة ، مسافة ست خطوات ؟ تتخيل اننى سأقدم لك راسى لقمة سائغة ؟ ولكننا سنضرب القرعة وعندئذ ... عندئذ ... ماذا لو حالفه الحظ ؟ ماذا لو خاننى نجمى ؟ .. هذا ممكن جدا . لقد خدم الحظ نزواتى الى الآن . ولكن الثبات نادر فى السماء ندرته فى الأرض .

حسن ، اموت ان كان يجب أن اموت ... ولن تكون خسارة العالم فى عظيمة وأنا ، ألست ضجرا أعمق الضجر ؟ اننى كرجل يتثاءب فى حفلة راقصة ، ثم لا يمضى الى النوم ، لا لشىء الا لان عربته ليست هناك . ولكن العربة تقدمت ... عموا مساء !...

استعرضت ماضى كله ، وتساءلت : لماذا عشت ؟ ولأية غاية خلقت ؟ ذلك ان كان ثمة غاية ، ولا شك انها غاية كبيرة ، لاننى اشعر بقوى هائلة فى نفسى ... ولكننى لم أفهم مصيرى الذى خلقت له ، بل كان يجرنى سراب أهواء عقيمة عاقة ، خرجت من بوتقتها صلبا باردا كالفولاذ ، ولكننى فقدت الى الأبد حرارة الحماسة النبيلة ، وهى أجمل ما فى الحياة . وبعد ذلك ، كم مرة كنت كفأس فى يد القدر ! فانقضضت كالحسام على رءوس الضحايا ، دون كره فى كثير من الأحيان ، ودون شفقة فى جميع الأحيان ... وحبى لم يسعد أحدا ، لأننى لم أضح بشىء فى سبيل من احببتهن . أحببت لنفسى ، للذتى الخاصة . كنت لا أزيد على ارواء مطالب قلبى الغريبة ، واغتذى بعواطف ضحاياى وبحبهن الرقيق ، وبأفراحهن وآلامهن ، أغتذى من ذلك كله فى شراهة ، دون أن اتوصل الى

الشبع قط ، مثلى كمثل ذلك الشقى الذى هده الجوع ، ثم نام ، فاذا هو يرى فيما يرى النائم مآكل شهية فاخرة ، وخمورا معتقة طيبة ، فيأخذ يلتهم من هذه الهدايا السحرية التى أوجدها خياله ما شاء له الالتهام ، فيشعر بالراحة والرضا ، ولكنه ما يكاد يفيق حتى تغيب الرؤيا ، ويحل محلها الجوع مرة أخرى ، أقوى مما كان، ويحل اليأس !

قد اموت غدا ! ... لن يبقى عندئذ على وجه الأرض شخص فهمنى ... بعضهم يظننى أسوأ مما كنت ، وبعضهم الآخر يحسبنى خيرا مما كنت ... سيقول بعضهم : كان نعم الفتى ، وسيقول بعضهم الآخر : كان رجلا وغدا حقيرا . انهم جميعا على خطأ . وبعد ، فهل تستحق الحياة أن يعيشها الانسان ؟ ولكننا نعيش على كل حال ، من قبيل حب الاطلاع ، ننتظر جديدا ... بؤس وضلال !

انني فى قلعة ن ... منذ شهر ونصف شهر . لقد ذهب مكسيم مكسيمتش الى الصيد . وانا جالس الآن وحدى الى النافذة . هذى سحب شهباء تغطى الجبال . والشمس تبدو من خلال الضباب بقعة صفراء . كان الطقس باردا والريح تصفر ، وتهز المصاريع . انني أشعر بضجر ! ... سأتم كتابة يومياتى التى حالت بينى وبين اتمامها احداث غريبة كثيرة .

لقد قرات الصفحة الأخيرة . انها تضحكنى على كل حال . كنت أظن اننى سأموت . ولكن ذلك كان مستحيلا ، ذلك اننى لم أكن قد تجرعت كأس المرارة حتى آخر قطرة . والآن أشعر اننى سأعيش مدة طويلة أيضا .

كم يبدو لى الماضى واضحا قويا فى ذاكرتى ! ان الزمن لم يمح منه خطا ولا لونا !

فى الليلة التى سبقت المبارزة ، ما ازال اذكر ذلك لم أستطع أن أنام دقيقة واحدة ... وما استطعت أن أكتب خلال بضع لحظات الا بشق النفس . كنت فريسة غم خفى تملك نفسى . وبعد أن ذرعت غرفتى جيئة وذهابا مدة ساعة كاملة ، جلست ، وفتحت رواية لوالترسكوت كانت تثوى على منضدتى منذ مدة طويلة : انها رواية « بيورتانيو ايقوسيا » . بذلت فى أول الأمر شيئا من الجهد للقراءة ، ولكننى ما لبثت أن انجرفت مع هذه القصة الخيالية الرائعة ، فنسيت كل شيء ... هل يمكن أن لايكافأ الشاعر الايقوسى

في الحياة الأخرى بلحظات من هذه السعادة الخالدة التي يهيئها لنا كتابه ؟

واخيرا طلع النهار ... كان اضطرابي قد هدأ قليلا . ونظرت الى نفسي في المرآة . كان وجهي الذي يحتفظ بآثار أرق مؤلم شاحبا شحوبا شديدا . ولكن عيني ، رغم أنهما محاطتان بهالة مزرقة ، كانتا تلتمعان ببريق من الزهو والغيظ . كنت راضيا عن نفسي .

امرت أن تسرج الخيل ، وارتديت ثيابي ، وأسرعت الى الحمام ؛ وغطست في نارزان البارد الفائر ، فشعرت بارتداد قواى الجسمية والمعنوية الى . وخرجت من الماء ، غضا مرحا كأنني ذاهب الى حفلة راقصة . هل تدعون بعد ذلك أن النفس لا تتعلق بالجسم ؟ !

فلما عدت الى بيتي وجدت الدكتور ينتظرني. كان يرتدي سروالا اشهب ، ويكسو رأسه بقلبق شركسي . فلما رأيت جسمه الصغير تحت هذا الفيلق الكبير من الفراء ، انفجرت ضاحكا . ليس في شكله شيء من ملامح القتال والمقاتلين ، مع ان وجهه بدا لي في هذه اللحظة أطول مما كنت أراه عادة .

ـ لماذا أراك حزينا يا دكتور ؟ الم تكن تودع مئات من المسافرين الى العالم الآخر ، دون أن تبالي ؟ هب انني مصاب بحمى الصفراء ؛ وان من الممكن أن أموت أو أن ارتد الى عافيتي ، وكلا الأمرين طبيعي ، فحاول أن تعدني شخصا مصابا بمرض من الأمراض ، وأن تتصور ، انك لا تعرف هذا المرض ، فعندئذ سيثور فيك حب الاطـلاع الى أبعد الحدود ! انك تستطيـع الآن أن تجري على ملاحظات فيزيولوجية في غاية الخطورة . أليس انتظار موت عنيف مرضا في حقيقة الأمر ؟

فاجأته هذه الفكرة ، وعاد اليه صفاء مزاجه ، وركب كل منا حصانه ، وتمسك فرنر بالأعنة بكلتا يديه ، وسرنا نعدو . وما هي الا طرفة عين حتى اجتزنا القلعة ، وقطعنا القرية ، ودخلنا الفج الذي يتلوى فيه الطريق ، تغطيه الأعشاب الكبيرة ، وتعترضه في كل لحظة ساقية صاخبة يجب اجتيازها مخاضـــا ، لسوء حظ الدكتور كان يحلو لحصانه أن يتوقف في وسط الساقية تماما .

لا أذكر انني شهدت صباحا أكثر زرقة وطراوة من ذلك الصباح. كانت الشمس تطلع من وراء الذرى المخضوضرة ، وكانت حرارة أشعتها الأولى الممتزجة برطوبة الليل المنصرم ، تنفذ الى جميع حواسي في خدر عذب . ان ضوء النهار الذي يولد لما ينفذ الى

الفج بعد ، ولكنه يذهب رءوس الصخور التى كانت تمتد فوق رءوسنا ، يمنة ويسرة . وكانت الشجيرات ذات الأوراق الكثيرة ، التى تنمو فى الشقوق العميقة من الصخور ، تمطرنا برذاذ من الماء فضى ، متى هبت نسمة خفيفة . أذكر اننى احببت الطبيعة فى تلك اللحظة أكثر مما أحببتها فى أى وقت مضى من حياتى . كنت أراقب كل قطرة من قطرات الندى تخفق على أوراق العنب وتعكس ملايين شعاع متلون بألوان قوس قزح ! وكان بصرى يذهب الى الآماد البعيدة التى تمتلىء بالبخار ، فى شراهة ما بعدها شراهة ! هنالك يبدو الطريق كأنه يضيق ثم يضيق ... والصخور التى تزداد زرقتها ورهبتها تشكل ما يشبه أن يكون جدارا لايمكن اجتيازه .
كنا نسير صامتين .

وسألنى الدكتور فجأة :

ــ هل معك وصيتك ؟

ــ لا ...

ــ واذا قتلت ؟

ــ اطمئن بالا ... الذين سيرثوننى ، سيعرفون بأنفسهم .

ــ ماذا ؟ أما من صديق تريد أن تقول له وداعا ؟

فهززت راسى .

ــ أما من امرأة تريد أن تترك لها ذكرى ؟

ــ هل تريد يا دكتور أن أفتح لك نفسى ؟ لقد تجاوزت السن التى اذا مات فيها الانسان ، مات وهو يلفظ اسم حبيبته الغالية ، ويهدى الى صديقته خصلة من شعره معطرة أو غير معطرة . حين أفكر فى امكان موت قريب ، لا أفكر الا فى نفسى وحدها . أما بعض الناس فلا يفعلون حتى ذلك . ما لى وللأصدقاء الذين سرعان ما ينسوننى ، وقد يلفقون فى حقى ما لا يعلمه الا الله من أقاويل ، وما لى وللنساء اللاتى حين سيقبلن رجلا آخر ، سيسخرون منى حتى لايغار صاحبهن من ميت ؟ ومن عواصف الحياة ، رجعت ببعض الأفكار فقط ، ولم أرجع بعاطفة واحدة . وأنا أعيش بالعقل لا بالقلب ، منذ مدة طويلة . اننى ازن أهوائى وأفعالى وأحللها بنوع من حب الاطلاع الحيادى البارد . ان فى نفسى رجلين : واحدا يعيش (بأوسع معانى هذه الكلمة) وآخر يفكر ويحكم على الأول . بعد ساعة ، قد يقول لك احدهما وداعا ، ويقول للدنيا وداعا ، والثانى ... الثانى ؟ ... أنظر يا دكتور ، ألا ترى على اليمين

فوق الصخرة ، ثلاثة أشباح سوداء ؟ انهم خصومنا ، فيما أظن ...
وحثثنا الخطا .
كان على سفح الصخرة ثلاثة أحصنة ربطت بأشجار ، فربطنا حصانينا نحن أيضا ، واجتزنا ممرا ضيقا ، فوصلنا الى المكان الذى كان ينتظر فيه جروشنيتسكى ، والرئيس الخيال وشخص يدعى ايفان اجناتييفيتش ، كنت أجهل يومئذ كنية أسرته .
قال لى الرئيس وهو يبتسم ابتسامة ساخرة :
ــ لقد تأخرت .
فأخرجت ساعتى ، وأريته اياها .
فاعتذر قائلا ان ساعته متقدمة .
وساد صمت شاق ، خلال بضع دقائق ، ولكن الدكتور قطع الصمت متجها بالكلام الى والى جروشنيتسكى :
ــ أيها السيدان ، لقد اظهرتما كلاكما استعدادكما للمبارزة ، فخضعتما بذلك لقواعد الشرف . ويلوح لى أنكما تستطيعان الآن أن تتفاهما وان تحلا هذه المشكلة على صفاء ومحبة .
فقلت :
ــ أنا مستعد لذلك كل الاستعداد .
فغمز الرئيس جروشنيتسكى الذى ظن اننى خائف ، فشمخ بأنفه ، رغم انه كان الى ذلك الحين ممتقع اللون ، ورفع بصره نحوى . هذه أول مرة ينظر فيها الى منذ وصلنا . ولكن كان فى نظرته شىء من القلق يدل على صراع فى نفسه . قال :
ــ أبسط شروطك ، وثق ان كل ما أستطيع أن أفعله من أجلك ، سأفعله ..
ــ هــذه شروطى : أن تسحب اليوم على رءوس الأشــهاد افتراءاتك وأن تعتذر لى ...
ــ أيها السيد ، انه ليدهشنى أن تجرؤ على طلب شىء كهذا .
ــ وما عسى أن أطلب غيره ؟
ــ هيا ، انتهى الأمر ، سنتبارز .
فهززت كتفى ، وقلت :
ــ أعتقد ... ولكن لاحظ ان أحدنا سيقتل لا محالة .
ــ أتمنى أن تكون أنت المقتول .
ــ وأنا واثق من العكس .
فاضطرب واحمر ثم انفجر يضحك بتصنع .

وامسك الرئيس بذراعه ، وجره بعيـــدا عنا ، وتحادثا طويلا بصوت خافت . لقد كنت حين وصولى هادئا ، ولكن هذا كله اخذ يخرجنى عن طورى .

واقترب منى الدكتور ، وقال لى بصوت واضح الاضطراب :

ــ يظهر أنك نسيت مؤامرتهم ؟ أنا لا أعرف كيف يشـــحن المسدس ، ولكن من أجل هذا الظرف ... يا لك من رجل عجيب ! قل لهم انك تعرف مؤامرتهم .. وعنـــدئذ لا يجرءون .. أتريد اذن أن يسقطوك كعصفور ؟ ...

ــ اطمئن يا دكتور ، ارجوك ، ودعنى أتصرف ... ســأدبر الأمر بحيث لا يفوقوننا فى شيء ... دعهم يتهامسون .

ثم قلت بصوت عال :

ــ ايها السادة لقد غدا الأمر مضجرا حقا . اذا كان علينا أن نقتتل ، فلنقتتل ... لقد اتسع وقتكم للتفاهم أمس ...

فقال الرئيس :

ــ نحن مستعدون . الى مكانيكما ايها السيدان . دكتور هل لك أن تقيس الخطوات الــت ؟ ...

فكرر ايفان اجناتييفيتش يقول بصوت حاد :

ــ الى مكانيكما أيها السيدان .

قلت :

ــ اسمحوا لى ! ان لى شرطا آخر . مادمنا سنقتتل قتـــال موت ، فيجب أن نعمل كل ما نستطيع عمله من أجل أن يبقى الأمر سرا ، ومن أجل أن يطمئن بال مرافقينا . ما رأيكم فى هذا ؟

ــ موافقون .

ــ اليكم ما تخيلته : هل ترون هناك ، فوق ، على اليمين عند راس هذه الصخرة المنحدرة ، تلك السطيحة الضيقة ؟ ان المسافة بين الذروة والقاعدة تبلغ ما يســـاوى ١٢٠ ذراعا ، أو يزيد . والصخور فى الأسفل ذات رءوس حادة . أقترح أن يقف كل منا على حافة تلك السطيحة ، وبذلك تصبح أصغر اصابة قاتلة . ولا شك ان هذا يتفق مع رغباتكم ، لأنكم أنتم عينتم مسافة الخطوات الست . فالذى يجرح منا يسقط فى الهاوية ، فيموت حتما . ويتولى الدكتور اخراج الرصاصة ، ويسهل عندئذ تعليل الموت بأنه زلة قدم . ونترك للحظ أن يعين البادىء باطلاق النار . ولا بد لى أن اقول لكم فى الختام اننى لن أقتتل على غير هذه الصورة .

فقال الرئيس :
ـ موافقون .
قال ذلك ، وهو ينظر نظرة ذات دلالة الى جروشنيتسكى الذى هز رأسه بالموافقة . كان وجه جروشنيتسكى يتغير تعبيره من لحظة الى أخرى . لقد وضعته فى موقف صعب . كان يمكنه ، لولا اقتراحى ذلك ، أن يصوب رصاصة الى ساقى وأن لا يجرحنى الا جرحا يسيرا ، فيسره عندئذ أن يكون قد انتقم منى ، دون أن يحمل ضميره وزرا ثقيلا . أما الآن ، فلم يبق الا أن يطلق رصاصته فى الهواء ، أو أن يصبح قاتلا ، اللهم الا أن يعدل عن مشروعه الحقير ، ويقاتلنى قتال الند للند ، معرضا نفسه لما يعرضنى له من خطر . لا يمكن أن أتمنى أن أكون فى مثل موقفه فى تلك اللحظة ! لقد جر الرئيس بعيدا عنا ، وأخذ يكلمه فى حرارة . لقد رأيت اضطراب شفتيه الشاحبتين . ولكن الرئيس أشاح بوجهه عنه ، وهو يبتسم ابتسامة الاحتقار ، وقال له بصوت يكاد يكون عاليا :
ـ انت أبله ! ... لا تفهم شيئا ! هيا بنا أيها السادة .
كان هنالك ممر ضيق فى المنحدر بين الأشواك ، وكان هنالك شظايا صخور ، تكون سلما طبيعيا ذا درجات مهتزة ، فكنا ، ونحن نصعد ، نتمسك بالأشجار . كان جروشنيتسكى يسير أمامنا جميعا ، يتبعه مرافقاه ، وكنت أنا والدكتور نسير فى المؤخرة .
قال لى الدكتور وهو يشد على يدى بقوة :
ـ انك لتدهشنى . دعنى أجس نبضك . أوه ، أوه ، انت محموم ؟ ... ولكن وجهك لا يظهر عليه اى اثر من ذلك ... عيناك وحدهما تلمعان أكثر مما تلمعان عادة !
وفجأة تدحرجت بين أقدامنا حجارة صغيرة ، وأحدث تدحرجها ضجة . ما هذا ؟ لقد زلت بجروشنيتسكى قدمه ، وانكسر الغصن الذى تمسك به ، فكاد يهوى على ظهره الى أسفل ، لولا أن شاهديه أمسكا به .
صحت به :
ـ تأن ... لا تقع منذ الآن . هذا نذير سوء . تذكر يوليوس قيصر !
ووصلنا أخيرا الى قمة الصخرة الناتئة . كان السطح مغطى برمل ناعم ، كأنه أعد للمبارزة . ومن حولنا ذرى الجبال تتلاحق كقطيع لا حصر له ، وتكاد تغرق فى ضباب الصباح المذهب : وفى الجنوب

تبرز كتلة البروز البيضاء فى نهاية الذرى المتجلدة التى تطوف بينها سحب على صورة السبائخ مهرولة من الشرق . تقدمت حتى حافة السطح ، ونظرت الى تحت . كاد ينتابنى من ذلك دوار . لاشك أن القاع مظلم بارد كالقبر . ان أسـنان الصخور التى اقتلعتها العواصف وهوى بها الزمن تنتظر فريستها .

كان السطح الذى يجب أن نقتتل عليه مثلثا متساوى الأضلاع تقريبا . فقسنا ست خطوات ، ابتداء من الزاوية الناتئة ، واتفقنا على أن الذى سيتعرض لرصاص خصمه قبل الآخر ، هو الذى سيقف عند تلك الزاوية مديرا ظهره الى الهاوية . فاذا لم يقتل ، تبادل الخصمان مكانيهما .

وقد قررت أن أترك لجروشنيتسكى كل المزايا . كنت اريد أن أمتحنه ، لعل شرارة من الأريحية تستيقظ فى نفسه ، فيتم كل شىء على ما أحب . ولكن كبرياءه وضعف ارادته انتصرا ... فأردت أن أكون على حق فى أن لا أترفق به اذا رحمنى الحظ . من ذا الذى لا يعقد مثل هـذه الاتفاقات مع ضميره ؟

هتف الرئيس :

ـ القرعة ، يا دكتور .

فأخرج الدكتور من جيبه قطعة من عملة فضية وأظهرها .

فسارع جروشنيتسكى يصيح كمن ايقظته ، فجأة ، ضربة مباغتة من صديق :

ـ طرة .

فقلت انا :

ـ نقش .

قذف قطعة النقود فدارت ثم سقطت على الأرض ترن فأسرع الجميع ينظرون اليها .

قلت لجروشنيتسكى :

ـ حظك طيب . انت أول من يطلق ! ولكن اعلم أنك ان لم تقتلنى ، فسأقتلك انا ، أقسم لك .

فاحمر وجهه . انه يخجل أن يقتل رجلا اعزل . وحدقت اليه . خيل الى فى لحظة من اللحظات انه سيرتمى على قدمى يطلب العفو والمغفرة . ولكن كيف يعترف بخطة بلغت هذا المبلغ كله من الجبن والحقارة ؟ بقى له مخرج واحد ، هو أن يطلق رصاصته فى الهواء . كنت واثقا من أنه سيفعل ذلك . شىء واحد كان يمكن أن يمنعه ،

هو تصوره اننى قد أطلب لقاء آخر .
همس بى الدكتور وهو يشدنى من كمى :
ــ آن الأوان . ان لم تقل لهم فى هذه اللحظة انك تعرف نيتهم فلن تقول ذلك لهم أبدا ... سيضيع كل شىء ! أنظر ، انه يشحن المسدسين . اذا لم تقل أنت ، فسأتولى أنا ...
فاجبته قائلا ، وأنا أصده بيدى :
ــ اياك . والا أفسدت كل شىء . لقــــد وعدتنى بأن تدعنى اتصرف . ما الذى يهمك ؟ لعلنى أريد أن أموت ...
فنظر الى دهشا ، وقال :
ــ هذا شىء آخر ! ... ولكن لا تشكنى اذن فى السماء ! ...

وفى أثناء ذلك كان الرئيس قد شحن المسدسين ، فمد أحدهما الى جروشنيتسكى وهو يبتسم ، بعد أن همس فى اذنه بشىء ، واعطانى الآخر .
وقفت على زاوية السطيحة ، مستندا استنادا قويا على ساقى اليسرى فوق الصخرة ، ومائلا قليلا الى الأمام ، حتى لا أسقط فى الهاوية اذا جرحت جرحا يسيرا .
ووقف جروشنيتسكى أمامى ، حتى اذا أعطيت الاشارة ، رفع مسدسه . كانت ركبتاه ترتجفان . وصوب مسدسه الى جبهتى تماما ...
عندئذ التهب فى نفسى حنق لا يغالب .
وفجأة ، أرخى مسدسه ، والتفت يقول لمرافقه بصوت مختنق ، وقد امتقع وجهه واصفر اصفرارا شديدا :
ــ لا أستطيع ...
فصاح به الرئيس :
ــ جبان !
وانطلقت الرصاصة ، فأصابتنى بخدش عند الركبة ، فتقدمت بضع خطوات الى أمام بالرغم منى ، كى أبتعد عن الحافة بأقصى سرعة .
قال الرئيس :
ــ ياعزيزى جروشنيتسكى ، لقــد طاشت رصاصـــتك ... خسارة ... وعليك انت الآن أن تتعرض للرصاص . ولــكن ، عانقنى قبل ذلك ، فلن نلتقى بعد الآن .
وتعانقا . فما اكثر ما بذل الرئيس من جهـــد حتى لا ينفجر

ضاحكا . وأضاف يقول ، وهو ينظر الىجروشنيتسكى متخابثا :
ـ ولكن لا تخف ، فكل شىء فى هذا العالم باطل : الطبيعة حمقاء ، والقدر غبى ، والحياة لا تساوى شروى نقير ! ...
حتى اذا فرغ من قول هذه العبارة التراجيدية ، بكل ما يقتضيه الموقف من جد ورصانة ، عاد الى مكانه . وجاء ايفان اجناتييفيتش يعانق جروشنيتسكى بدوره ، والدموع تترقرق فى عينيـــه . ان جروشنيتسكى واقف وحده الآن أمامى . لم أستطع يوما أن افسر تلك العواطف التى كانت تغلى فى صدرى ، فى تلك اللحظة . انها الحنق الذى يولده جرح الكرامة ، انها الاحتقار والغضب الناشئان عن التفكير فى ان هذا الرجل الذى ينظر الى الآن فى ثقة واطمئنان وجرأة هادئة ، قد أراد منذ دقيقتين أن يقتلنى كما يقتل الكلاب ، دون أن يعرض نفسه لأى خطر ، ولو قد كان جرحى عند الركبة ابلغ من ذلك لتدحرجت الى أعماق الهوة لا محالة .
وظللت أتفرس فى وجهه طويلا ، علنى أجد فيه أثرا من آثار الندامة ، ولو يسيرا ، ولكن بدا لى أنه يحاول أن يكبت ابتسامة ، فقلت له :
ـ أنصحك أن تصلى قبل أن تموت .
ـ لا تهتم بروحى أكثر مما اهتممت بروحك . اننى لا أطلب اليك الا شيئا واحدا ، هو ان تطلق رصاصك بسرعة .
ـ انت ترفض اذن أن تسحب افتراءاتك ، وأن تقـــدم الى اعتذارك ؟ فكر فى الأمر جيدا ! الا يعذبك ضميرك أبدا ؟
فصاح الرئيس يقول :
ـ يا سيد بتشورين ، ليس شأنك هنا أن تسمع اعترافات ... عفوك اذا أبديت هذه الملاحظة ... يجب أن تنتهى بأقصى سرعة ، فلقد يمر أحد فى الفج فيرانا .
ـ طيب . يا دكتور ، تعال الى هنا ...
فاقترب فرنر منى . مسكين ! ان صفرة وجهه اشد من صفرة وجه جروشنيتسكى منذ عشر دقائق .
ونطقت بالكلمات التالية ، بأحرف واضحة ، وصوت عال متميز ، كما ينطق بالحكم بالاعدام :
ـ يا دكتور ، لقد نسى هؤلاء السادة ـ من فرط السرعة طبعا ـ أن يضعوا فى مسدسى رصاصة . فأرجوك أن تشحن المسدس كما ينبغى !
فصاح الرئيس :

ـ مستحيل ، مستحيل ! لقد شحنت المسدسين كليهما بيدى. فاذا انزلقت رصاصة مسدسك ، فليس هذا ذنبى . وليس من حقك أن تشحن المسدس مرة أخرى ، ليس من حقك ذلك ... هذا مخالف للقواعد كل المخالفة . ولن أسمح به ...

فقلت للرئيس :

ـ حسنا ، اذا كان الأمر كذلك ، فسأقتتل معك على تلك الشروط نفسها .

فاضطرب .

وكان جروشنيتسكى ينتظر ، خافض الراس : وكان مكفهر الوجه حزينا .

وقال أخيرا للرئيس الذى كان يريد انتزاع المسدس من يد الدكتور :

ـ دعهما ، فانت تعرف انهما على حق !

وحاول الرئيس عبثا أن يشير الى جروشنيتسكى ، ولكن جروشنيتسكى كان لا يريد أن يرى شيئا .

وفى اثناء ذلك شحن الدكتور المسدس ، واعطانيه ، فلما رأى الرئيس ذلك ، بصق وهو يضرب الأرض بقدمه ، وقال يخاطب جروشنيتسكى :

ـ انت غبى ، يا صديقى ، انت غبى مضاعف ! ... كان يجب ان تطيعنى ، ما دمت قد اعتمدت على ... تستحق ... افطس الآن كذبابة ! ...

ثم ادار ظهره ، وابتعد وهو يدمدم :

ـ هذا مخالف للقواعد ، مهما تقولون ..

قلت :

ـ جروشنيتسكى ، لا يزال فى الوقت متسع ، اسحب كلامك ، اغفر لك كل شىء . لم تستطع أن تضحك على ، وقد ردت كرامتى الى . تذكر اننا كنا صديقين ...

فالتهب وجهه ، والتمعت عيناه ، وقال :

ـ اطلق الرصاص ! اننى احتقر نفسى ، واكرهك . وان لم تقتلنى الآن ، فسأغتالك ذات ليلة . لا مكان على الأرض لكلينا معا فأطلقت ...

وحين تبدد الدخان ، لم يكن جروشنيتسكى على السطيحة . وليس ثمة الا عمود من الغبار لا يزال يدور عند حافة الهوة .

صرخ الجميع . وقلت لفرنر : * — Finita lacomedia ! —
فلم يجب ، بل أشاح بوجهه في ذعر .
فهززت كتفي ، وحييت مرافقي جروشنيتسكي .
وحين هبطت الممر الضيق ، لمحت جثة خصمي الدامية ، بين صخرتين ، فأغمضت عيني ، بالرغم مني ...
وفككت حصاني ، وعدت بخطوات بطيئة . كنت أشعر كأن صخرة ثقيلة تجثم على صدري . وبدت لي الشمس كابية ، ولم تدفئني أشعتها .
وقبل أن أصل الى القرية ، انعطفت يمنـــة ، الى الفج . كنت لا أستطيع أن أرى أحدا ، كنت أحب أن اظل وحيدا . وارخيت الأعنة ، ومال راسي على صدري ، وظل الحصان يسير مدة طويلة ، حتى وصلت أخيرا الى مكان لا اعرفه . فادرت حصاني الى وراء ، وقفلت راجعا . وحين وصلت كيسلوفودسك ، كانت الشمس قد مالت الى الغروب ... وكنت منهك القوى خائرا .
أبلغني خادمي أن فرنر قد جاء ، ثم مد الى رسالتين : احداهما من الدكتور ، والثانية ... من فيرا .
ففضضت الأولى ، وقرأت فيها ما يلي :
« كل شيء على ما يرام . جاءوا بالجثة المشوهة... واستخرجت الرصاصة من الصدر . والناس جميعا موقنون ان الموت كان بقضاء وقدر . ولكن القائد ، الذي لاشك انه عرف شيئا عن مشاجرتكما ، هز رأسه ، غير انه لم يقل شيئا . ليس ثمة أي دليل ضدك ، وتستطيع ان تنام هادىء البال ، اذا وجدت الى النوم سبيلا... الى اللقاء ! »
ومكثت طويلا اتردد في فض الرسالة الثانية ... ماذا يمكن أن تكتب الي ؟ انني لأتوجس شرا ...
هذه هي الرسالة التي نقشت كل كلمة من كلماتها في ذاكرتي الى الأبد :
« أكتب اليك وأنا على يقين من اننا لن نلتقي بعد الآن أبدا . حين افترقنا منذ بضع سنين ، كنت أتصور ذلك أيضا . ولكن السماء أرادت أن تجربني مرة أخرى ، ولم أستطع أن أصمد للتجربة ، بل خضع قلبي الضعيف مرة أخرى للنداء المعروف ... لعلك لن تحتقرني ، على الأقل ؟ ستكون هذه الرسالة وداعا واعترافا في آن واحد : يجب ان أبوح لك بكل ما تراكم في قلبي منذ عرفتك . لا أريد اتهامك . فقد سلكت معي كما كان يمكن أن يسلك أي رجل

---

* انتهت الكوميديا !

آخر . احببتنى كما يحب المرء رزقا يملكه وينتفع به ، احببتنى نبعا من الانفعالات واللذات والاحزان التى تتعاقب وتكون الحيـاة بدونها ، مضجرة رتيبة . لقد فهمت ذلك منذ البداية ... ولكنك كنت شقيا ، وضحيت أنا بنفسي ، آملة أن تقدر تضحيتي يوما ، وأن تفهم عاطفتى العميقة التى لا أشترط لها شيئا . ثم مضى على ذلك وقت طويل ، نفذت خلاله الى جميع أسرار نفسك ، فعرفت ان أملى كان عبثا ... آه ما أشد ما تألمت ! ولكن حبى كان قد مازج نفسي واتحد بها ... فاظلم ، ولكنه لم ينطفىء .

اننا نفترق الآن فراقا لا لقاء بعده . ولكنك تستطيع أن تكون على يقين من اننى لن احب فى حياتى أحدا غيرك : لقد استنفدت نفسى فى حبك كل كنوزها ودموعها وآمالها . وان امرأة عرفتك لا تستطيع أن تنظر الى غيرك من الرجال الا فى شىء من الاحتقار ، لا لأنك خير منهم جميعا ، لا ، لا ، بل لأن فيك شيئا ليس فى غيرك ، شيئا خفيا متكبرا . ان فى صوتك ، مهما تقل ، لقوة لا سبيل الى مقاومتها . ما من أحد يستطيع بمثل هـذا الثبات والدوام أن يفرض حبه ، وأن يجعل الشر نفسه جذابا الى هـذه الدرجة ، وأن تعد نظرته بكل هذه السعادة ! ما من أحد يستطيع أن يستفيد من مزاياه خيرا مما تفعل أنت ، وما من أحد يبلغ من الشقاء حقا ما تبلغ ، اذ ما من أحد يحاول ، مثلما تحاول ، أن يقنع نفسه بخلاف ذلك .

وبعد ، يجب أن أبسط لك سبب هذا السفر السريع . سيبدو لك هذا السبب غير ذى بال ، لأنه لا يتعلق بأحد غيرى .

دخل على زوجى هذا الصباح ، وقص على المشاجرة التى وقعت بينك وبين جروشنيتسكى . وكان لابد أن يتغير وجهى ، لأنه حدق الى طويلا . وكاد يغمى على ، اذ تصورت انك ستقتل اليوم مع جروشنيتسكى، وانني السبب فىهذا كله. خيل الى اننى سأجن.. ولكننى مطمئنة الآن ، وقد ثاب الى رشدى ، انك ستبقى حيا ، فمن المستحيل أن تموت دون أن أموت انا ، مستحيل ! ظل زوجى مدة طويلة يذرع الغرفة ذهابا وايابا ، لا أعرف على وجه الدقة ماذا قال لى ، ولا أذكر بم أجبتـه ... لابد اننى اعترفت له أننى احبك ... لا أذكر الآن الا انه رشقنى فى نهاية الحديث بكلمة فظيعة ثم خرج . وسمعته يأمر بكدن الخيل ... أنا على النافذة منذ ثلاث ساعات أرقب عودتك . انك حى ، ولا يمكن أن تموت ! ...

بعد قليل تكون العربة مهياة للرحيل . وداعا ، وداعا ! ... لقد ضعت أنا ، ولكن لا ضير ... ليتنى أستطيع على الأقل أن اتصور انك ستظل تذكرنى ... لا أقول تحبنى ، لا ، بل تذكرنى ، فحسب . وداعا . ها هم قادمون... يجب أن اخفى رسالتى...

« أنت لاتحب مارى ، أليس كذلك ؟ ولن تتزوجها ؟ أليس كذلك ؟ اسمع ، قم بهذه التضحية من أجلى ، أنا التى فقدت من اجلك كل شىء فى هذه الحياة ... »

طاش صوابى ، وأصبحت كالمجنون . فاندفعت كالسهم الى الخارج ، ووثبت على حصانى الذى جىء به الى صحن البيت منذ لحظة ، وقذفت به فى طريق بياتيجورسك على أقصى سرعة من العدو . كنت أستحث دابتى المتعبة بلا رحمة ، فكانت تنخف وتزبد ، وهى تنهب بى الارض نهبا على الطريق المتحجرة .

كانت الشمس قد اختبأت وراء سحابة سوداء على قمة الجبال. وكان الفج مظلما رطبا . وكان بودكوموك يتواثب على الصخور فى هدير بهيم رتيب . وكنت أعدو سريعا ، وأنا أختنق من نفاد الصبر . كنت كما تصورت اننى لن أجدها فى بياتيجورسك ، يدق قلبى كأنه مطرقة ! آه ، أريد أن أراها لحظة ، لحظة واحدة ، ان أودعها ، أن اشد على يدها ! ... كنت أصلى ، وألعن ، وابكى واضحك ... لا ، لا شىء يمكن ان يعبر عما كنت أكابده من غم وخوف ويأس ! ... تصورت اننى ضيعتها الى الأبد ، ففدت فيرا أعز عندى من أى شىء فى العالم !... غدت أعز من الحياة ، من الشرف ، من السعادة ! الله يعلم ما هى النوايا الجهنمية ، وما هى الأفكار الجنونية التى كانت تدور عندئذ فى رأسى ! ... وفيما أنا أضرب حصانى بلا رحمة ولا شفقة ، اذا بى الاحظ انه يتنفس بصعوبة . وكان قد كبا مرتين ، مع أن الأرض التى كبا عليها كانت مستوية ! ... بقى أن اقطع خمسة فرستات حتى أصل الى اسنتوكى ، وهى قرية قوزاقية يمكننى فيها أن ابدل حصانى.

كان يمكن ان يتم كل شىء على ما أحب ، لو استطاع حصانى أن يعدو مدة عشر دقائق أيضا . ولكنه ما لبث أن سقط فجأة على الأرض ، بينما كان يصعد من واد صغير عند مخرج الجبال فى منعطف حاد ، فافلت منه بسرعة ، واردت ان أساعده على النهوض بشد الأعنة ، فلم يقو على النهوض . وخرجت من بين اسنانه المشدودة زفرة ضعيفة ، وبعد بضع لحظات كان يلفظ انفاسه

الأخيرة . كنت وحيدا ، وسط السهوب ، قد فقدت آخر آمالي . وأردت أن أمشي فترنحت ســـاقاى تحتي ، فهويت على العشب الرطب ، وقد هدتني انفعالات النهار وحطمني الأرق ، وأخـذت اجهش بالبكاء كطفل .

وبقيت على هذه الحال ، ساكنا باكيا ، مدة طويلة ، حتى انني لم احاول أن أسيطر على دموعي وأن أحبس نحيبي ، وخيل الى أن صدري سينفجر... لقد تبددت صلابتي ورباطة جاشي كالدخان .. كانت نفسي خائرة لا قوة لها ، وكان عقلي منطفئاً ، فلو رآني احد في تلك اللحظة لأشاح بوجهه عني في كثير من الاحتقار .

ولكن ندى الليل وريح الجبال ما لبثا أن رطبا راسي المحترق ، فعادت افكاري الى مجراها الطبيعي ، ففهمت أن من العبث والطيش ورقة العقل أن أركض وراء سعادة ذاهبة . ماعساي اشتهي ايضا ؟ ان أراها مرة ثانية ؟ ما جدوى ذلك ؟ الم ينته بيننا كل شيء ؟ ان قبلة صغيرة في الوداع لن تغني ذكرياتي ، ولن تجعل فراقنا أقل مرارة.

كان يلذ لى مع ذلك أن أرى انني استطيع البكاء . ولكن لعل هياج أعصابي ، وأرقي طوال الليلة البارحة ، وهاتين الدقيقتين اللتين وقفت خلالهما أمام مسدس مصـــوب الى رأسي ، وفراغ معدتي ، لعل هذا كله هو السبب .

هيا ! ... ان كل شيء يحدث لابد أن يؤدي الى الأفضل . كان هذا الألم الجديد ، تلهية سعيدة ، على لغة العسكريين ، ان البكاء يفيد . ثم ، أكان يمكن أن يعرف النوم الى جفني سبيلا ، لولا هذه الجولة على صهوة الحصان ، ولولا انني قطعت في العودة مسافة خمسة عشر فرستا سيرا على الأقدام .

وصلت الى كيسلوفودسك في الساعة الخامسة من الصبـــاح ، فارتميت على سريري ونمت كما نام نابوليون بعد معركة واترلو .

حين استيقظت كان الظلام قد هبط ، فجلست بالقرب من النافذة المفتـوحة ، وحللت أزرار الأرخالوك الذي أرتديه . فرطب هواء الجبل صدري الذي لم يهدئه النوم العميق بعد فرط الاعياء . ورأيت في الأفق البعيـد ، وراء النهر ، من خلال ذرى أشجار الزيزفون الكثيفة التي تظلله ، رأيت التماع أنوار القرية والقلعة . كان كل شيء في فنائنا ساكنا هادئا. وكان الظلام في بيت الأميرة تاما.

ودخل على الدكتور . انه متجهم الوجه ، وعلى غير عادته ، لم يمد الى يده .

ـ فى بيت الاميرة ليجوفسكايا . ان ابنتها مريضة : نوبة عصبية. ولكننى لم آت اليك لأبلغك هذا النبأ . اليك الموضوع : لقد أخذت السلطات تشتبه فى الأمر ، ورغم انه يستحيل توافر الأدلة عليك ، فأنا انصحك بأن تكون على حذر . قالت لى الأميرة اليوم انها تعلم انكما تبارزتما من أجل ابنتها . ان ذلك العجوز ـ ما اسمه ؟ ـ قص عليها كل شيء . لقد شهد مجادلتك مع جروشنيتسكى بالمطعم . جئت أنذرك بالأمر . وداعا ! قد لا نلتقى بعد الآن أبدا. من ذا الذى يعلم أين يرسلونك ؟

ووقف على عتبة الباب ... كان يود أن يشد على يدى ... ولو اننى اظهرت اى رغبة فى ذلك ، لوثب على يعانقنى ... ولكننى ظللت باردا ككتلة من المرمر ... فانصرف .

كذلك هم البشر ! انهم جميعا من طينة واحدة : يعرفون مقدما كل الجوانب السيئة فى عمل من الأعمال . يساعدونك ، وينصحونك ، وقد يشجعونك ، اذا راوا أنه يستحيل ان يفعلوا غير ذلك . ولكنهم بعدئذ يغسلون أيديهم من الأمر ، وينصرفون ، مستائين ، من الشخص الذى تجرأ أن يحمل كل تبعته . نعم . انهم جميعا من طينة واحدة ، لا يشذ عن ذلك أحسنهم ، أذكاهم !

وفى صباح الغد تلقيت من رؤسائى أمرا بأن أذهب الى قلعة ن... فذهبت أودع الأميرة الأم . سألتنى هل هناك أمر هام جدا أريد أن أفضى اليها به ، ودهشت اشد الدهشة حين اجبتها بأننى أتمنى لها السعادة ، الى آخر ما هنالك . قالت :

ـ اما انا فيجب أن أتحدث اليك فى كثير من الجد .

فجلست صامتا .

كان واضحا أنها لا تعرف من أين تبدأ ... وقد احمر وجهها ، وأخذت تنقر المنضدة بأصابعها السمينة ، واخيرا حزمت أمرها ، وقالت بصوت متردد :

ـ اسمع ياسيد بتشورين . انا أعتقد أنك رجل شريف .

فانحنيت . وتابعت هى تقول :

ـ بل اننى لعلى يقين من ذلك ، رغم ان سلوكك يمكن أن يثير شكوكا . ولكن قد يكون لهذا السلوك دوافع أجهلها ، ويجب أن تفضى الى الآن بهذه الدوافع . لقد ذببت عن ابنتى الافتراء ، واقتتلت من أجلها ، وعرضت اذن حياتك للخطر فى سبيلها ... لا تجبنى ... أعرف انك لا تستطيع الاعتراف ، لأن جروشنيتسكى

قتل (وهنا رسمت اشارة الصليب) ··· غفر الله له ، ولك أيضا ·
هذا لا يخصني . ولست أجرؤ على أن ألومك ، لأن ابنتي كانت هي السبب ، ولو ببراءة ... لقد قضت على كل شيء ، نعم كل شيء ، أو هذا ما أرجوه على الأقل. اعرف انك صارحتها بحبك ، وانها صارحتكَ بحبها (وهنا زفرت الأميرة زفرة كبيرة) . ولكنها مريضة ، وانا على يقين من ان الأمر ليس مرضا فحسب . ان حزنا خفيا يقتلها . واعتقد انك انت السبب ، رغم انها لم تعترف لي بذلك . اسمع . ربما تعتقد أنني أبحث عن الرتب والثروة . انت مخطىء . انني لا اريد لابنتي غير السعادة . ليس مركزك ، الآن ، بالمركز الذي يحسد عليه الانسان كثيرا . ولكن كل شيء يمكن ان يدبر . انت صاحب ثروة ، وابنتي تحبك ، ولقد نشئت تنشئة تجعلها اهلا لاسعاد زوجها. وانا غنية ، وليس لي غيرها... تكلم افض الي بما يجعلك تحجم . ما كان ينبغي أن أقول لك كل هذا . ولكنني أعتمد على قلبك ، على شرفك . تذكر انه ليس لي غير ابنتي ، ليس لي غيرها ...

واخذت تبكي . قلت لها :

ـ ايتها الأميرة ، لا أستطيع ان اجيبك ، واسمحي لي بأن أتحدث الى ابنتك على انفراد ...

فصاحت وهي تنهض مضطربة اشد الاضطراب :

ـ مستحيل !

فأجبتها وأنا أنهض ايضا :

ـ كما تريدين .

ففكرت لحظة ، ثم أشارت الى بيدها أن أنتظر قليلا ، وخرجت.

انقضى على خروجها خمس دقائق . كان قلبي يخفق خفقانا شديدا ، ولكن فكري كان هادئا ، وكان رأسي باردا . عبثا حاولت أن أعثر في أعماق نفسي على ومضة من حب لماري الناعمة .

وفتح الباب فجأة ، فاذا هي تدخل ! رباه ! لشد ما تغيرت منذ التقينا آخر مرة ·· ولفترة وجيزة جدا ·

فلما وصلت الى وسط الغرفة ، ترنحت ، فسارعت أسندها بذراعي ، وقدتها الى المقعد .

كنت واقفا أمامها . وساد الصمت برهة طويلة . كانت عيناها تفيضان بحزن لايوصف وكأنهما تحاولان أن تبحثا في عيني عن بارقة من أمل . وكانت شفتاها الشاحبتان تحاولان عبثا أن تبتسما .

وكانت يداها الدقيقتان المتشابكتان على ركبتها قد بلغتا من النحول والهزال ان قلبى انقبض حين رأيتهما أشد الانقباض . قلت لها :
ــ أيتها الأميرة ، هل تعرفين اننى كنت أعبث بك ؟ عليك اذن أن تحتقرينى .
فتصاعدت الى خديها حمرة من مرض . واستمررت اقول :
ــ ولا يمكنك أن تحبينى ...
فأشاحت بوجهها ، وتوكأت على المنضدة ، ووضعت يدها على عينيها اللتين تراءى لى أن فيهما دموعا ، وقالت بصوت يكاد يكون منطفئا :
ــ يارب !
لا يكاد يستطيع الانسان أن يقاوم هذا المنظر ، أوشكت أن ارتمى على قدميها ، ولكننى تجلدت ، واستأنفت أقول ، بصوت أردت أن يكون ثابتا ، مع ابتسامة حملت نفسى عليها حملا :
ــ وهكذا ترين أنت نفسك اننى لا أستطيع أن اتزوجك . واذا أنت رغبت فى ذلك الآن ، فلن تلبثى أن تندمى عليه أشد الندامة . ان الحديث الذى دار بينى وبين أمك ، يضطرنى الى أن أخاطبك هكذا بصراحة وقسوة . آمل أن تكون أمك على خطأ ، وسيسهل عليك أن تبددى وهمها . اننى أمثل فى نظرك دورا حقيرا ، دورا سافلا ، وانى لأعترف بذلك . وهذا كل ما أستطيع أن أفعله من أجلك . سأسلم بكل ما قد ترينه فى من رأى . هأنت ذى ترين كم كان سلوكى معك بشعا كريها ... وهبك أحببتنى ، فلا بد أن تحتقرينى الآن .
فالتفتت الى ، صفراء كقطعة من المرمر ، وكانت عيناها وحدهما تلتمعان ، وقالت :
ــ اكرهك ...
فشكرت لها قولها ، واستأذنتها بالانصراف ، بعد أن حييتها فى كثير من الاحترام .
وبعد ساعة من الزمن كانت عربة البريد تمضى بى بعيــــدا عن كيسلوفودسك . وعلى مسافة بضعة فرستات من اسنتوكى ، رأيت جثة حصانى الكريم . كان سرجه قد أخذ عن صــــهوته ، أخذه قوزاقى من غير ريب ، وعلى ظهــــره ، فى مكان السرج ، حط غرابان . فأشحت بوجهى ، وأنا أزفر زفرة حرى ...
والآن ، فى هــــذه القلعة التى أشعر فيها بالضجر والسآمة ، وأستعرض صور الماضى وأتساءل فى كثير من الأحيان لماذا رفضت

ان ادخل فى الطريق التى فتحها لى القدر والتى كان يمكن ان أعرف فيها أفراحا عذبة ، وان اجد فيها طمأنينة الروح ؟ ... لا ، لا ، اننى لم أخلق لتلك الحياة ! انى كملاح ولد وترعرع على ظهر مركب من مراكب القرصان ... الف العواصف والمعارك . فاذا القى الى الشاطىء ، شعر بالضجر والسآمة ، لا تغريه الواحات الظليلة ولا الشمس الساطعة . انه يظل طوال النهار يضرب هنا وهناك على رمل الشاطىء . يصيخ بسمعه الى خرير الأمواج الرتيب ، ويغرق بصره فى الآفاق البعيدة ذات الضباب الكثيف : ترى الن يلمح أخيرا ، على الخط الشاحب الذى يفصـــل الهوة اللازوردية عن السحب الشهباء ، الشراع الذى طالما اشتهاه ، شبيها بجناح الزمج فى أول الأمر ، متخلصا من الزبد شيئا فشيئا بعد ذلك ، مقتربا من المرفأ المقفر ثابت السير ؟ ..

الجبرى

اتفق لى مرة أن قضيت اسبوعين فى قرية قوزاقية فى الجناح الأيسر . كانت ترابط هناك كتيبة من المشاة ، وكان الضباط يجتمعون يوما عند هذا ويوما عند ذلك ، ويقضون السهرة فى لعب الورق .

وضقنـــا ذات يوم ذرعا بالبوســتون . فرمينا بالورق تحت المنضدة ، وبقينا نتحدث مدة طويلة جدا فى بيت الضـــابط المقدم س ... كان الحديث ، على خلاف العادة من أمتع الأحاديث . كانوا يقولون أن العقيدة الأسلامية التى ترى أن قدر الانسان قد كتب عليه فى اللوح المحفوظ ، تجد بيننا نحن المسيحيين كثيرا من الأنصار . وأخذ كل واحد يقص حالات عجيبة ، فى تأييد هذه العقيدة او فى انكارها . قال المقدم العجوز :

ـ كل هذا ، أيها السادة ، لا يبرهن على شىء ... اذ ما من واحد منكم شهد الحالات الغريبة التى يسوقها فى تأييد رأيه ... أليس كذلك ؟

فقال معظمهم :

ـ نعم لم نشهدها ، ولكن الذين قصوها علينا ثقات يطمأن الى صدقهم .

فقال أحدهم :

ـ هذا كلام فارغ . أين هم أولئك الثقات الذين رأوا اللوح المحفوظ الذى كتبت عليه ساعة موتنا ؟ ... واذا صح أن الانسان مسير لا مخير، فلماذا أوتينا ارادة وعقلا ؟ ولماذا نسأل عن أفعالنا ؟

عندئذ نهض ضـــابط كان جالسا فى ركن من الغرفة ، وتقدم ببطء نحو المنضدة ، وألقى حوله نظرة هادئة فخمة فى آن واحد . انه صربى ، كما يدل على ذلك اسمه .

كان مظهر الملازم الأول ، فولتش منسجما مع طبعه . ان قامته الفارعة ، ووجهه الأسمر ، وشعره الأسود ، وعينيه النافذتين ، والسوداوين ايضا ، وانفه الكبير فى استقامة ، كأنوف سائر أبناء قومه ، وابتسامته الحزينة الباردة التى تطوف على شفتيه دائما ، ان ذلك كله كان يسهم فى أن يسبغ عليه طابع انســـان غريب

فريد ، عاجز عن نقــل أفكاره وأهوائه الى هؤلاء الذين جعلهم القدر رفاقه .

كأن شهما ، يتكلم قليلا ، ولكنه اذا تكلم فبلهجة قاطعة جازمة. وكان لا يفضي الى أحد بأسرار أسرته ، ولا بأسرار نفسه . وكان لا يكاد يشرب خمرا ، وكان لا يتودد الى الفتيــات القوزاقيات (التى يصعب على المرء أن يتصور ما لهن من فتنة ما لم يرهن) ولا يغازلهن . ومع ذلك فكان يقال أن زوجة الكولونيل لم تكن غير مبالية الا بعينيه اللتين تفيضان بالتعبير ، ولكنه كان يستاء اذا أومأ أحد الى ذلك ، بل كان يستاء من هذا استياء شديدا .

والهوى الوحيد الذى كان لا يخفيه ، هو ميله الى اللعب . كان ينسى أمام المائدة الخضراء كل شيء . وكان فى معظم الأحوال يخسر ولا يربح . ولكن خسارته المستمرة كانت لا تزيده الا عنادا. ويروى انه ذات ليلة ، ابان حملة من الحملات ، كان هو الخازن ، وكان يواتيه الحظ مواتاة عجيبة ، وهو متكيء على مخدته ، فاذا بصوت رصاص يلعلع على حين غرة ، فأطلقت اشارة الخطر. وهب جميع اللاعبين ، يتناولون أسلحتهم . ولكن فولتش صاح بواحد من أشدهم حماسة يقول : «كم ؟» فأجابه هذا وهو يخرج مسرعا : «سبعة» . فأخذ فولتش ، بينما الناس فى هذا الاضطراب الشامل، يكمل اللعب .

حتى اذا ظهر أخيرا فى الجبهة ، كانت قد احتدمت المعركة ، ولكن فولتش لم يحفل لا برصاص التشتشينيين ولا بأسيافهم ، بل كان يبحث عن خصــمه المحظوظ ، حتى اذا لمحه بين الرماة الذين أخذوا يجلون العدو عن غابة من الغابات ، صاح به يقول :

ـ السبعة ربحت !

ثم اقترب منه ، وأخرج المال ، ومده الى الرابح السعيد ، وعبثا احتج هذا بأن المكان ليس مكان سداد الديون . فلما فرغ من القيام بهذا الواجب الذى لا يسر كثيرا اندفع الى أمام ، فاقتــدى به الجنود ، وظل الى نهــاية المعركة يحارب التشتشينيين فى رباطة جأش عظيمة .

حين اقترب المـلازم الأول فولتش من المنضدة ، صمت جميع الناس ، وتوقعوا أن يسمعوا شيئا عجيبا . قال (وكان صـوته هادئا واخفض نبرة مما عهد فيه) :

ـ أيها السادة ، هذه مناقشات عقيمة ، هل أدلكم على حجج

تقنع ؟ اذن جربوا على انفسكم ، لتعرفوا هل يصرف الانسان حياته على ما يشاء ، أو انه اذا جاء أجله لا يستقدم ساعة ولا يستأخر ؟ من يريد أن يجرب ؟

فتعالى الصياح من كل صوب يقول :

ـ لست أنا ، لست أنا ، على كل حال ! ماهذه الفكرة الغريبة ! ؟

فقلت على سبيل الضحك :

ـ اقترح أن نتراهن !

ـ على ماذا ؟

ـ على انه لا قدر !

قلت ذلك ، وألقيت على المنضدة بعشرين دينارا وهى كل ما أملك.

فأجاب فولتش بصوت أصم يقول :

ـ قبلت . سيدى المقدم ، أنت الحكم . هذه خمسة عشر دينارا اسمح لى أن أضم اليها الدنانير الخمسة التى تدين بها لى .

فقال المقدم :

ـ هـــذا حســن . ولكننى لم افهم ما هو الموضوع ، ولا كيف ستحسمون المشكلة .

وهنا ذهب فولتش الى مخدع المقدم ، دون أن يقول كلمـــة واحدة . فتبعناه ، وتقدم من الجدار الذى علق عليه السلاح ، فانتزع منه أحد المسدسات على غير اختيار . لم نفهم ماذا يريد أن يعمل ، ولكنه أزاح الزناد ، وسكب فى المسدس بارودا . صاح به كثير منا ، وامسكوا بذراعيه ، يقولون :

ـ ماذا تريد أن تعمل ؟ هذا جنون ! ...

فأجاب يقول ببطء ، وهو يسحب ذراعيه :

ـ أيها السادة ، من منكم يدفع عنى عشرين دينارا ؟

فصمتوا جميعا ، وتراجعوا .

فعاد الى الغرفة الأولى ، وجلس الى المنضدة . كانوا جميعا يتبعونه . فدعانا الى الجلوس ، فأطعناه جميعا صامتين : لقـد سيطر علينا فى هذه اللحظة سيطرة خفية . كنت أحدق فى عينيه . ولكنه قابل نظرتى المتفرسة بهدوء وسكون ، وابتسمت شـــفتاه الشاحبتان . على أننى ، رغم رباطة جأشه ، لاح لى فى وجهـــه الأصفر كالشمع ، طيف الموت . لقد لاحظت أن الانسان كثيرا ما يرى طابع الموت فى وجه شخص سيموت بعد بضع ساعات ، وقد أكد لى ذلك أكثر من واحد من العسكريين الشيوخ ... ان الوجه يكتسى

عندئذ خاتم قدر لا مفر منه ، وقلما تخطىء العيون البصيرة فى تقدير هذا .

قلت له :

ـ ستموت اليوم .

فالتفت الى بسرعة ، ولكنه أجابنى بهدوء وبطء :

ـ ربما أموت ، وربما لا أموت .

ثم سأل المقدم :

ـ هل هذا المسدس مُشحون ؟

ولكن المقدم من فرط اضطرابه ، لم يتذكر ...

وصاح أحدهم :

ـ كفى يا فولتش ، كفى . لابد انه مشحون ما دام علق فوق السرير . يا لهذه الطريقة العجيبة فى المزاح !

وأضاف آخر :

ـ مزاح غبى .

وصاح ثالث :

ـ اراهن على خمسين روبلا مقابل خمسة ، ان هذا المسدس ليس مشحونا .

وتكاثرت الرهانات . واضجرنى هـــذا الاحتفـــال كله ، فقلت لفولتش :

ـ اسمع ، اما ان تحطم راسك ، واما أن تضع المسدس جانبا ، فنمضى ننام .

فصاحت اصوات كثيرة تقول :

ـ نعم ، هو ذلك ، سنمضى الى النوم .

ـ ايها السادة ، ارجوكم أن لا تتحركوا .

قال فولتش هذا ، ووضع فوهة المسدس على صدغه .

فجمدوا جميعا . واضاف يقول :

ـ سيد بتشورين : خذ ورقة من أوراق اللعب ، وارمها فى الهواء

فتناولت من على المنضدة ـ ما أزال أذكر هذا كأنه يقع الآن ـ ورقة آس كوبة ، وقذفت بها فى الهواء . تقطعت أنفاس الجميع ، كانت نظراتهم التى تعبر عن الخوف والاستطلاع فى آن واحد ، تنتقل سريعة بين المسدس والورقة . وكانت تهبط ببطء وهى ترتعش . حتى اذا لامست المنضدة شد فولتش زناد المسدس ... لم تخرج الطلقة ! ..

فصاحوا يقولون :
ـ الحمد لله ـ على ان المسدس لم يكن مشحونا !
فقال فولتش :
ـ لننظر .
حرك الزناد ، ثم صوب الى قبعة كانت متدلية فوق النافذة ، فاذا بصوت الطلقة يدوى ، واذا بالدخان يملأ الغرفة ، حتى اذا تبدد الدخان نظرنا الى القبعة فاذا بالرصاصة قد ثقبتها فى وسطها تماما ، ثم خرجت منها فنفذت فى الحائط نفاذا عميقا .

وانقضت ثلاث دقائق ، دون أن ينبس بكلمة . وتناول فولتش دنانيرى العشرين فدسها فى محفظته بهدوء .
واحتدمت المناقشة بعد ذلك : لماذا لم تخرج الطلقة فى المرة الأولى ؟ قال بعضهم ان الحويض كان مسدودا ، وقال آخرون بصوت خافت بل لقد كان البارود فى أول الأمر رطبا ، ثم وضع فولتش بارودا جديدا . فأكدت ان هذا الافتراض الأخير باطل ، لأننى لم أحول بصرى عن المسدس لحظة واحدة . وقلت لفولتش :
ـ انت محظوظ فى اللعب .
قال وهو يبتسم ابتسامة الرضا :
ـ لأول مرة فى حياتى ... هذا خير من لعب جميع أنواع البكارا وغيرها ...
قلت :
ـ ولكنه أخطر منها قليلا .
قال :
ـ هل بدأت تؤمن بالقدر ؟
ـ نعم ، ولكننى اتساءل : لماذا لاح لى انك ميت اليوم لا محالة .
وفى هذه اللحظة رأيت هذا الرجل الذى كان منذ قليل يضع فوهة المسدس على صدغه هادئا ، يحمر فجأة ويضطرب .
قال وهو ينهض :
ـ كفى . لقد انتهى الرهان . وملاحظاتكم تبدو لى الآن فى غير محلها ...
وتناول قبعته ، وخرج ، لقد بدا لى ذلك غريبا ، ولا عجب !
وسرعان ما افترقنا ، فذهب كل منا الى بيته ، وهو يؤول نزوات فولتش على طريقته ، ولعلهم اتهمونى جميعا بالأنانية ، لأننى راهنت شخصا هم أن يقتل نفسه ... كأنه لا يستطيع أن يجد ، بدونى ،

فرصة مناسبة .

كنت عائدا الى بيتى أمر بطرقات القرية الخالية من الناس ، وكان القمر بدرا متوقدا قد أخذ يطلع فى الأفق بنور كأنه نور حريق ، وكانت النجوم تتألق هادئة فى القبة الزرقاء الضاربة الى سواد . لم أستطع أن أحبس نفسى عن الابتســـام حين تذكرت أن قدماء الحكماء كانوا يتصورون أن الكواكب تهتم بخصومات البشر التافهة على قطعة من الأرض أو على حقوق موهومة . ان هــذه المصابيح التى كانوا يظنون أنها انما تشتعل لتنير مايدور بينهم من خصومات ، وما يحققونه من ألوان النصر ما تزال مع ذلك تضىء ببريق لم يتغير ، مع أن آمالهم ، وأهواءهم قد انطفأت معهم ، كنار أوقدها عند طرف الغابة مسافر من المسافرين عابر لا يبالى ! ولكن ما كان أقوي تلك العزيمة التى يمدهم بها ذلك الاعتقاد بأن السماء كلها ومن فيها من سكان لايحصى عددهم تنظر اليهم فى اهتمام أخرس ولكنه لا يحول ولا يزول . فى حين أننا نحن ، نحن أعقابهم الذين نستحق الشفقة والرثاء ، الذين نضرب فى الأرض بلا عقيدة ولا كبرياء ، بلا لذة ولا خوف ، الا الذعر الذى يقبض صدورنا ولا نستطيع له دفعا ، حين نتصور أننا صائرون الى الموت لا محالة ، أما نحن هؤلاء فقــد أصبحنا عاجزين عن أن نقدم أية تضحية كبيرة ، لا فى سبيل خير الانسانية ، ولا فى سبيل سعادتنا ذاتها ، لأننا نعرف أن السعادة مستحيلة ، وما ننفك ننتقل من شك الى شك لا نلوى على شىء ، كما كان أسلافنا ينتقلون من وهم الى وهم ، اننا لا نملك ما كانوا يملكون من رجاء ، ولا ما كانوا يحسونه من فرح لايمكن تعريفه ، ولكنه فرح قوى تشعر به النفس حين تناضل ضد البشر أو ضد القدر ...

وراودتنى أفكار أخرى من هذا القبيل . ولكننى لم أتلبث عليها ، لأننى لا أحب أن أثقل على نفسى بفكرة مجردة ، وما عسى أن ينتج هذا كله ؟ كنت فى حداثتى فتى حالما ، أحب أن أداعب الصــور الجهمة أو الضاحكة التى يرسمها خيالى القلق الشره ، كنت أداعب هذه الصور واحدة بعد أخرى ، ولكن ماذا بقى لى من هذا كله ؟ لا شىء الا تعب يشبه التعب الذى يعقب معركة مع شــبح والا ذكرى مشوشة تفيض بالحسرات . لقــد أفنيت فى ذلك الصراع العقيم ، حرارة الروح وثبات الارادة ، وكلاهما ضرورى جدا لحياة الفعل والنشاط . وحين دخلت هذه الحياة التى سبق أن عشتها

بالفكر ، شعرت بالضجر ، وشعرت بما يشعر به من اشمئزاز شخص يقرأ تقليدا سيئا لكتاب يعرفه منذ مده طويلة .

لقد تركت فى نفسي حادثة هذه الليلة أثرا قويا ، واهاجت أعصابي. لست أدرى · هل أومن آليوم بالقدر · ولكننى آمنت به فى ذلك المساء ايمانا قويا ، اذ كان البرهان عليه برهانا دامغا . كنت وأنا أسخر من أسلافنا ومن تنجيمهم المضحك ، أسير على غير ارادة منى فى أثرهم . ولكننى توقفت فى هذا الطريق الخطر فى اللحظة المناسبة ، اذ لما كان من مبدئى أن لا أجحد شيئا من الأشياء جحودا مطلقا ولا أن أومن بشىء من الاشياء ايمـــانا أعمى ، فقد تركت الميتافيزيقا جانبا ، ونظرت بين قدمى . وجاء هذا الاحتراس فى حينه تماما ، اذ اننى أوشكت أن أقع على الأرض مصطدما بشىء ضخم رخو ، ولكن لا حياة فيه . فانحنيت انظر ما هذا ، وكان القمر يضىء الطريق ، فاذا أنا أرى خنزيرا قد شـــطر شطرين بضربة من سيف ... وما كدت أعرف هـــذا حتى سمعت وقع خطوات ، ورأيت قوزاقيين يخرجان من زقاق آخر ، فيقبل أحدهما نحوى ويسألنى : هل رأيت قوزاقيا سكران يلاحق خنزيرا ، فقلت اننى لم أصادف قوزاقيا ، ولكننى أشرت الى الضـــحية الشقية التى ذهبت بها شجاعته .

قال الآخر :

ــ هذا اللص! انه متى شرب خمرا ، ضرب بسيفه كل مايصادف. هيا بنا سريعا يا يرميئتش ، يجب أن نقبض عليه ، يجب أن نقيده ، والا ...

وابتعدا ، فتابعت سيرى بمزيد من الحذر . ووصلت أخيرا الى منزلى دون أن يقع لى حادث آخر .

كنت أسكن فى بيت عجوز برتبة وكيل ضابط ، وكنت أحب العجوز لرقة حاشيته ، ولجمال ابنتــه الحسناء ناستيا ، بوجه خاص .

وجـــدتها ، على عادتها ، تنتظرنى على باب الحديقة ، متدثرة بردائها المبطن بالفرو. وكان القمر يضىء شفتيها الصغيرتين العزيزتين اللتين ازرقتا قليلا من البرد . فلما رأتنى ابتسمت ، ولـكننى لم أحفل بها كثيرا فى تلك اللحظة . فقلت لها ، وأنا أمر بالقرب منها :

ــ ليلتك سعيدة يا ناستيا .

وارادت أن تجيب ، ولكنها لم تزد على أن تنهدت .

وأغلقت باب غرفتي ورائي ، وأشعلت شمعة ، ثم ارتميت على سريري ... وانتظرت النوم في هذه المرة أكثر مما كنت أنتظره في كل مرة . وحين غفوت كان المشرق قد أخذ يبيض ، ولكن لاشك انه كتب على أن لا أنام في تلك الليلة ، ففي الساعة الرابعة من الصباح طرقت نافذتي ضربات قوية من قبضتين ، فنهضت فورا أتساءل ماذا هنالك ؟

ـ انهض ، البس ثيابك !

فدسست ثيابي بسرعة وخرجت .

فبادرني ثلاثة من الضباط يسألونني بصوت واحد ، وقد امتقعت وجوههم حتى لكأنهم موتى :

ـ هل تدرى ماذا وقع ؟

ـ ماذا ؟ ..

ـ قتل فولتش .

فلم أكد أصدق ما أسمع . واردفوا يقولون :

ـ نعم ، قتل ! تعال ، أسرع !

ـ ولكن الى أين نذهب ؟

ومضينا . فقصوا على كل شيء ، ولم ينسوا أن يشيروا الى ذلك القدر الذي أنقذه من موت محقق ، قبل موته بنصف ساعة . كان فولتش يسير وحده في الشوارع المظلمة . فالتقى بالقوزاقي السكران الذي شطر الخنزير شطرين ، والذي كان يمكن أن يمر دون أن ينتبه الى فولتش ، لولا أن فولتش توقف فجأة وسأله :

ـ « عمن تبحث يا صاحبي ؟ » فأجابه القوزاقي ، وهو يضربه بسيفه ويشطره شطرين من الكتف الى ناحيـة القلب ، قائلا : « عنك ! »

وفي غضون ذلك وصل القوزاقيان اللذان صادفاني وكانا يلاحقان القاتل ، فحملا الجريح ، ولكنه كان يلفظ أنفاسه الأخيرة ، ولم يستطع أن يقول الا هذه الكلمات : « كان على حق ! » لقد فهمت وحدي هذا المعنى الغامض الذي تشتمل عليه هذه الكلمات : كانت تعنيني أنا . فلقد تنبأت للمسكين بمصيره ، من غير أن أريد ذلك . لم تخدعني غريزتي . ان ما قرأته في وجهه كان حقا نذير موت قريب .

كان القاتل قد اعتصم ببيت خال عند طرف القرية . والى هناك ذهبنا . رأينا نساء كثيرات يسرعن الخطا الى تلك الجهة ، وهن

يتأوهن ويصدرن انات . ومن حين الى آخر ، يندفع فى الشارع قوزاقى متخلف يضع خنجره فى حزامه بسرعة ، ويتقدمنا راكضا . لقد بلغ الاضطراب أقصاه .

ووصلنا أخيرا . كان حول البيت جمهور كبير ، وكانت الأبواب والنوافذ موصدة من الداخل . وكان الضباط والقوزاق يتناقشون ويتجادلون بعنف ، وكانت النساء يصدرن انات ، ويتأوهن ، وينتحبن . ورأيت بينهن وجها خطف بصرى خاصة ، هو وجه امرأة عجوز تعبر عن أشد اليأس وأعمقه . كانت جالسة على خشبة كبيرة ، وقد وضعت كوعيها على ركبتيها ، وأسندت رأسها الى يديها . انها أم القاتل . وكانت شفتاها تتحركان من حين الى حين ... ترى أهى ترفع الدعوات أم تستنزل اللعنات ؟

كان لابد من أن تقرر الشروع فى عمل للقبض على القاتل . ولكن لم يجسر أحد أن يندفع أول المندفعين .

فاقتربت من النافذة ، ونظرت من شق مصراعها . كان الرجل متمددا على الأرض ، شديد الشحوب . وكان يمسك بيده اليمنى مسدسا . وكان سيفه الدامى يرقد على مقربة منه . كان يدير عينيه على نحو مرعب . وكان فى بعض اللحظات يرتعش ، ويمسك رأسه بيديه ، كأنه يتذكر ما وقع تذكرا غامضا . ولم أقرأ فى هذه النظرة القلقة معنى من معانى العزم القوى ، فقلت للمقدم : انه من الخطأ أن لا يلقى أوامر الى القوزاق باقتحام الباب والاسراع الى الداخل ، فلئن يفعل ذلك الآن خير من أن يفعله حين يعود الى الرجل كامل وعيه .

وفى هذه اللحظة ، تقدم من الباب « ايصاول » * عجوز ، ونادى الرجل باسمه ، فأجابه الآخر ، فاستمر يقول :

ـ يا يفيميتش ، ياصديقى ، لقد أخطأت ، ولا مهرب الآن ، سلم نفسك ! ..

فأجابه القوزاقى :

ـ لن أستسلم ! ..

ـ اخش ربك ! لست تشتشينيا ، لست كافرا ... أنت مسيحى . لقد أثمت . ماذا تريد ؟ ان الانسان لا يستطيع أن يتحاشى ما كتب عليه ! ..

---

* هو فى الجيش الروسى القديم ضابط قوزاقى يعادل برتبته الرئيس فى المشاة .

فكرر القوزاقي يقول بلهجة متوعدة :
ـ لن أستسلم ! ..
وسمعت قرقعة زناد المسدس يفتح .
فقال الايصاول ، متجها الى المرأة العجوز :
ـ انت يا امه . كلميه قليلا ، فلعله يطيعك ... ان لم يسلم فسيغضب الله . فكرى قليلا . ان هؤلاء السادة ينتظرون هنا منذ ساعتين .
فحدقت اليه طويلا ، وهزت راسها .
فاقترب الايصاول من المقدم ، وقال له :
ـ يا فاسيلي بتروفيتش ، لن يسلم نفسه . انني أعرفه . هيا بنا . ولكن اذا اقتحمنا الباب ، فسيسقط قتلى . اليس من الافضل أن نقتله بطلقة بندقية ؟ ان في النافذة شقا واسعا .
عندئذ خطرت ببالي فكرة غريبة : اردت ، كفولتش ، أن أجرب قدري . فقلت للمقدم :
ـ انتظروا ، سآتيكم به حيا .
ثم أمرت الايصاول أن يشغله بالحديث ، وأمرت ثلاثة من القوزاق أن يستعدوا لأن يقتحموا الباب وأن يهبوا الى مساعدتي عند الاشارة المتفق عليها ، ودرت حول البيت ، حتى وصلت الى النافذة المعينة . ان قلبي ليخفق خفقانا شديداً .
كان الايصاول يصيح به :
ـ انتظر قليلا أيها الكافر ! اتعبث بنا ؟ أم تظن أننا لا نستطيع أن نتغلب عليك ؟
وأخذ يضرب الباب بكل ما أوتي من قوة .
وضعت عيني على شق النافذة ، وأخذت أرقب حركات القاتل الذي كان لا يتوقع أن يهاجم من هذه الجهة . ثم خلعت المصراع على حين فجأة ووثبت من النافذة ، ورأسي الى الأمام . فانفجرت طلقة تحت أذني ، فاقتلعت الرصاصة الشارة التي على كتفي . ولكن الدخان ملأ الغرفة ، حال بين خصمي وبين العثور على سيفه الذي كان يرقد على مقربة منه. فأمسكت بيديه ، ودخل القوزاق ، وبعد دقائق ثلاث ، كان مكبلا يقاد تحت حراسة قوية . وتفرق الجمهور ، وهنأني الضباط ، حقا لقد كنت أستحق التهنئة .
كيف لا أصبح بعد هذا جبريا أومن بالقدر ؟ ولكن هل يمكن أن يكون المرء على يقين من انه مؤمن بأي شيء من الأشياء ؟... كم

مرة آمنا بأمور هي خطأ من أخطاء الحواس ، أو ضلال من ضلالات العقل ؟ ! ... أحب أن أشك فى كل شيء . وهذا لا يمنع المرء من أن يكون ذا طبع حازم . بالعكس . اننى حين أجهل ماينتظرنى ، أكون من الاقدام على الفعل أجسر . اذ لايمكن أن يقع لى ما هو شر من الموت ، والموت لابد منه فى يوم من الايام ، قرب هذا اليوم أو بعد !

حين عدت الى القلعة قصصت على مكسيم مكسيمتش كل ما وقع لى ، وكل ما شهدته ، وكنت أريد أن أعرف رأيه فى القـدر ، فلم يفهم هذه الكلمة . فشرحت له معناها ما وسعنى الشرح ، فقال لى وهو يهز رأسه فى كثير من الجد والوقار :

ــ هم ... هذا أمر معقد كثيرا !.. على ان هذه الأسلحة التى يستعملها الآسيويون كثيرا ما لا تخرج طلقـاتها ، اذا لم تشحم تشحيما كافيا ، أو اذا لم يشد المرء الزناد بقوة كافية . وأعترف اننى لا أحب البندقيات الشركسية ، فهذه الأسلحة لم تخلق لنا . ان قنداقها صغير جدا ، حتى ان احدنا يكون معرضـا دائما لأن يحرق أنفه حين استعمالها ... أما سيوفهم ، فحدث عنها ولا حرج ! ..

ثم أضاف بعد بضع لحظات من التفكير :

ــ نعم ، اننى أرثى لذلك المسكين ... ولكن لماذا التحدث مع سكران فى ظلام الليل البهيم ؟ لابد من الاعتقاد أن هذا كله قد كتب له ...

ذلكم كل ما استطعت أن أستخرجه من الرئيس : انه لا يحب المناقشات الميتافيزيقية .

١٨٣٨ ــ ١٨٣٩م

انتـــهى

تعليق

فى شهر مايو (ايار) من عام ١٨٤٠ ظهرت فى المكاتب ببطرسبورج رواية « بطل من زماننا » بقلم شاب فى الخامسة والعشرين من عمره ، هو ميخائيل ليرمونتوف ، الذى كان قبل ذلك الحين شاعرا شهيرا .

وظفرت الرواية بنجاح عظيم فنفدت جميع نسخها . وكان كل قارىء يحب أن يعرف . من هذا الشخص الذى يسميه الكاتب « بطل من زماننا ؟ » ان الصورة تحاكى بطلا ، وتأخذ منه مثالا ... والعنوان نفسه يبلبل ...

ان الرواية تجرى على صورة أصيلة كل الاصالة : هى خمس اقاصيص ، سبق أن نشرت ثلاث منها فى المجلة التقدمية « اوتيتشيستفينييه زابيسكى » ، ولكن أحدا ممن قرأوا تلك الاقاصيص منفصلة ، لم يلاحظ أنها تؤلف كلا واحدا . انها ترتبط بعضها ببعض بالشخصية الرئيسية بتشورين ، الضابط المنفى الى جيش القفقاس .

والفصول المختلفة من هذه الرواية : « بيلا » ، « مكسيم مكسيمتش » ، « تامان » ، « الأميرة مارى » ، « الجبرى » ، ليست متعاقبة فى الزمان : فالأحداث التى يرويها القسم الثانى سابقة فى الزمان على أحداث القسم الأول . والترتيب الزمنى هو التالى : (١) يتوقف بتشورين فى تامان ، وهو ذاهب الى القفقاس، حيث يقوم بالخدمة العسكرية (« تامان ») . (٢) بعد أن اشترك بتشورين فى احدى الحملات العسكرية ذهب الى بياتيجورسك وكيسلوفودسك ، حيث المياه المعدنية ، وتبارز هنالك مع جروشنيتسكى فقتله (« الأميرة مارى ») . (٣) نقل بتشورين بعد تلك المبارزة الى قلعة فى الجانب الأيسر من « الخط القفقاسى » تحت امرة الرئيس مكسيم مكسيمتش (« بيلا ») . (٤) يغيب بتشورين عن القلعة مدة أسبوعين ويذهب الى قرية قوزاقية ، ويراهن هنالك فولتش (« الجبرى ») . (٥) بعد ذلك بخمس سنين ، يلتقى بتشورين ، الذى استقال وكان فى طريقه الى بلاد

فارس ، بمكسيم مكسيمتش فى فلاديقفقاس («مكسيم مكسيمتش»).
(٦) يموت بتشورين أثناء عودته من بلاد فارس (مقدمة « يوميات بتشورين ») .

يصور لنا ليرمونتوف بطله بتشورين ، فى أول الأمر ، كما يراه رئيس فى الجيش متواضع بسيط ، ينتمى الى بيئة اجتماعية مختلفة عن بيئته . وفى الأقصوصة الثانية يلاحظ المؤلف نفسه بتشورين ؛ ويعلم القارىء بعد ذلك بموت بتشورين ، ويطلع أخيرا على يومياته . هكذا تنكشف ، شيئا فشيئا ، الجوانب المختلفة من الطبع المتناقض فى هذه الشخصية .

بتشورين شاب جميل غنى ، يتمتع بملاحظة قوية ، وذكاء حاد ؛ وينعم بثقافة لامعة . ولكن ليس له أى هدف ، ليس له اى رغبة ... ولا يجد السعادة لا فى الحب ولا فى الصداقة . وأنضر سنى حياته تنقضى بدون عمل . والقوى الكبيرة التى يحسها فى نفسه مهدرة لا تستعمل . وما أحلامه فى البطولة الا أحلام . انه وحيد ، شقى . وهو يحمل الموت والعذاب الى من تضعهم الصدفة فى طريقه .

فما هى الآفة التى جعلته يشيخ قبل الأوان ؟ لماذا لم يحقق الأعمال العظيمة التى كان يحلم بها ؟ لماذا ظلت مواهبه الفذة عقيمة ؟ لماذا ذبل فى فراغ ، وشاخ بلا نضال ؟ ..

ذلك لأنه ، فى امبراطورية نيقولاى الأول ، فى ذلك العهد الذى طفت فيه رجعية مجنونة ، لم يبصر أى هدف ، لم ير أى امكان للنضال ، ذلك ، على حد تعبير الثورى الروسى الكبير الكسندر هيرتسن ، لأن الناقوس الذى أذن لروسيا باعدام بيستل وصحبه الديسمبريين وبتتويج نيقولاى الأول ، هو الذى أذن له ببلوغه سن الرشد . ففى شهر كانون الأول من عام ١٨٢٥ ، سحقت فى ميدان مجلس الشيوخ ببطرسبرج ثورة يقودها مواطنون كرماء ، ثوريون من أبناء طبقة النبلاء . وقد حطم ذلك اليوم آمال جيل بأكمله من الشباب المفتونين بالحرية . وكان جيل بتشورين يومئذ أصغر من أن يشترك فى المؤامرة . ولم يتسع الوقت ، خلال السنين العشر التى أعقبت ذلك ، « لأن يشيخ هذا الجيل ، ولكنه كان محطما ، يعيش حياة ذابلة ضاوية فى مجتمع غريب عن كل صبوة حية ، مجتمع ذليل ، وجل ، دنى » على حد تعبير هيرتسن أيضا .
جاء وقت كان فيه بتشورين يتألم أيضا ، حين يفكر فى هذا العار ،

عار استعباد ملايين البشر . ولكن انقضت السنون ، ودفن بتشورين في أعماق نفسه عواطفه ، على أن يرى الألم باردا لايبالي . وفي بادىء الأمر دب اليه اليأس ، من شعوره بعجزه . ثم تعود ألا يؤمن بشيء ، وألا يأمل في شيء . وهكذا أصبح ، على حد تعبيره هو نفسه ، مشلول النفس . ومن هذا المشلول في روحه خلق ليرمونتوف بطل زمانه .

وكان يتساءل القارىء دهشا : « أهذا بطل ؟ دعنا اذن ! »

وعلى هذا أجاب ليرمونتوف في مقدمة روايته بقوله : « ان بطل من زماننا ... هو حقا صورة ، ولكنه ليس صورة شخص واحد ، بل صورة مؤلفة من عيوب جيلنا بأسره ... »

ولعل القارىء يفهم انه ليس ذنب بتشورين ، وهو بطل جيل شب في عهد نيقولاى الأول ، أنه كان ما كان . ان الآفة ليست في بتشورين ، ليست في خصائص طبعه ، بل في ظروف نظام العبودية ، في الطغيان القيصرى ، ان ليرمونتوف في « قصة نفس » — قصة بتشورين — يحلل ظاهرة خاصة بعصره : ان رواية «بطل من زماننا» هى رواية سيكولوجية ، ولكنها رواية اجتماعية أيضا .

وقد صادف ظهورها نقمة جديدة : نفى الشاعر مرة ثانية الى القفقاس التى كانت منذ عدة سنين مسرحا لحرب دامية (حيث أرسل مرة أولى عام ١٨٣٧ ، بسبب قصيدته «موت الشاعر» ، المخصصة لبوشكين) . ان ما اتصف به ليرمونتوف من طبع مستقل حر ، ومن احتقار للأرستقراطية ، وكذلك روح مؤلفاته التى تندد بعيوب المجتمع تنديدا جريئا وتشيع فيها حرارة النضال ومحبة الحرية ، كل ذلك قد سبب له كره نيقولاى الأول ومن يحيطون به . وفي عام ١٨٤٠ استطاع أعداء ليرمونتوف أن يثيروا مبارزة جرم بها الشاعر . ولم يعد ليرمونتوف من المنفى ، اذ قتل في مبارزة يوم ٢٧ تموز ١٨٤١ ولما يكمل السابعة والعشرين من عمره .

كتب الناقد الديموقراطى العظيم فيساريون بيلينسكى ، في الرد على المحاولات التى أرادت أن تغض من قيمة ليرمونتوف ومن قيمة روايته ، كتب يقول : « قد يصيح الأخلاقيون المتزمتون في جوقة واحدة معا : هذا رجل أنانى ، حقير ، شيطان ، لا أخلاق له !.. فأقول لهم : انكم على حق أيها السادة ! ولكن لماذا تتحمسون هكذا ؟ انكم لا تلعنونه لآفاته ورذائله (لأن بكم آفات أكثر منها ، وآفاتكم شر منها وأدعى الى الخزى والعار) ، ولكنكم تلعنونه لهذه

الحرية الجريئة ، لهذه الصراحة المرة ، فى كلامه عنها ... » لقد كان النقـــد الديمقراطى الثورى الروسى يرى فى رواية ليرمونتوف مظهرا هاما من مظاهر الفكر الحر ، وكان يرى فى شخصية بتشورين تمثيلا لواقع اجتماعى منتشر جدا ، وتجسيدا لآفات وعيوب كان يتصف بها جيل بكامله .

لقد دخل بتشورين الحياة بعد ثورة الديسمبريين ، ومات قبل أن يظهر الى حقل التاريخ الجيل التالى من الثوريين الروس : جيل الديموقراطيين الثوريين . لقد فهم بيلينسكى حق الفهم ان بتشورين هو بطل فترة انتقال ، تتميز بحالة نفسية « تهدم فيها كل ما هو قديم ، ولم يحل محله شىء جديد بعد ، حالة ليس فيها الانسان الا امكانية شىء واقعى فى المستقبل ، ومجرد شبح فى الحاضر » .

ان الحرية الفردية التى صبـا اليها بتشورين هى ــ كما كان يفهم ــ أن ينفصل عن المجتمع الراقى الذى يحتقره بتشورين ، وأن يعيش بعيدا عن أولئك الذين هم دونه كثيرا من الناحية النفسية والعقلية . فانكفأ على نفسه ، وضوى فى وحدته التراجيدية . انه لا يملك وسائل الـكفاح ضد بيئة معادية .

أما ليرمونتوف ، فقد كان يملك سلاحا هو : الشعر . وانه ، اذ فضح فى روايته مســاوىء النظام ، فقـــد أسهم فى تقدم الفكر الاجتماعى . وهنا ، تكمن القيمة التاريخية العظيمة لرواية « بطل من زماننا » .

ايراكلى آندرونيكوف



هـــذه الروايـــة

« ... لن نثنى على هذا الكتاب : فلا المدح يفيد ، ولا القدح يؤثر ... لا شيء ، ولا أحد ، يمكنه ان يمنع هذا الكتاب من أن ينتشر ، ومن أن يباع حتى آخر نسخة منه ... »

(فيساريون بيلينسكى من مقالة عن « بطل من زماننا »)

« فى كتاب : « بطل من زماننـــا » ، فى اقاصيصه الخمس : « بيلا » ، « مكسيم مكسيمتش » ، « تامان » ، « الاميرة مارى » . « الجبرى » ، التى يربط بعضها ببعض شخص بتشورين ، بطل ذلك الزمان ، الذى هو ثمرة عصر رهيب ، مجرد من الاخلاق ، قاس ، والذى يطوف بعقمه وضجره بين روائع ال... الذين يملكون قلبا بسيطا ، كريما ، نقيا ، يعـــر... كمال فنه الواقعى الناضج ، صاحب الاســـلوب ال... والعذب » .

(الكسى تولستوى . « فى ذكرى ...



٢٠٠ قـــروش